ذكريات من حياتي

بقلم

أبي الفتوح عبد الله عبد القادر التليدي

دار القلم
دمشق

ذكريات من حياتي

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ١١٣ / ٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيِّدنا محمدٍ وآله وصحبه

مقدّمة

الحمد لله على ما ألهم وعلَّم، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيِّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم، وبعد:

فقد كنت منذ سنوات عدَّة كتبت ترجمةً لي موجزةً بطلب من بعض أصحابنا وأحبتنا بمكة المكرمة(١)، نُشرت في آخر «تهذيب الخصائص»، «وأسباب هلاك الأمم».

ثم تكاثرت الطلباتُ عليَّ من جماعة من أهل العلم والفضل في المشرق والمغرب، لبسط حياتي واستيعابها، فأفردتها في هذه المذكرة، واستوعبت فيها حياتي في الجملة، وذكرت ما منَّ الله تعالى به عليَّ من نِعَم جلائل سوابغ، لعلها تُصادف قارئاً مُنصفاً ينتفع بما فيها، فتشملني دعوته الصالحة وترحُّمه عليَّ بعد وفاتي وغيابي عن هذه الحياة، وسمَّيته: «ذكريات من حياتي».

وفي هذه المقدِّمة سنتعرض لمبحثين هامين: الأول: في حكم تزكية النفس والثناء عليها مَنْعاً وجَوازاً، والثاني: في فوائد التاريخ ومنافعه وثمراته.

❀ ❀ ❀

---

(١) هو العلامة الحبيب الأستاذ مَجْد مكي الحلبي ثم المكي، وفَّقه الله ورعاه.

المبحث الأول

مدح الإنسان نفسه أو غيره

إنَّ كتابة المرء ترجمته وأخبار حياته قد يكون فيها خطر على دينه؛ إذ إنه ربما مَدَح نفسه وزكَّاها، وذكر فضائلها ومناقبها، وقد يكون في ذلك نوعٌ من التفاخر ممَّن يكون سيء النية، وفي ذلك الهلاك المحقَّق لمن لا يراجع أمره، ويتوب إلى مولاه.

ولذلك تورَّع جمعٌ من العلماء عن التعرُّض لذلك خوفاً على أنفسهم، بل ذمُّوا ذكر المرء مناقبه وفضائله، واستدلُّوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، قالوا: إن الآية تنهانا عن تزكية أنفسنا ومدحها.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تمدحوها وتشكروها وتمنُّوا بأعمالكم ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء: ٤٩].

ثم ذكر حديثَ محمد بن عمرو بن عطاء قال: سمَّيْتُ ابنتي بَرَّة، فقالت لي زينبُ بنتُ أبي سلمة: إنّ رسول الله ﷺ نَهَى عن هذا الاسم، وسُمِّيت بَرَّة، فقال رسول الله ﷺ:

«لا تزكُّوا أنفسَكم إنَّ اللهَ أعلمُ بأهلِ البِرِّ منكُمْ».

فقالوا: بمَ نسمِّيها؟ قال: **سمُّوها زينب**»[1].

وقال القرطبي في الآية: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تمدحوها ولا تُثْنوا عليها؛ فإنه أبعد من الرياء، وأقرب إلى الخشوع.

---

(١) رواه مسلم في الأدب (١٤/ ١٢٠) بشرح النووي (المؤلف).

وقال في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ﴾: هذه الآية وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ يقتضي الغضّ عن المزكّي لنفسه بلسانه، والإعلام بأنَّ المُزكَّى مَنْ حَسُنت أفعاله وزكَّاه الله ﷻ، فلا عِبْرة بتزكية الإنسان نفسه، وإنما العبرة بتزكية الله له، ثم قال: فدلَّ الكتاب والسنة على المنع من تزكية الإنسان نفسه اهـ.

وسيأتي له ما يخالف هذا من الجواز.

هذا أظهر ما استدلُّوا به على المنع، وفي مقابل ذلك أدلة كثيرة تدل على الجواز، قال بها جَمْعٌ غفير من العلماء، وفيهم من قال باستحباب ذلك، بل فيهم من أوجب ذكرها وإفشاءها، ويمكن أن نجمل أدلتهم وما قالوا في الآتي:

أولاً: قول الله تعالى خطاباً لنبيِّه ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى:١١]، قالوا: إن الأمر للوجوب، وليس له صارف، وهو وإنْ كان موجَّهاً للنبيِّ ﷺ، فأمته تابعةٌ له في ذلك، مقتديةٌ به، ولا أقلَّ أن يكون مستحباً[١].

قال القرطبي رحمه الله في الآية: «أي: انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء والتحدُّث بنعم الله تعالى، والاعترافُ بها شكرٌ، قال: والخطاب للنبيِّ ﷺ، والحكم عام له ولغيره...» اهـ.

قال الآلوسي رحمه الله في الآية: «التحدُّثُ بها شكرٌ لها، كما قال عمر بن عبد العزيز، وقتادة، والفضيل بن عياض، قال: وقد استحبَّ بعض السَّلَف التحدُّث بما عمله من الخير، إذا لم يُرد به الرياءَ والافتخارَ، وعلِم الاقتداء به...» اهـ.

وقال النَّسَفي عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾: «وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء لا على سبيل الاعتراف بالنعمة؛ فإنه جائز؛ لأن المسرَّة بالطاعة، طاعة وذكرها شكر».

---

(١) انظر: فتح البيان للعلامة القنوجي.

ثانياً: قوله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف ﷺ: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف:٣٧].

قال الزَّمَخْشري في «الكشَّاف»: «وفيه أن العالم إذا جُهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده، وغرضه أن يقتبَس منه، ويُنتفع به في الدين لم يكن من باب التزكية، . . .».

وهذا بناء على أنَّ شرع مَنْ قبلنا شرعٌ لنا.

ثالثاً: قوله تعالى في قصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام أيضاً: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، قال ابن كثير في الآية: «فيه مدح نفسه»، قال: و«يجوز للرجل ذلك ـ إذا جُهل أمره ـ للحاجة».

وقال الخازن في الآية: «فإن قلت: كيف مدح يوسف نفسه بقوله: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾؟ قلت: إنما يكره تزكية النفس إذا قَصَدَ به الرجل التطاول والتفاخر، والتوصُّل به إلى غير ما يحل.

فهذا القدر المذموم في تزكية النفس، أما إذا قَصَدَ بتزكية النفس ومدحها إيصال الخير والنفع إلى الغير، فلا يكره ذلك، ولا يحرم، بل يجب، مثاله: أن يكون بعض الناس عنده علم نافع، ولا يعرف به، فإنه يجب عليه أن يقول: أنا عالم».

رابعاً: حديث النُّعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ على هذه الأعواد أو على هذا المنبر: **«من لم يشكر القليلَ لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدُّث بنعمة الله شُكْر وتركها كُفْر، والجماعة رَحْمة، والفُرْقة عذاب»**(١).

(١) رواه أحمد (٢٧٨/٤، ٣٧٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥١٦/٦) هكذا مطولاً وسنده حسن. ورواه القضاعي في مسند الشهاب (٤٣/١)، والطبراني في الكبير وغيرهما مختصراً (المؤلف).

فدلَّ هذا الحديث على أن التحدُّثَ بالنِّعم واجب، وأن ذلك شكرٌ لها، كما أن عدم إفشائها، وإخفاءَها كفرٌ لها.

خامساً: حديث جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أبلىٰ بلاءً فَذَكَرَهُ، فقد شَكَرَهُ، وَإنْ كَتَمه فَقَد كَفَرَهُ**»(١).

«أبلى بلاء»، أي: اجتهد في الأمر، كالجهاد ونحوه، وبالغ فيه.

فذكر ذلك بقصد التحدُّث بنعمة الله تعالى عليه كان شكراً لله مطلوباً منه، ولا يجوز له كتمه، فيكون قد كفر نعمة الله عليه.

سادساً: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ الله جَميلٌ يحبُّ الجَمَال، ويحبُّ أن يَرَى أَثَر نِعْمَتِهِ على عَبْدِهِ**»(٢).

وإظهار النعم كما يكون بالفعل يكون بالقول والتحدُّث بها، ولا فارق.

سابعاً: عمل السَّلَف والعلماء والأئمة على ذلك وهم القدوة، وبهم التأسّي بعد رسول الله ﷺ.

فقد أخرج ابن جرير(٣) بسند صحيح عن أبي نَضْرة رحمه الله تعالى قال: كان المسلمون، يعني التابعين، يرون أن من شُكر النعم أن يحدِّث بها.

وذكر ابن أبي حاتم في «تفسيره»(٤) عن سيدنا الحسن بن سيدنا علي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

قال: إذا أصبت خيراً فحدِّث إخوانك.

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٨١٤) بسند صحيح على شرط مسلم (المؤلف).

(٢) رواه أبو يَعْلى في مسنده (١/ ٤٥٢)، والبيهقي في الشُّعَب (٥/ ١٦٣)، والقضاعي في مسند الشِّهاب (٢/ ١٤٤)، وهو وإن كان فيه ضَعْف فإن للحديث شواهد وطرقاً يُصَحَّح معها. بل الجملة الأخيرة جاءت بحدِّتها من طرق بعضها صحيحة بمفردها كرواية زهير بن أبي علقمة الضبي، فقد عَزَاه نور الدين الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٣٢) للطبراني وقال: رجاله ثقات (المؤلف).

(٣) (٣٠/ ٢٣٤).

(٤) (١٠/ ٣٤٤٤).

وذكر القرطبي[1] وغيره عن أبي فراس عبد الله بن غالب أحد عُبَّاد التابعين أنه كان إذا أصبح يقول: لقد رزقني الله تعالى البارحة كذا، قرأت كذا، وصلَّيت كذا، وذكرت الله كذا، وفعلت كذا، فقلنا له: يا أبا فراس، إنَّ مثلك لا يقول هذا.

فقال: يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾، وتقولون أنتم: لا تحدِّث بنعمة الله. قال القرطبي: ونحوه عن أيوب السختياني وأبي رجاء العطاردي رضي الله عنهم اهـ.

وأخرج ابن أبي شيبة في «المصنَّف» عن أبي صالح السمَّان قال: كان عمرو بن ميمون رحمه الله تعالى، إذا لقي الرجل من إخوانه قال: رزق الله البارحة من الصلاة كذا وكذا، ومن الخير كذا وكذا...

وذكر البيهقي في «شعب الإيمان» باب في تعديد نعم الله[2] عن يحيى ابن سعيد رحمه الله قال: كان يقال: إنَّ تعداد النعم من الشكر.

وعن ابن أبي الحواري قال: جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذاكران في النِّعم يقولان: أنعم الله علينا بكذا، أنعم الله علينا بكذا...

وقال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه «التحدُّث بالنعمة»: «إنما ذكرت مناقبي اقتداءً بالسَّلَف الصالح، وتعريفاً بحالي في العلم، ليأخذه الناس عني، وتحدُّثاً بنعمة الله تعالى لا افتخاراً على الأقران، ولا طلباً للدنيا ومناصبها وجاهها...» إلخ.

وقال العارف الشَّعْراني رحمه الله تعالى في أول «لطائف المنن»[3]: «خامسها: اقتدائي في ذلك بالسَّلَف الصالح رضي الله تعالى عنهم، وقد سبقني إلى مثل ذلك جماعة، ذكروا مناقبهم في طبقاتهم تحدُّثاً بنعمة الله عز وجل، وتعريفاً

---

(١) (٢٠/١٠٢).
(٢) (٤/١١٠).
(٣) (١/٣).

بأحوالهم، ليأخذ الناس عنهم العلم والطريق»، ثم ذكر نحو خمسة عشر من أكابر العلماء والصالحين الذين ذكروا مناقبهم في كتب خاصة لهم.

ثم ذكر عن شيخه سيدي علي الخوَّاص رحمه الله تعالى أنه كان يقول: «اذكُر كَمَالاتِكَ ما استطعت، فإنه بذلك يكثُر شُكرك لله تعالى، وإيَّاك والإكثار من ذكر نقائصك، فإنه بذلك يقلُّ شكرك» إلخ.

وقال في «العهود المحمديَّة»: «ومن التأسِّي به ـ يعني النبيَّ ﷺ ـ أن نتحدَّث بكل نعمة أنعم الله تعالى بها علينا، ولا نكتمها، ولا نتحدَّث في سرائرنا بها، بل نُعْلن بها على رؤوس الأشهاد.

وكان العارف الكبير سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول كثيراً لأصحابه: أعلنوا بطاعتكم إظهاراً لعبوديتكم كما يتظاهر غيركم بالمعاصي، وعليكم بالإعلام للناس بما منحكم الله من العلوم والمعارف».

وقال أستاذنا الإمام الحافظ سيدي أحمد بن الصدِّيق رحمه الله تعالى ورضي عنه في مقدمة كتابه «البحر العميق»، وهو عندنا مخطوط بخط يده: «أما بعد؛ فلما كان التحدُّث بنعم الله تعالى على عبده من الشكر الواجب المحتَّم، وذكرها من الفرض اللازم الذي يجب أن يُفشى ولا يُكتم، وترك ذلك من الكفران المحرَّم الممنوع، والكتمان الموجب للحرمان بالدليل المعقول والمسموع، وكان من أسباب دوام التحدُّث وعدم انقطاعه، وجريان ثوابه على العبد، وخلود انتفاعه، تسطيره في كتاب يشهد به المتأخِّر اللاحق، كما يشهد به المعاصر السابق، أفردتُ هذا الكتاب لترجمتي، وذكر ما أنعم الله تعالى به عليَّ من النعم الجلائل اقتداءً بما سلف من الأئمة والعلماء؛ إذ لا يُحْصى منهم مَنْ ترجم لنفسه بتأليف مفرد، أو ضمن تاريخ أو معجم، عملاً بالوارد في ذلك، وقياماً بشكر ما هنالك، ومحبة في تخليد الذكر بين المؤمنين. .» إلى آخر ما قال.».

ولنختم هذه الأدلة بكلام رائع هام جامع للإمام النووي رحمه الله تعالى، قاله في «الأذكار» في باب مدح الإنسان نفسه وذكر محاسنها:

«اعلم أنَّ ذكر محاسنه ضربان: مذموم ومحبوب، فالمذموم: أن يذكره للافتخار وإظهار الارتفاع وشبه ذلك، والمحبوب: أن يكون فيه مصلحة دينية، وذلك بأن يكون آمراً بالمعروف أو ناهياً عن المنكر، أو ناصحاً، أو مشيراً بمصلحة، أو معلماً، أو مؤدِّباً، أو واعظاً، أو مذكراً، أو مصلحاً بين اثنين، أو يدفع عن نفسه أو نحو ذلك، فيذكر محاسنه ناوياً بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله، واعتماد ما يذكره، وأن هذا الكلام الذي أقوله لا تجدونه عند غيري فاحتفظوا به، فقد جاء في مثل هذا المعنى كثير من النصوص، كقول النبي ﷺ: **أنا النبيُّ لا كَذِب**[١]، **أنا سيِّد وَلَد آدم**[٢]، **أنا أول مَنْ تنشق عنه الأرض**[٣]، **أنا أعلمكم بالله وأتقاكم**[٤]، **أنا أبيتُ عند ربي**[٥]، وأشباه هذا.

وقال يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

وقال شعيب[٦] عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وقال عثمان رضي الله عنه حين حُصر ما رُوِّيناه في صحيحي البخاري ومسلم أنه قال: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: **من حَفَر بئر رُومة فله الجنة**»، فإني حفرتها، وصدَّقوه.

وروِّينا في صحيحيهما عن سعد رضي الله عنه أنه شكاه أهل الكوفة إلى عمر رضي الله عنه، وقالوا: لا يُحسن يصلِّي، فقال سعد: والله إني لأول مَنْ رمى بسهم في سبيل الله، ولقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، وذكر تمام الحديث.

---

(١) رواه البخاري ومسلم كلاهما في الجهاد من حديث البراء بن عازب (المؤلف).

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة (المؤلف).

(٣) رواه مسلم في الفضائل من حديث أبي هريرة (المؤلف).

(٤) هو في الإيمان من البخاري بلفظ: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»، وفي رواية في الأدب: «**إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية**»، وكذا عند مسلم وهو من حديث عائشة. وفي رواية عند أحمد عن رجل من الأنصار: «**أنا أتقاكم لله وأعلمكم بحدوده**»، وسنده صحيح (المؤلف).

(٥) هو في الصيام من الصحيحين عن أبي هريرة (المؤلف).

(٦) التاريخ يخالف هذا التفسير، فإن بين شعيب وموسى قروناً كثيرة.

وَرُوِّينا في صحيح مسلم عن عليّ ﷺ قال: والذي فلَق الحبة وبرأ النَّسَمة إنه لعهد النبي ﷺ إلي أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق.

ورُوِّينا في صحيح مسلم عن أبي وائل قال: خطبنا عبد الله بن مسعود ﷺ فقال: والله لقد أخذت مِنْ في رسول الله ﷺ بضْعاً وسبعين سورة، ولقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أني أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني لَرحلتُ إليه.

وَرُوِّينا في صحيح مسلم عن ابن عباس ﷺ أنه سُئل عن البدَنة فقال: على الخبير سقطت، يعني نفسه، وذكر تمام الحديث. ونظائرها كثيرة لا تنحصر، وكلها محمولة على ما ذكرنا». هذا آخر كلام النووي.

يبقى بعد هذا، هل يجوز المدح من الغير؟ في ذلك تفصيل: فإن كان المدح في الوجه مُنع منعاً باتاً خوفاً على الممدوح من الإعجاب... ففي حديث أبي بكرة ﷺ قال: أثنى رجل على رجل عند النبيِّ ﷺ فقال: **«وَيْحك قطعت عُنُق صاحبك»**، ثم قال: **«من كان مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً، والله حسيبه ولا يُزَكّي على الله أحداً، أحسب فلاناً كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه»**[1].

وقوله: «قطعتَ عُنُق صاحبك»، أي: أهلكته بالإطراء، فإنه يعجب بذلك فيهلك... وينبغي لمن مُدح في وجهه أن يمنع المادح، بل ويحثو التراب في وجهه لحديث المقداد ﷺ قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المدَّاحين التراب[2].

أما إذا كان المدح في غيبة عن الممدوح فلا بأس به لأدلة كثيرة في ذلك، وقد أثنى النبيُّ ﷺ كثيراً على جماعة من الصحابة ومدحهم في غيبتهم، وصدر منه ذلك بكثرة كما يعلم من تتبَّع السنة... وما جاء في مدحه بعض الصحابة بحضرتهم محمولٌ على أمنهم من الإعجاب والتعاظُم...

❀ ❀ ❀

(١) رواه البخاري في الأدب، ومسلم في الزهد (١٨/ ١٢٦) (المؤلف).

(٢) رواه مسلم في الزهد (١٨/ ١٢٧، ١٢٨) (المؤلف).

المبحث الثاني

كلمة عن التاريخ وفوائده

إن للتاريخ منافعَ هامة، ومزايا كثيرة، وفضائلَ لا تُنكر، وخاصَّة تواريخ العلماء والنسَّاك والصالحين. . . وقد أخطأ وأبعد النُّجعة من ذمَّ علم التاريخ على إطلاقه، كيف لا وهذا القرآن الكريم ـ وهو أقدس ما عند المسلمين ـ قد أخذ قسمُ التاريخ منه نحواً من ثلثه، فقد ذكر تعالى قَصَص الأنبياء وسيرَهم وأحوالهم مع أممهم مبيَّنَةً ومفصَّلة، وأشاد بذكر فضائلهم ومزاياهم في كثيرمن السُّور، ولم يَبْقَ الأمر مقصوراً على الأنبياء، بل ذكر أخبار أقوام آخرين صالحين كأصحاب الكهف، وذي القرنين، ولقمان الحكيم في آخرين ذكوراً وإناثاً، كما ذكر أخبار أئمة الكفر وأساطين الطغيان، كفرعون وهامان وقارون وابن باعوراء وغيرهم. . .

وقال لنبيِّه ﷺ في حقِّ ذلك: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

وقال عقب قصة كليمه سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾. . .

وإلى جانب ما ذكره القرآن فقد حدثنا نبيُّنا ﷺ عن تواريخ أقوام مرُّوا قبلنا في عصور وأجيال كانوا عبراً لنا، كقصة الكِفْل، والمرأة المُضْطرة، والمرأة الباغية مع الكلب، والأخَوَين العابد والعاصي، والرجل المتعبِّد في جزيرة خمسمئة سنة، وجُرَيْج الراهب وقصته مع المومسة وأمه، والطفل المتكلِّم في المهد، وقصة الثلاثة: الأقرع والأبرص والأعمى، وقصة أصحاب الغار الثلاثة، وقصة الفلاح الصالح، وقصة المرأة التي حَبَست الهرَّة حتى ماتت فَعُذِّبت لذلك. . . إلى غيرها من أخبار المتقدِّمين الذين جمعتهم بتوفيق الله تعالى وإذنه في كتاب «عجائب الأقدمين»، والحمد لله على ذلك.

وكان علماؤنا الأوائل من أهل الحديث رحمهم الله تعالى ممَّن اعتنَوا بتدوين تواريخ الأقدمين واللاحقين، فعقدوا في جوامعهم أبواباً خاصَّة للتاريخ ذكروا فيها أخبار الأنبياء والصحابة وفضائلهم. . . وإذا رجعتَ إلى أشهر كتاب وأصحِّه، وهو صحيح الإمام البخاري رضي الله عنه، وجدت في مضامينه كتاباً يحمل اسم بَدْء الخلق، وكتاباً آخر في الأنبياء، وثالثاً في المناقب، أورد فيه سيرة النبيِّ ﷺ وما يتبع ذلك، ثم مناقب الصحابة وأخبارهم، وهكذا تجد في كل الجوامع.

ومن هذا المنطلق جاء تاريخ الإسلام، فكتب علماؤنا رحمهم الله المجلَّدات والأسفار في التاريخ الإسلامي على اختلاف مناهجهم وتخطيطاتهم بدايةً من تاريخ نبيِّنا ﷺ وحياته وسيرته وغزواته وشمائله ومعجزاته وخصائصه. . . ثمَّ تتابعت الكتابات في التاريخ العام والخاص، حتى أصبحت المكتبة الإسلامية تزخر بها، وظهر أكثرها لعالم المطبوعات، وانتفع الناس بها كثيراً.

وقد ذكروا للتاريخ على العموم وعلم الرجال والتراجم على الخصوص فوائد وثمرات يجنيها القارئ منها، وإفادة للقارئ نورد شيئاً ولو قليلاً مما قاله علماؤنا رحمهم الله في ذلك.

قال الإمام النووي رحمه الله في كتابه «تهذيب الأسماء واللغات»: «اعلم أنَّ لمعرفة أسماء الرجال وأحوالهم وأقوالهم ومراتبهم فوائد كثيرة:

منها: معرفة مناقبهم وأحوالهم فيتأدَّب بآدابهم، ويقتبس المحاسن من آثارهم.

ومنها: مراتبهم وأعصارهم، فيُنزلون منازلهم، ولا يُقصِّر بالعالي في الجلالة عن درجته، ولا يُرْفع غيره عن مرتبته، وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وثبت في صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لِيَلِيَني منكم أُولو الأحلام والنُّهى ثم الذين يلونهم**»، ثلاثاً.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم.

قال الحاكم أبو عبد الله في «علوم الحديث»: هو حديث صحيح. وأشار أبو داود في سننه إلى أنه مرسل.

ومنها: أنهم أئمتنا وأسلافنا كالوالدين لنا، وأجْدَى علينا في مصالح آخرتنا التي هي دار قرارنا، وأنصح لنا فيما هو أعْوَد علينا، فيقبح بنا أن نجهلهم، وأن نُهْمِلَ معرفتهم.

ومنها: أن يكون العمل والترجيح بقول أعلمهم وأورعهم إذا تعارضت أقوالهم.

ومنها: بيان مصنَّفاتهم، وما لها من الجلالة وعدمها، والتبيه على مراتبها. وفي ذلك إرشادٌ للطالب إلى تحصيلها، وتعريفٌ له بما يعتمده منها، وتحذيره مما يخالف من الاغترار به، وغير ذلك، وبالله التوفيق».

وقال أبو الفرج ابن الجَوْزي في مقدِّمة «المُنْتظم»: «وللسِّير والتواريخ فوائد كثيرة أهمها فائدتان: **إحداهما**: أنه إن ذكرت سيرة حازم، وَوُصفت عاقبة حاله، أفادت حُسن التدبير واستعمال الحزم. أو سيرة مفرِّط، وَوُصفت عاقبته أفادت الخوف من التفريط، فيتأدب المتسلِّط، ويعتبر المتذكِّر، ويتضمَّن ذلك شحذ صوارم العقول، ويكون روضة للتنزُّه في المنقول.

والثانية: أن يطَّلع بذلك على عجائب الأمور وتقلُّبات الزمان، وتصاريف القدر وسماع الأخبار...» إلخ.

وقال ابن عبد البر في «الاستذكار»: «معرفة أعمار العلماء والوقوف على وفياتهم من علم خاصَّة أهل العلم، وإنه لا ينبغي لمن وَسَم نفسه بالعلم جهل ذلك...».

وقال ابن خلدون في «مقدمته»: «التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتُشدُّ إليها الركائب والرِّحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال؛ إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأمم والدول والسوابق من القرون الأول، تُنمى فيه الأقوال، وتضرب فيه الأمثال، وتطرب به الأندية إذا غصَّها الاحتفال» إلخ.

وقال الصَّلاح الصَّفدي: «التاريخ للزمان مرآة، وتراجم العلماء للمشاركة

والمشاهدة مرقاة، وأخبار الماضين لمن عاقره الهموم مَلْهاة، وقد أفاد حزماً وعزماً وموعظةً وعلماً وهمَّةً تذهب هماً، وبياناً يزيل وهماً، وصبراً يبعثه التأسِّي بمن مضى، واحتشاماً يوجب الرضا بما خفي وجلا من القضا...».

قال العلامة محمد بن عبد الملك الهمداني في «ذيل تاريخ ابن جرير»: «والاطِّلاع في أخبار الناس مرآة الناظر يصدق فيرغب في المحاسن ويرهب من القبائح، ومهذِّب ذوي البصائر والقرائح، وبها يذكر الله مِنْ عباده مَنْ يراه أهلاً لذكره، ومستوجباً لكريم ثوابه وأجره...».

وقال محمد بن خميس في «تاريخ مالقة»: «إن أحسن ما يجب أن يُعتنى به، ويُلَمَّ بجانبه بعد الكتاب والسنة معرفة الأخبار، وتقييد المناقب والآثار، ففيها تذكرة بتقلُّب الدهر بأبنائه، وإعلامٌ بما طرأ في سالف الأزمان من عجائبه وأنبائه، وتنبيهٌ على أهل العلم الذين يجب أن تُتَّبع آثارهم وتدوَّن مناقبهم وأخبارهم، ليكونوا كأنهم ماثلون بين عينيك مع الرجال، ومتصرِّفون ومخاطبون لك في كل حال، ومعروفون بما هم متَّصفون، فيتلو سيرَهُم من لم يُعاين صورهم، ويشاهد محاسنهم من لم يعطه السن أن يعاينهم، فيعرف بذلك مراتبهم ومناقبهم...» إلخ.

والنصوص في هذا الموضوع كثيرة، وليراجع «الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التاريخ» للسخاوي، «وحُسن المحاضرة» للحافظ السيوطي، «وسَلْوة الأنفاس» للإمام المحدث سيدي محمد بن جعفر الكتاني، وأوائل «الاستقصا» للناصري، «وشجرة النور» لابن مخلوف، «ونيل الابتهاج في ذيل الديباج» لأحمد بابا، وغير ذلك...

وإذْ قد فَرَغْنَا من هذه المقدمة، فلنشرع في الموضوع مستعينين بالله ﷻ.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد، والحمد لله رب العالمين.

يوم الأحد ١٤٢٣/٢/١هـ

الموافق ٢٠٠٢/٤/١٤م

وكتبه الفقير إلى رحمة الله ولطفه

عبد الله بن عبد القادر التليدي

اسمه ونسبه ووالده

❑ اسمه ونسبه:

هو أبو الفتوح وأبو محمد، عبد الله بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن عبد السلام التليدي.

ينتمي نسبُهُ إلى جدِّ أولاد التَّليدي سليمان بن محمد بن علي بن عيسىٰ بن محمد بن موسىٰ بن إسماعيل بن حمزة بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسىٰ بن سيدي نابت بن مهدي بن خالد بن عمران بن صفوان بن يزيد بن خالد بن عبد الله ابن مولانا إدريس الأنور، دفين فاس ابن مولانا إدريس الأكبر فاتح المغرب، دفين زرهون بن مولانا عبد الله الكامل ابن مولانا الحسن المثّنى ابن مولانا الحسن السِّبط ابن الإمام سيدنا علي ومولاتنا الطاهرة فاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله ﷺ.

هكذا رفع نسب أولاد التليدي العلامة ابن الحوَّات نقيب الأشراف في وقته بالمغرب في تقييده المشهور، وهو الذي بأيدي أولاد التَّليدي، والله تعالى أعلم.

❑ أصل عائلته:

كان أجداده بعد الاضطهادات التي تعرَّض لها الأشراف بالمغرب يسكنون بقبيلة بني خالد الجبليَّة إحدى القبائل الغمارية الجنوبية، ولا يزال أبناء أعمامه القُدامى هنالك، وضريح جدِّهم سيدي أحمد السني مشهور يزار بتلك القبيلة .

وخرج من القبيلة أربعة إخوة مهاجرين قبل القرن العاشر الهجري، فنزل أحدهم بمدينة شفشاون، والثاني بالأخماس، والثالث بقبيلة أنجرة المجاورة لطنجة، والرابع بقبيلة بني كرفط.

ومن هؤلاء تفرَّع أولاد التليدي الحاليون الموجودون بشفشاون وتطوان وطنجة والعرائش والقصر الكبير. . . وما جاورها من بعض القبائل.

وأما الذي استقرَّ بالأخماس السفلى، فإليه ينسب بنو تليد الأخماس، ومنهم العارف أبو الحجاج يوسف بن الحسن التليدي[1].

□ والده رَحِمَهُ اللَّهُ:

هو أبو عبد الله عبد القادر بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد السلام التليدي، المحبُّ الفاضل، العابد الزاهد، ولد أواخر أيام الملك الحسن الأول العلوي في العقد الأول من القرن الرابع عشر، وقتل والده شهيداً؛ وقد أشرف على حفظ القرآن، فنشأ يتيماً مع أختيه فاطمة وصفية وأمه فاطمة المصورية. وكان عمُّه السيد عمر التليدي الحامل لكتاب الله وصياً على أولاد أخيه.

وكان المغرب وقتئذ كباقي العالم الإسلامي تسوده الفتن والفوضى والاضطرابات، وسفك الدماء، وانتشار العصابات واللصوص وقطاع الطريق، وخاصة أيام إمارة عبد العزيز وأخيه عبد الحفيظ العلويَّيْن، حتى ضعفا عن نشر الأمن في البلاد والاستقرار، والقضاء على الفساد والفوضى، وخاصة في القبائل الجبلية. . . وكان ذلك من عوامل عقد عبد الحفيظ العلوي الحماية مع فرنسة. . . فجاءت بجيوشها وقوتها وعتادها مدرَّبة منظَّمة تحارب الشعب المغربي لتحتله، وكان نصيبها الذي أُعطيته من المغرب جنوبه الشاسع الأطراف.

بينما خرجت إسبانية تزحف هي الأخرى بجيوشها بمثل ما جاءت به أختها فرنسة بشمال المغرب. . . فكانت الحرب العالمية الأولى العظمى التي كان مبدؤها سنة ١٩١٤ بتاريخ النصارى، وانتهت سنة ١٩١٨، وجاء كمال

---

(١) العارف بالله سيدي يوسف التليدي هو الوليُّ الكبير، وصاحب الزاوية المشهورة ببني تليد من قبيلة الأخماس الذي أخذ عن سيدي عبد الله الغزواني رضي الله عنه، وكان من أكبر تلامذته العارف الكبير علي الشلي السريفي رحمهم الله. وقد توفي الشيخ يوسف عام ٩٥٠ هجرية، ودفن بزاويته اهـ. (المؤلف) من المغرب.

احتلال شمال المغرب عام ١٩٢٦، ثم تمَّ احتلاله والسيطرة على باقي جنوبه فيما بعد من طرف فرنسة.

وعاش الوالد جاهلية ما قبل الحرب العالمية الأولى. وفي بداية شبابه خاض غمار مقاومة الاستعمار الإسباني من بداية الحرب إلى نهايتها، وكانت مدة ذلك أكثر من عشرين عاماً. وكان رَحِمَهُ اللهُ من المقاومين الذين تمرَّدوا على الاستعمار بعد سيطرته ونزعه الأسلحة من المواطنين.

ولم يستسلم حتى وقع في فخ نصبه له بعض أقاربه عفا الله عنا وعنه، ثم زجَّ به في السجن وضُرب وجلد، وكان في عداد المعدومين، ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ لأمرٍ ما لطف به، فقد كانت له أرض خِصْبة، ومزرعة مرموقة، كان قد ورثها من أبيه، فجاء قائد القبيلة الظالم الخائن المسمَّى عبد القادر أفِلَّاذ، وقد طمع في المزرعة، فقال له: امنحني الأرض الفلانية، وأنا أشفع لك عند الحاكم، ويُطلق سراحك، فأجابه إلى ذلك، فأحضر القائد الشهود، فكتبوا له البيع زوراً وختم الرسم القاضي الشرعي، فأُفرج عنه، ثم لم يلبث أن أعيد للسجن مرة أخرى وجُلد كالمرة الأولى، ثم أطلق سراحه... وإثر ذلك عمَّت المغرب مجاعة شديدة لم تُبْق ولم تذر، فهاجر من القبيلة بزوجته وأطفاله الصغار، فسكن طنجة مدة خمسة عشر عاماً.

ثم تزوج بزوجته الأخيرة، وخرج معها إلى البادية، وبقي هنالك إلى أن وافاه أجله المحتوم عام ١٣٨٣ هجرية الموافق ١٩٦٣ ميلادية.

وكان رحمه الله تعالى غيوراً على الدين، فانياً في محبة الله ورسوله ﷺ والأولياء والصالحين، ولا سيما في أواخر عمره، عاملاً بكل ما سمع وبلغه من سنة النبي ﷺ، مجاهراً بذلك، مدافعاً عنها، زاهداً في الحياة، متوكلاً على الله، لا يشتغل بجمعها ولا بالتهافت عليها.

عاش في حياته مُقلّاً قانعاً بما أتاه الله... صحب آخر عمره السيد أحمد بن الصديق رحمه الله تعالى وجماعة من الصالحين، وكان دائم التطلُّع لخروج خليفة ينصر الإسلام، ويقضي على الكفر والظلم والفساد. وقد ختم الله

تعالى عليه بخروج روحه في رمضان المعظم رحمه الله تعالى وإيانا رحمة واسعة.

❐ والدته رحمها الله:

أما الوالدة فهي السيدة العفيفة الشريفة للا رحمة بنت أبي حرمة بن علال، ولدت في العقد الأول أيضاً من القرن الرابع عشر، وتزوَّج بها الوالد ثيِّباً مطلَّقة من زوج سابق، فأنجبت له أولاداً خمسة من بينهم أنثى، توفي منهم اثنان في مستقبل الشباب شهيدين بشرب سُمّ خطأ، وعُمِّر منهم ثلاثة ذكران وأنثى، وعاشت مع زوجها، وقاست الشدائد والنكبات أيام الحرب، وهاجرت معه مراراً فارين من العدو معتصمين بمغارات ومخابئ في الجبال.

ثم لما استولى العدو على البلاد هاجرت مع زوجها إلى طنجة، وبقيت في عصمته إلى أن تزوَّج عليها مرتين، وحَصَل بينهما تشاجر ونزاع، فانضمَّت إلى بنتها، ثم إلى ولدها المترجَم، وأصابها آخر حياتها مرض ضيق التنفُّس إلى أن جاءها أجلها المكتوب عام ١٣٨٥ هجرية، سنة ١٩٦٥ بتاريخ النصارى، ودفنت بمقبرة المجاهدين.

وكانت لها اليد البيضاء في الاعتناء بولدها المترجَم والاهتمام به، والقيام بكلِّ ما يحتاجه مقدَّماً عندها على باقي الأولاد رحمها الله رحمة واسعة، وجزاها الله عنا خير الجزاء، وجمعنا وإياها وزوجها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقيين والشهداء والصالحين.

❀ ❀ ❀

ولادته وقبيلته وقريته

◘ ولادته ومسقط رأسه:

في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وقبلَ سيطرة إسبانية على الشمال المغربي بنصف سنة ولد الفقير إلى الله من أسرة متواضعة، وذلك سنة ١٩٢٦ بتاريخ النصارى بقرية الصاف من قبيلة بني كرفط.

◘ التعريف بالقبيلة والقرية:

القبيلة الكرفطية(١) من القبائل الجبلية القريبة من ساحل المحيط الأطلسي غرب شمال المغرب، وتتكوَّن من مداشر وقرى كثيرة... سكانها كلهم عرب مسلمون سنيُّون، وفيهم كثير من حَفَظة القرآن الكريم، والأشراف الحَسَنيين، وتغلب على أكثرهم الأمية، وفيهم قلة من العلماء. وفي القبيلة مع ذلك عدَّة مدارس علمية يؤمُّها الطلبة من جهات متعدِّدة تدرس فيها العلوم الإسلامية...

ويعيش أهل القبيلة الكرفطية على الفلاحة والزراعة وتربية المواشي والدجاج والتجارة وبعض المهن والصناعات التقليدية، كالحدادة والنجارة والبناء والنسيج والدباغة وغير ذلك، وكانوا قبل الاستعمار وظهور حضارة الغرب مكتفين عن الغير في حياتهم الاجتماعية...

ويحدُّ القبيلة شرقاً: صماتة وبنو عروس، وجنوباً: بنو سريف، وشمالاً: بنو عروس، وغرباً: امزورا والساحل المحيطي والخلوط.

---

(١) بقيت قبيلة بني كرفط خمسة عشر عاماً صامدة ومجاهدة دون أن يتمكَّن العدو الإسباني من احتلالها... حتى حدثت الخيانة من عملاء الاحتلال، فسقطت كغيرها من مناطق المغرب في يد الاستعمار الغاشم اهـ. (المؤلف).

وأسواقها: سوق سبت بني كرفط، وأربعاء عياشة، وخميس بني عروس، والإثنين اليماني، وثلاثاء جبل حبيب.

وقيادتها: سبت بني كرفط، ودائرتها: مدينة العرائش، وعمالتها: مدينة تطوان.

وقرية الصاف جاءت منقطعة عن القبيلة، مجاورة لقرى بني عروس، وتحتوي على أربعة أحياء - مداشر -: السقاقلة والبوك، والدشيرا، والعصاعص... ولكلٍّ مدشر مسجدٌ تقام فيه الصلوات، ويعلَّم فيه الأطفال الكتابة والقرآن الكريم، وتقام الجمعة في مدشرين من القرية بعد أن كانت لهم جمعة واحدة في القديم.

ومدشر المترجَم وحيُّه الذي وُلد ونَشَأ فيه طفلاً هو الدِّشيرا.

والقرية تتكوَّن من عدة بيوتات وأنساب مختلفة، كأبناء السقال، وكَرْمون، والعَرُّوذ، وفلَّاذ، والنَّكراج، والشَّقَّاف، وأمِسْنَاو، واقريور، والتَّليدي، وشَابو، وسبُّو، والعَصْعَاص، والقَيْسي، والمُودِّن، والرَّدَّام، وغير ذلك، وفيهم أشراف وغيرهم.

❀ ❀ ❀

ما بعد الولادة من الفترات العصيبة

وبعد ولادته خرج به والداه مع أخته من القرية التي كانت مستهدفة للقصف الإسباني بطائراته ومدافعه، فهاجروا الهجرة الأخيرة من العدوّ إلى جبل العلم، حيث استوطنوا قرية في وسط الجبل تسمى «بوعلقمة»، وهي الآن خراب، كانت قريبة من سيدي مشيش والد مولاي عبد السلام[1] ﷺ.

ثمَّ لما دهمهم العدو هنالك اعتصموا بجبل أبي هاشم فوق قرية «تزروت» محل سُكنى ومعقل الشريف أحمد الريسوني، الذي كان يحارب إسبانية بجيوشه في غرب شمال المغرب، كما كان يحاربها في شمال شرقه محمد بن عبد الكريم الخطابي، ولكنه في هذه السنة توفي الريسوني، وألقي القبض على ابن عبد الكريم بتعاون وتحالف من فرنسة وإسبانية، ودعم من دول أخرى أوربية، وبذلك انتهت الحرب بين المغرب وبين عدويه فرنسة وإسبانية، وتمَّت بالاستيلاء على أكثر البلاد بعد أن دامت هذه الحرب الضروس أكثر من عشرين سنة، قاوم فيها المغاربة العدو مقاومة الأبطال مع فقدان العدّة والقوة وعدم

---

(١) هو الشيخ الربَّاني مولاي عبد السلام بن سليمان الملقَّب بمشيش بن أبي بكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بن مزوار بن حيدرة بن محمد بن إدريس بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، كانت ولادته حوالي عام ٥٥٩ هجرية الموافق ١١٩٨ بتاريخ النصارى أو تزيد بنحو أربع سنوات على خلاف بين المؤرخين، وتعلم في الكتاب فحفظ القرآن الكريم وسنه لا يتجاوز الثانية عشرة، ثم أخذ في طلب العلم فنال منه حظاً وافراً، وفتح الله عليه بالأخذ عن شيوخ المعرفة وأقطاب الحقيقة من طريق شيخه سيدي عبد الرحمن المدني الشهير بالزيات نسبة إلى حارة الزياتين بالمدينة المنورة. قتل شهيداً سنة ٦٢٢ أو ٦٢٥ هجرية على اليد الآثمة لدجال كتامة المدعو بأبي الطواجن اهـ. (المؤلف).

تدريبهم وتنظيمهم، بينما العدو كانت له القوة الكافية من طائرات ومدافع ورشاشات. . . وكثرة الجنود المدرَّبين على جميع أنواع الأسلحة وغيرها من المصارعة والملاكمة والمواجهة بالسيوف والسكاكين. . . وغير ذلك.

ولولا الخونة المغاربة الذين باعوا دينهم وكرامتهم وبلادهم للعدو لما استطاع احتلال المغرب وغيره. وكان أمر الله قدراً مقدوراً، فللَّه الأمر من قبل ومن بعد.

◻ في رضاعه:

وفي أيام رضاعه سُجِنَ والده وجُلد، وكان ممَّن يراد إعدامهم، ولكن الله ﷻ لم يرد ذلك، لما جرى به القدر، ولما سيكون ويحدث في مستقبل الزمان. . .

وفي أيام رضاعه أيضاً وقعت له مع والدته حادثة خطيرة، ذلك أن الوالدة كانت في سوق أربعاء عياشة، وهو من أسواق القبيلة، فتأخرت عن الجماعة، فآواها الليل إلى واد بعيد عن القرى، وكانت عندها حصير من العزف، فالتفَّت فيها، وأدخلت ولدها في ثيابها، وبعد هوي من الليل جاءت الذئاب تعوي حولها تريد فريسة تتعشى بها، فأخذ الوالدة من الرعب والفزع والخوف ما كان الله عليماً به، لكن الله صرفهم عنها ولطف بها وبرضيعها، ولم تكن تدري ما سيكون لهذا الرضيع من شأن في مستقبل الحياة، وأن الله قد أحاطه بحفظه وعنايته.

وهذه الأحداث سمعها المترجم من والديه رحمهما الله تعالى رحمة واسعة شاملة، آمين.

❀ ❀ ❀

في الكُتّاب

لم تكن في ذلك الحين مدارس على النهج الحديث، وإنما كانت كتاتيب يتعلم فيها الأطفال الكتابة والقرآن. . . ولذلك لما بلغ عبدُ ربِّه من العمر نحواً من خمس سنين أو قبلها أدخله أبوه الكُتَّاب المسمَّى عندهم في البادية: الجامع والمعمرة[1]، وفي المدن: المسيد[1]، ولعدم اعتناء المعلمين حفظة القرآن بالأطفال الصغار بقي مهملاً لم يتعلَّم شيئاً مدة.

ثم جاء دور تعليمه على الطريقة القديمة العقيمة الجوفاء. . . فقاسى شدائد في تعلُّم الكتابة، فكم لُطم وجهه، وكم جُذبت أذناه، وكم ضربت رجلاه مدًّا أو حملاً، وكم وكم، ممَّا حمله على الفرار من القراءة المرة بعد المرة، وهو في كل ذلك يعاني من أنواع الضرب تناوباً بين المعلم وبين الوالدين، وخاصة عندما جعل يستظهر بعض السور، واستكثرت عليه، وصعب أمرها عليه، فكان عند عرضها على المعلم ربما توقف في كلمة، فينهال عليه بالضرب المبرح الذي لا يطيقه الكبار، فكيف بالطفل ابن ست أو سبع سنين، وربما تكرر ذلك في العرضة الواحدة بعد العصر أو بين العشاءين مرات متعددة.

وكان المعلمون محفِّظو القرآن لا يعرفون رحمة ولا شفاعة ولا استغاثة، فكان ذلك من أسباب فراره من الكُتَّاب وامتناعه من الرجوع إليه نهائياً بعد محاولات كثيرة، وضرب والده إياه مراراً وتكراراً، فلما أيس والده من ذلك كلفه برعاية المعز، فأصبح راعياً يذوق برودة الشتاء وحرارة الصيف، يضاف إلى ذلك ما كان يعانيه من اعتداءات الرعاة عليه لصغره.

---

(١) المعمرة: بفتح الميمين، والراء وسكون العين، والمسيد: بكسر الميم، والسين ثم ياء ساكنة، وآخره دال.

ولما رأى ما في الرعاية من مشاق ومتاعب عرض على أبيه الرجوع إلى الكُتَّاب عملاً بقاعدة: العمل بأخف الضررين، كما خُيِّل إليه، وإن لم يكن يعرف هذه القاعدة وقتذاك، لكنه وإن رجع إلى الكُتَّاب، فسُرعان ما عاد إلى فراره الأول لقساوة المعلم عليه هذه المرة أكثر من الأولى. لكن ماذا يصنع وقد سُدَّت الأبواب أمامه؟

بيد أن الله ﷻ عجَّل له بالفرج والمخرج مما كان يعانيه، فقد كان من قدر الله ﷻ أن ألمَّت بالمغرب مجاعة شاملة أتت على الأخضر واليابس ولم يبق للوالدين ما يسدَّان به رمق أولادهما بعد أن باع الوالد كل ما كان يملكه من أرض ومواش... وانسدَّت الأبواب أمامه فقرر الهجرة بأسرته إلى حيث يجد العيش الرغد.

❀ ❀ ❀

الهجرة الأولى إلى طنجة

يتذكَّر عبد ربِّه أنهم خرجوا من القرية ضحوة قاصدين مدينة طنجة[1] على الأقدام لأنه لم تكن هناك مواصلات كوقتنا الحالي، فقطعوا المسافة وهي تربو على سبعين كيلو متر في أسبوع، وكانوا يسيرون بالرحلات، قد يمشون في اليوم عشر كيلو أو عشرين. . . وقد ينزلون في قرية أكثر من يوم، كما وقع في قبيلة بني مصور، فإنهم نزلوا في مسجد قرية إشراكّة ومكثوا بها أكثر من يومين

(١) «من المدن المغربية القديمة مدينة طنجة، فهي أقدم مدنه على الإطلاق كمدينة سبتة، إذ يرجع تاريخ تأسيسها إلى ما بعد سيدنا نوح ﷺ بزمن قريب، حيث إن أول من سكن هذه السواحل حفيده يافث بن نوح الذي كان منه الإخوة الثلاثة: أندلس وسبت وطنج، وكان هذا الأخير هو المؤسِّس لهذه المدينة، وبه سُمِّيت، ومع مرِّ العصور والأجيال أصبحت المدينة ذات عمران واسعة الأرجاء وتداولتها الأمم، حتى جاء الرومان فاتخذوها عاصمة للمغرب ودار مملكتهم، وكانت عمالتها كما يقول المؤرخون: مسيرة شهر في مثله، وكانوا يطلقون عليها اسم طنجس.
وجاء الإسلام وهي تحت النفوذ الروماني وسيطرته، ففتحها القائد الإسلامي العظيم موسى بن نصير بعد معارك طاحنة دامية، كما كان فتح في ذلك العصر تطوان وسبتة. وجعل مولاه طارق بن زياد عاملاً عليها وقائماً بشؤون أهلها، ولما دخلها الإسلام أصبحت قاعدة المغرب أيضاً. فقد قال صاحب «جذوة الاقتباس»: وسار إدريس ومولاه راشد حتى نزلا مدينة طنجة الخضراء، وهي يومئذ قاعدة المغرب، يعني عاصمته. وقال ابن غازي في «تكميل التقييد»: طنجة كانت قاعدة المغرب زمن الإمام مالك وابن القاسم. وأصبحت بحمد الله تعالى دار الإسلام، وتداولتها الدول الإسلامية وملوكها عبر التاريخ، فكانت تحت حكم الأمويين والأدارسة والعُبيديين والمغراويين واللمتونيين والموحدين والمرينيين والسعديين، ثم العلويين الحاليين، وهي تحت حكمهم وإشرافهم منذ ثلاثة قرون ونيف وستين سنة لتاريخه الحالي، واستعمرت من طرف الكفار مراراً، فقد استعمرها البرتغال ثم الإنكليز ثم فرنسة ثم إسبانية، وكانت لعهد قريب قبل استقلال المغرب دولية» اهـ. (المؤلف) من نصب الموائد (٣/ ١٠٤).

لمطر عرض لهم، ثم تحيَّنوا الوقت لعبور الحدود بين الإيالة الإسبانية وبين منطقة طنجة الدولية الفرنسية، ولا يدري كيف كان العبور؟ غير أنه يتذكر أن الليلة الأولى بعد مجاوزة الحدود باتوها في قرية الديموس من قبيلة فحص طنجة، فأكرمهم أهل المسجد إكراماً بالغاً... وفي الليل سمع المترجم صوتاً هائلاً وضجيجاً مفزعاً، فقام وجعل ينظر لجهة الصوت، فإذا به يرى بيوتاً كثيرة تتخللها أضواء ومشاعل وهي تمشي، فهاله ذلك كباقي الأسرة فسأل والده: ما هذا يا أبي؟ فقال له: هذا «الطرين»، يعني القطار، ينقل الناس من جنوب المغرب إلى طنجة.

وكان هذا أول مرة رأى فيه القطار. ومن الغد دخلوا طنجة ضحوة.

❑ دخول طنجة لأول مرة:

سَكَن طنجة مع الوالدين والإخوة في المرة الأولى نحواً من ثلاث سنوات... سكنوا في أحياء مختلفة: في بوقنادل ومسترخوش والدرادب وغيرها... وتقلَّب في عدة كتاتيب لم يقدر له فيها متابعة الحفظ للقرآن، بل رجع لفراره، لا سيما وأن المعلمين كانوا على نفس طريقة الآخرين في البادية من العنف والضرب... هذا والحرب الأهلية قائمة على ساقها بإسبانية، ودوي صواريخها وقنابلها تصمُّ آذاننا بطنجة كل يوم.

❑ الرجوع إلى البادية:

وبعد أن خفت تلك المجاعة، قرَّر الوالد الرجوع إلى القبيلة، فخرج بالأسرة كالعادة الأولى على الأقدام متسلّلين، لكنهم في هذه المرة سقطوا في أيدي الجنود الحرَّاس الإسبانيين على الحدود، فأخذوهم مساجين من قرية إلى قرية مع حارس جندي مغربي. ويتذكَّر أن الجندي مرَّ بهم على قيادة دار الشاوي، ومن ثمَّ صحبهم جندي آخر ليأخذهم لقيادة قبيلتهم... وعندما حاذوا قريتهم أطلق الجندي الأم والأطفال، وأخذ الأب إلى قيادة سبت بني كرفط حيث تعرَّف عليه كل من شيخ القبيلة وقائدها فأطلق سراحه.

فأقاموا بالقرية مدة لا يدري كم كانت، غير أنه تابع قراءته على الفقيه السيد أحمد أمسناو الذي لم يلبث أن توفي رحمه الله تعالى. ثم جاءت ملامح الحرب العالمية الثانية، وصحبتها مجاعة ثانية أشد وأطول من الأولى، إذ دامت هذه أكثر من خمس سنوات، فكان ذلك سبب هجرتهم الأخيرة وتركهم البادية بالمرة.

□ الرجوع إلى طنجة للمرة الثانية:

ولا يدري كيف دخلوا هذه المرة، غير أنَّ الذي يتذكره هو أنه في هذه الفترة لما استقرُّوا بطنجة تحرَّر من قيوده، وصحب أطفالاً وقرناء سوء، فأصبح مغرماً بالسينما ولعب الكرة واصْطياد السمك والسباحة. وصار مشرَّداً لا يلوي على بيت والديه، وأصبح مقرَّه الليلي هو السينما، وكان لا يدخله إلا مؤخّراً ليخرج في الساعة الثانية عشرة ليلاً ليأوي مع رفاقه إلى مأوى نومهم، وكان لا يهوى إلا الأفلام القتالية وخاصَّة الأمريكية أو ما كان فيها حرب أو مصارعة أو ملاكمة. وكان لا يحب الأفلام الغرامية والمشتملة على الأغاني والرقص، لأنه كان لا يزال صغيراً، وكانت دور السينما وقته تعجُّ بالأفلام المصرية الفاحشة الفاضحة... كل هذا والحرب العالمية الثانية قد نشبت.

وتقلَّب في هذه الفترة في عدَّة حرف، فعمل في مخبزة تقليدية، ثم دخل محلاً للنجارة، وعمل في بستان مع فلاح، ثم هرب من كلِّ ذلك.

□ إرجاعه إلى البادية:

وعندما أيس والده من إتمام حفظه للقرآن بطنجة ترصَّد له، فأخذه وسافر به إلى البادية، وأبعده عن الملاهي وفتن المدينة، وأودعه هنالك عند عمِّه السيد عمر التليدي رحمه الله تعالى، فتركه عنده ورجع. فآواه عمه وأحسن مأواه، وكانت امرأة عمِّه المسنَّة السيدة فطمة الحايك رحمها الله تعالى تُحسن إليه كثيراً، فكان عندها كأحد أولادها، فاستأنف القراءة من جديد، وبقي هنالك بعيداً عن الوالدين والإخوة سنتين كاملتين، كان من فضل الله تعالى عليه

وله المنة والشكر أن أتمَّ حفظ القرآن الكريم واستظهره وسنُّه دون الاحتلام، ولكنه لم ينج في هذه الفترة القاسية من توالي الضرب الفاحش من طرف المعلم مع اعتداءات المعتدين المتكررة التي أصابته، وظلم الظالمين الذي نزل به من أكابر مجرمي القرية وحكامها وأبنائهم وذويهم. وتعدُّ هذه الفترة من أقسى أيام حياته التي مرت عليه...

التحق في هذه المدة بشيخه الأول عبد السلام الشقاف، وكان يُقرئ التلاميذ والطلبة مناوبة مع صديقه المقرئ عبد السلام عزوز عاماً بعد عام، وعليهما تخرَّج وحفظ القرآن الكريم.

❐ تصحيحه للقرآن بعد استظهاره إياه:

بعد أن حفظ القرآن الكريم وقد قارب البلوغ رجع إلى طنجة بصحبة والده، فبقي بها مدة لا يتذكر كم كانت، غير أنه بعد ذلك رجع إلى القبيلة وحده، وافتتح ختمة لتصحيح ما قد عسى أن يكون أخطأ فيه من كلمات القرآن وإتقان رسمه من الألفات الثابتة والمحذوفة وتحقيق التاءات المربوطة والمبسوطة وبيان الآيات المتشابهات وإتقانها على عادة طلبة القرآن..

ثم شدَّ الرحلة لقبيلة الغربية مع أحد طلبة القرية، فأقام بقرية أولاد عبو بضواحي مدينة أصيلة، ثم انتقل لقرية لهرى من قبيلة بني كرفط، ثم حصل بين الطلبة نزاع أدى إلى التضارب وأُلقي القبض على بعضهم وسجنوا، ونجَّاه الله من ذلك، ثم نزل بقرية عين معبد ببني عروس، ثم شدَّ الرحلة للأخماس على القدم، ومرَّ في طريقه على مولاي عبد السلام بن مشيش فزاره، ثم تابع السَّير حتى دخل شفشاون وبات بها، ومن الغد ذهب لقرية أمجري حيث يوجد أبناء أعمامه التليديون، فأقام بالقرية مدة، ثم انتقل إلى قبيلة بني حسَّان، فأقام بقرية أعزوز، ثم تركها لحادثة حصلت للطلبة بها، ونزل إلى طنجة على قدمه وهي مسافة تربو على سبعين كيلو قطعها في يوم ونصف.

فدخل طنجة متسلِّلاً، فأقام مع الوالدين شهوراً اشتغل خلالها في البناء وصيد الأسماك والحطب وغير ذلك، ثمَّ ظهر له تجديد الرحلة ليوالي تصحيح

القرآن فرجع إلى قريته وأقام بها مدة، ثم بدا له أن يذهب إلى الجنوب ليزور مولانا إدريس فاتح المغرب، فخرج بصحبة طالب من أهل القرية، ومرُّوا في طريقهما على الرجل الصالح سيدي عبد السلام بن روحو رحمه الله تعالى، ولما كانا بالطريق قرَّرا أن يقرءا سورة يس هدية له، فلما دخلا عليه بادأهما قائلاً: إن يس تقرأ على الميت وأنا لا زلت حياً، فجلسا عنده، واستشاراه في الذهاب، فقال لهما: إن الطريق مفتوح، فكان الأمر كما قال، فذهبنا ورجعنا ولم نُصَب بأدنى مكروه.

وكان من جملة ما قال سيدي عبد السلام بن روحو لعبد ربه: سنكون من العلماء، وكان ذلك قبل طلبه العلم، فصدقت فراسته وكشفه، والحمد لله رب العالمين.

ثمَّ رجع إلى طنجة وبعد زيارة الوالدين خَرَج لأولاد زيان ختم بها ختمة، وكان ذلك عام ١٣٦٦ هجرية، ثم شدَّ الرحلة لقبيلة بني عروس، فنزل بقرية الخنادق، فقرأ بها القرآن مدة، ثم ظهر له أن يبتدئ في طلب العلم، فاستقرَّ بقرية امْجازلييِّن.

ويلاحظ أنه في هذه الفترة قبل اشتغاله بطلب العلم كان أحياناً ينقطع عن القراءة، فيشتغل في البناء وفي الخياطة وصنع الجوارب والأقمشة الشتوية وبيعها، إلى أنْ هداه الله ووفَّقه لطلب العلم.

❀ ❀ ❀

ما تعلّمه من حَفَظَة القرآن الكريم

كان في مرحلته الأولى من حياته قبل العشرين من عمره مشتغلاً بحفظ القرآن ثمَّ تصحيحه، فللّه الحمد كثيراً على ذلك.

ولولا الإهمال وعدم الاهتمام به مع سابق قدر الله تعالى لحفظ القرآن الكريم قبل الثامنة من عمره، ولكان في العاشرة قد فرغ من تصحيحه نهائياً، ولكن الأقدار هكذا جرت لحكم لا نعلمها.

والجدير بالذكر هنا هو أنَّ هذه المرحلة قطعها في جهل مطبق، فقد كان لا يعلم شيئاً حتى الضروريات كان يجهلها، لأنه نشأ وعاش بين الطلبة القرآنيين الذين هم أشبه الناس بالأميين تقريباً، لا يفوتونهم إلا بالتشرُّف بتعلم الكتابة وحفظ القرآن ليس إلا، والنبيه منهم يكون قد حفظ متن ابن عاشر في العقائد والعبادات ومبادئ التصوف وتفهَّمه تفهُّماً سطحياً من طرف بعض من تقدَّم له منهم طلب علم.

فكان الطالب ينشأ على هذه الطريقة والمعلم المحفِّظ لا يزيد طلبته شيئاً على تعليم الحروف والكتابة وتحفيظ القرآن، غير أنه كانت عادة المعلمين من القراء إذا حان وقت انصراف الأطفال زوالاً أو مساءً لقَّنوهم بعض المبادئ كجواب القبر مثلاً، فيقول المعلم ملقناً للأطفال: جواب القبر: الله ربي، ومحمَّدٌ ﷺ نبيي، والإسلام ديني، والكعبة قبلتي. ويقولها الأطفال بلسان واحد.

وأحياناً يلقِّنوهم ألفاظ تشهُّد الصلاة بصيغة ورواية سيدنا عمر ﵁ ويزيدون في آخره: «وأنَّ الذي جاء به سيدنا محمد حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الصِّراط حق، وأن الميزان حق، وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور».

ويلقِّنونهم أحياناً دعاء قنوت الصبح على مذهب مالك رحمه الله تعالى: «اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونؤمن بك، ونتوكل عليك، ونخشع لك، ونَخْلع ونترك من يكفُرُك، اللهمَّ إيَّاك نعبد، ولك نصلِّي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك يا الله، ونخاف عذابك الجِدَّ، إن عذابك بالكافرين مُلْحَقٌ...» إلى آخره.

ثم يأمرونهم بالصلاة على رسول الله ﷺ بلسان واحد: «اللهم صلِّ أفضل صلواتك على سيدنا محمد أشرف مخلوقاتك، وعلى آله وصحبه وسلم، كلَّما ذكرك وذكره الذاكرون، وكلَّما غفل عن ذكرك وذكره الغافلون»، ثم يقبِّل الطلبة يد المعلم أو رأسه ثم ينصرفون.

هذا ما تعلَّمه من حَفَظة القرآن المعلِّمين طوال قراءته القرآن من غير فهم شيء مما حفظه... وهذه الطريقة العقيمة لا يزال ينهجها بعض المعلمين إلى اليوم، وهي طريقة غير سديدة، رغم أن الطالب يخرج منها حافظاً لكتاب الله العزيز متقناً له ماهراً فيه، وَنِعْم ما فعل، ولكنه يبقى معها جاهلاً جهلاً بسيطاً طوال حياته، وقد يصبح إماماً للناس في الصلوات الخمس، معلماً للأطفال الكتابة والقرآن ولا يعلم شيئاً حتى مما يهمُّه من أمر دينه...

وهكذا فأغلب حفظة القرآن في البادية على هذه الحالة، وهي حالة متخلِّفة للغاية.

وهكذا كان كاتب الحروف... فلولا أنَّ الله ﷻ منَّ عليه تفضُّلاً منه ورحمة به، فهداه لطلب العلم، لكان أغرقَ الناس في الجهل والظلام والضلال.

ولجهله بالضروريات من دينه كان لا يعرف أن تضييع الصلاة عن وقتها محرَّم، وأنها جريمة تلي في الجرم الشِّرك بالله عياذاً بالله تعالى... ذلك أنه كان يشاهد دائماً معلميه وحفظة القرآن والعامة يُخرجون الصلاة عن وقتها ولا يحافظ عليها في وقتها إلا النادر منهم، بل الملتزم المتَّقي منهم مَنْ يجمع بين الظهرين دائماً، أما الباقي فلا يصلون إلا بين العشاءين أو بعد العشاء. فعلى هذه الحالة نشأ عبد ربه...

ويتذكَّر أنه زار والديه مرة فمكث أسبوعاً لم يصل فيه ركعة واحدة، فنزل يوماً لمسجد بوعبيد فجعل يقضي تلك الصلوات الفائتة حتى تعب، فصار يصلي من قعود، فأبصره شخص فجاءه بعد ما سلَّم فسأله: ما شأنك تصلي من قعود؟ فأخبره بأنه يقضي صلوات فائتة، فقال له: إن هذا لا يجوز لك، فلم يرفع لقوله رأساً، واستمرَّ على حالته.

ويشبه ما حصل له ما وقع لبعض أصدقائه من العامة، وكان لا يعرف صفة الوضوء، فجعل يتوضأ، وطفلٌ أمامه بالميضأة ينظر إليه، فقال له: يا عم إنَّ وضوءك هذا ليس بصحيح، وأراد أن يبيِّن له صفته الكاملة، فقال له ذلك الصديق: انصرف وإلا لَطَمْتُ وَجْه أمك... فهكذا يصل الجهل بصاحبه، ولذلك يقولون: الجهل يفعل بصاحبه ما يفعل العدو بعدوه. وقد ينسبه بعضهم حديثاً وهو باطل، ويقولون وقد صدقوا: العلم نور والجهل ظلمة...

اللهم أَسْبل شآبيب رحماتك على من أنقذنا من الجهل، وكان السبب في تعلُّمنا ما كنا نجهل، وارحم يا ربَّنا مشايخنا، واغفر لنا ولهم، واجزهم عنا خير الجزاء.

❀ ❀ ❀

بدايته طلب العلم

ولما أراد الله بعبد ربه الخير، ألقى في قلبه طلب العلم وألهمه ذلك، وهداه من دون مرشد ولا آمر، فكان في آخر هذه المرحلة يقرأ الختمة الأخيرة بقرية الخنادق بقبيلة بني عروس، فسمع بأن في قرية امجازليين فقيهاً يقرأ مع الطلبة، وهذه القرية هي آخر قرى بني عروس غرباً جاءت مجاورة لبني كرفط[1]، فالتحق بالقرية وطلب الإذن من الفقيه الذي كان يسمى السيد ابن عائشة، فأقام بالمسجد، وكان عدد الطلبة نحو العشرة، فيهم مبتدئون ومتوسطون، فسكن ببيت مع طالبين أحدهما من قبيلة الغربية، والآخر ابن أخت الفقيه المدرس.

فقسَّم يومه بين حفظ المتون، وبين حضور بعض الدروس، فكان يحضر درس الآجرُّومية بالأزهري، ومتن ابن عاشر بميّارة، وباقي الأوقات يقضيها في حفظ المتون، وفي هذه الأثناء ـ وقد قضى في هذه القرية تقريباً سنة ـ وجد حلاوة لم يسبق له أن عرفها، وظهر له كأنه وُلد من جديد، فجعل يعمل بكلِّ ما يسمعه من الفقيه، فتعلَّم العقائد وصفة الطهارة والصلاة وغيرها، وعرف بعض الفضائل، وصار يجاهد نفسه على العمل بكل ما يسمع به، وهو لا يزال في السنة الأولى من بداية الطلب.

□ خروجه من امجازليين وحصول حادثة ظالمة له:

ولكنه لأمر ما حدثت له حادثة بالمسجد في هذه القرية التي كان أكثر سكانها أشرافاً كانت السبب في مغادرته البادية وعدم رجوعه إليها...

---

(١) قرية امجازليين قرية ضريح سيدي بوحرمة أحد أجداد العارف بالله الشريف مولاي عبد السلام بن مشيش رَحِمَهُ اللَّهُ.

وخلاصة الحادثة: أن محله كان سُرق منه بعض أمتعته ومبلغ من المال كان عنده داخل كتاب مجموع المتون، كما سرق غطاء لابن أخت الفقيه المدرس.

والظاهر أن ذلك كان مدبَّراً من طرف الطلبة الجبليين، الذين كانوا يكنُّون له الأضغان عصبيةً منهم، بدليل أنهم تآمروا عليه، وبيَّتوا ضدَّه شراً، فأبلغوا الفقيه أن فلاناً الطنجي هو الذي دبَّر هذه السرقة، فألصقوا به التهمة زوراً وبهتاناً...

ولما كان من الغد وقد صُلِّيتْ المغرب، وقرأ الطلبة حزب القرآن على العادة، حضر الفقيه المدرس، والإمام الراتب للصلوات الخمس، ومقدَّم القرية العريف، ووالد ابن أخت الفقيه صاحب الغطاء، فتكلَّم الفقيه وأثرُ الغضب بادٍ على وجهه، فوجَّه الخطاب لعبد ربه مصحوباً بغلظة وخشونة، وأمره بإحضار غطاء ابن أخته وإلا فعل به كذا وكذا، وأوعده بسفاهة فاحشة... وبعد دفاع عبد ربه عن نفسه كانت النهاية طرده من المسجد مع تهديدات من دون أيِّ مبرر ولا موجب إلا ما أوحاه إليه أولئك الأبالسة...

وظنِّي بالفقيه أنه كان يحفظ تحفة ابن عاصم ويفهمها ويدرِّسها دائماً، وفيها يقول ابن عاصم:

والعَدْلُ مَنْ يَجْتَنِبُ الكبائرَ ويتَّقِي في الغالبِ الصغائرَ
وما أُبيحَ وهو في العَيانِ يقدحُ في مروءةِ الإنسانِ».

فأين هذا العدل الذي اعتمد عليه الفقيه في هذه التهمة الجائرة المدبَّرة من الشياطين التي حكم فيها ظلماً وجوراً بطرد الطالب المظلوم من المسجد مع تهديده وإيذائه الإذاية البالغة، على أنه لو شهد عليه كل من كان مقيماً بالمسجد من الطلبة لما صحَّت شهادتهم، لأنهم كلهم فَسَقة لم يكن فيهم طالب واحد مستقيماً، رغم أنهم كلهم حفظة للقرآن يتعلمون العلوم الشرعية.

ثم لحينه قام وجمع ما تبقّى من أمتعته وكتبه وانصرف، وكان ذلك بين العشاءين، وقد أظلم الليل وأرخى سدوله، فخرج متوجِّهاً إلى قريته التي تبعد

عما كان فيها بنحو من ساعتين تقريباً، وبينهما غابة كثيفة وأرض قَفْرة مخوفة، فقطعها في أسرع وقت.

ومنذ خروجه ولسانه لَم يفْتُر عن قراءة سورة يس، فحفظه الله تعالى وسلَّمه من اللصوص والجن الذين طالما آذوا الناس في تلك المَفَازة الخالية.

بات تلك الليلة في قريته عند ابن عم له، ومن الغد نزل لمحطة القطار التي تبعد عن القرية أربع ساعات، قطعها على القدم لعدم وجود المواصلات وقته. وما آواه الليل إلا في طنجة عند والديه، وبذلك غادر البادية وتركها نهائياً...

كان هذا الحادث عام سبعة وستين وثلاثمئة وألف هجرية، سنة سبع وأربعين وتسعمئة وألف ميلادية في العام الذي زار فيه محمد الخامس طنجة لأول مرة أيام الحماية.

❀ ❀ ❀

التحاقه بالمعهد الديني بطنجة
وبعض ما جرى له في تلك الفترة

غادر البادية واستوطن طنجة، حيث يوجد أهله والعلماء والشيوخ والدروس العلمية والمعرفة والثقافة والتفتُّح. . . فالتحق بالمعهد الديني الذي كان مقرُّه المسجد الأعظم، والذي كان يديره وقتئذٍ العلامة المرحوم سيدي عبد الله كنون، وكان المعهد مكوَّناً من مستويين ابتدائي وثانوي، يدرس الطالب في المرحلة الأولى بعض المبادئ الأولية في العربية والفقه والعقائد والحساب وغيرها. فانخرط في الابتدائي فقرأ السنة الأولى فيه، لكنه لم يرق ذلك في نظره بعد أن صاحب بعض الطلبة الذين لهم تجربة في الدراسة.

فقضى السنة الأولى في المعهد النظامي، قرأ فيها مبادئ العربية والتوحيد وفقه العبادات ولامية ابن الوردي في الأدب والحساب والجغرافية. . . ثم جاءت عطلة الصيف، فاتَّصل ببعض الطلبة، فصار يحضر معهم الدروس الحرة بالمجان على بعض الشيوخ المتطوِّعين الذين أصبحوا اليوم في خبر كان بعدما جاءت الوظائف، وبخل العلماء بعلمهم إلا إذا كان في مقابل مادي.

فلما جاءت أيام الدراسة في سنته الثانية بالمعهد انسحب وجعل يختار ما راق في نظره من الدروس في المعهد وخارجه، فجدَّ واجتهد في الطلب والتحصيل حفظاً ومطالعةً وحضوراً على الشيوخ.

ودام على ذلك نحواً من ثمان سنوات، قرأ فيها على العلامة الفقيه النحوي المقرئ السيد عبد السلام الخنوس الآجرومية مراراً، وألفية ابن مالك بالمكودي، ومرشد ابن عاشر بميَّارة الصغير مراراً، ورسالة ابن أبي زيد مرة، «ولامية الأفعال» ببحرق، ومقدمة «جمع الجوامع» في أصول الفقه، والسُّلَّم في المنطق، وابن بري في قراءة نافع، وبعض الشاطبية، وهمزية البوصيري بشرح

بنيس، وغير ذلك. وكانت هذه الدروس بمسجد سيدي بوعبيد وأدرادب.

وقرأ على العلامة الفقيه الشيخ السيد عبد الله بن عبد الصادق التمسماني ألفية ابن مالك بشرح «أوضح المسالك» لابن هشام، «وتحفة الحكام» لابن عاصم، ورسالة ابن أبي زيد، و«جمع الجوامع»، ومختصر خليل بالدردير، وموطأ مالك بالزرقاني. وكانت بعض هذه الدروس بالمعهد وبعضها كالرسالة في مسجد مرشان، وكان يقرؤها يومي الأربعاء والخميس بين العشاءين حتى ختمت.

وقرأ على العلامة المشارك السيد عبد الحفيظ كنون السنوسية في التوحيد، ورسالة ابن أبي زيد في الفقه الإسلامي مرتين، وكان ذلك في المعهد. وقرأ عليه بمسجد سيدي بوعبيد مختصر ابن أبي جمرة، وسنن ابن ماجَهْ إلى كتاب النكاح، وبعض صحيح البخاري.

وقرأ على العلامة الفقيه النحوي الأديب السيد الحسن اللمتوني ألفية ابن مالك فختمها عليه بشرح المكودي مرات، كما قرأ عليه «المرشد المعين» لابن عاشر، ولما وصل فيه إلى زيارة النبي ﷺ من كتاب الحج جعل يبكي محبةً للنبي ﷺ حتى بلَّ لحيته، وأبكى الطلبة، وكان وقتئذٍ خليفة للقاضي الشرعي.

وقرأ على العلامة الشيخ السيد أحمد بوحسين التفسير بالجلالين من أوله إلى سورة المائدة، وكان يحفظ تفسير الجلالين حفظاً كما يحفظ حواشيه للصاوي، وكان درس هذا التفسير بمسجد القصبة العتيق، كما قرأ عليه «الجوهر المكنون»، في البلاغة بزاوية بالقصبة.

وقرأ على العلامة الأديب الفلكي السيد محمد السكيريج «المقنع» في الفلك والتوقيت والحساب، و«الشمقمقية» في الأدب، وكان ذلك بالمسجد الأعظم.

وقرأ على العلامة الفقيه السيد محمد الوسيني الساحلي توحيد ابن عاشر، ورسالة ابن أبي زيد، وجملة من التفسير بالمسجد الأعظم.

وقرأ على العلامة الفقيه المبارك الوسيني الحساب، ولامية ابن الوردي في الجامع الأعظم.

وقرأ على العلامة الأديب عبد الله كنون ورقات إمام الحرمين في المسجد الأعظم.

وقرأ على العلامة عبد الرحمن الجزائري ورقات إمام الحرمين بشرح المحلي بمنزله وبمقبرة مرشان.

وقرأ مبادئ الجغرافية على العلامة عبد القادر الجزائري بالمعهد.

وقرأ ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل على الفقيه محمد بن عمر السكدلي بالمعهد، وقرأ عليه بعض مختصر خليل بمسجد سيدي بوعبيد، وكان هذا الرجل آية في الحفظ يحفظ مختصر خليل وشرحه.

وقرأ على الفقيه محمد المكي الناصري الأربعين النووية بالمسجد الأعظم، وحضر دروساً في التفسير والشمائل للترمذي على الأستاذ علال الفاسي بالجامع الجديد.

وقرأ على العلامة الصالح العابد السيد المختار الحسَّاني المقنع في الفلك والربع المجيب(١) وعدة رسائل في التوقيت، وكان ذلك بمنزل عبد ربه.

وقرأ على العلامة عبد الله الزرَّاد السُّلَّم في المنطق.

وقرأ على العلامة محمد بوليف بعض «تحفة الحكام» لابن عاصم كلاهما بالجامع الجديد.

وقرأ على العلامة محمد الصايل ألفية ابن مالك بمسجد المصلَّى.

وقرأ على العلامة الفقيه السيد عبد السلام أبارغ الآجرومية في آخرين.

تلك كانت دراسته الابتدائية والثانوية، أما دراسته العليا، فسيفرد الكلام عليها فيما بعد.

---

(١) وهي طريقة تقليدية لمعرفة الوقت بكيفية مضبوطة اعتماداً على أشعة الشمس فقط.

▢ بعض ما حصل له من الأحداث في هذه الفترة:

وللعبرة يذكر هنا بعض ما حصل له من الأحداث في هذه الفترة أيام طلبه:

▢ مع كتاب «تنبيه الغافلين»:

في بداية الطلب من السنة الأولى بطنجة ذهب مرة لمكتبة بعض علماء أولاد الأشهب، فوقع بيده «تنبيه الغافلين» لأبي الليث السمرقندي، فاقتناه، واعتكف على قراءته، فتأثَّر به، واتَّخذه أنيسه وسميره، فانقلبت أحواله، وأقبل على العمل بكل ما فيه أمراً ونهياً، وحُبِّبت إليه العبادة والعمل الصالح، وعمل على حفظ جوارحه من السقطات، ووجد لذلك لذة عظيمة.

▢ رؤياه رسول الله ﷺ في بداية الطلب:

وفي هذه السنة رأى رسول الله ﷺ في المنام كأنه جالس بزاوية من زوايا المسجد الأعظم، وطلب منه جمع الزكاة من الناس، وأمره بإخراجها في رؤيا تشتمل على بشارة سيأتي بسطها في فصل خاص.

▢ عزمه على الجهاد بمفرده:

ولما قرأ كتاب الجهاد في الفقه الإسلامي، وعرف أحكامه، ظهر له أن يجاهد ولو بمفرده، فقال في نفسه: لا يمكن لنا أن نعيش في بلد تحت حكم الكفار ومدينتنا دولية، فعمد إلى سكين عظيم كان عنده من بقايا أسلحة والده فدفعه إلى حدَّاد وأمره أن يحدِّده من جانبيه، وقرَّر في نفسه أنه سيذهب إلى أعظم جمع للكفار، فيقاتل بذلك السكين حتى يُقتل... لأنه كان يرى أن الكفار كلهم أهل حرب... وفي تلك الأثناء استشار شيخه السيد عبد الحفيظ كنُّون رحمه الله تعالى، فنهاه عن ذلك، وحذَّره من سوء العاقبة، وبيَّن له أن للجهاد شروطاً في المذهب، فكان ذلك سبب تأخره.

▢ اندلاع النار بمنزله ذات ليلة:

وكان ذات ليلة يطالع دروسه والسراج إلى جانبه قبل اتخاذ إنارة

الكهرباء، فغلبته عيناه، فلم يشعر إلا والنار مندلعة في بعض حوائجه، فحفظه الله منها وأطفأها حالاً.

□ طريفة:

وذهب مرةً مع بعض حفظة القرآن إلى إكرام عند امرأة بحيِّ المُصلَّى من طنجة، فلما قرؤوا القرآن، وذكروا الله تعالى، وتناولوا طعام العشاء انحنى عليه طالب فقال له: أتدري أين نحن؟ فقال له: أين؟ قال: إننا في دار رئيسة الزواني والمومسات، فتحسَّر لذلك وتغيَّر، وكان إلى جانبه الآخر أحد شيوخه، فسأله: ما هذا يا سيدي؟ أليس طعام هذه المرأة حراماً؟ فأجابه قائلاً: نعم، ولكن رسول الله ﷺ قال: إن الطعام يذوب في بطن حامل القرآن كما يذوب الرصاص في النار!؟ فسكت ولم يجد جواباً لأنه لم يكن يومئذ يعرف شيئاً عما يصح ويوضع من الحديث مع بداهة كذب ما استدلَّ به ذلك الشيخ.

□ محاولاته تبريد شهوته الجنسية:

وكان أيام الطلب كثيراً ما يَسْرد الصيام شهوراً متوالية خوفاً على نفسه من ثوران الشهوة الجنسية وعملاً بحديث: **«ومَنْ لم يَسْتَطِع فعليه بالصَّوْمِ»**، ورأى مرة في كتاب أنَّ من شرب حبة من الكافور خفَّت شهوته، فشرب حبة من الكافور المُصْطنع للثياب والكتب، فحصل له نزيف دم من فرجه مع ألمٍ عظيم كاد أن يهلكه، ولولا أن شخصاً دلَّه على شرب زيت الزيتون لَقُضِيَ عليه.

وذهب مرة إلى طبيب، فطلب منه أن يدله على دواء يقطع به شهوته، فتعجَّب منه الطبيب وقال له: لا أعرف عن هذا شيئاً.

□ تعصُّبه للمذهب المالكي:

وبما أنه كان قد قرأ الفقه المالكي وتمكَّن فيه أصبح متعصباً للمذهب تعصُّباً مُزْرياً بدينه وبأخلاقه، بل وبإنسانيته... فقد كان كثير الخصام والجدال مع الطلبة المتفتحين الذين يراهم يحافظون على العمل بالسنن، كوضع اليمنى

على اليسرى في الصلاة أو رفع الأيدي عند الركوع وعند الرفع منه... وما إلى ذلك مما خالف به المالكية السنن الصحيحة.

فكان لذلك ينكر عليهم ويعاديهم ويراهم في نظره مبتدعة كما كان يسمعه من شيوخه الذين تلقى عنهم الفقه. فقد كانوا كثيراً ما يحذرون الطلاب من أهل الحديث الذين يعملون بالدليل من غير تقيُّد بمذهب خاص، ويرمونهم بالزندقة والخروج من الإسلام، وسمع مراراً شيخاً له ينكر على الوضع ويقول مشيراً للعاملين به: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؟!!

فهذا وأمثاله هم الذين ربوه على التعصُّب وتقليد الإمام مالك وعلماء مذهبه، وإن كانوا مخالفين لصريح السنَّة الصحيحة، فتأثَّر بذلك ولم يكن يخطر بباله أنه مخالف للحق، بل كان قد رَسَخَ في مخيلته أن كلَّ ما في كتب الفقه مبنيٌّ على الكتاب والسنة، حسب ما كان يسمع من شيوخه القاصرين الذين لا صلة لهم بالحديث النبوي والسنة المحمدية إلا من جهة السماع والتبرُّك.

❐ نموذج من تعصُّب فقهاء عصره:

كان مرة أيام عطلة الصيف قد اشترى «زاد المعاد» للحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى، واعتكف على قراءته ووجد لقراءته حلاوة ونشوة، وبعد أن قطع فيه شوطاً ذكره لبعض شيوخه المشاركين الأتقياء، فقال له: ائتني به، فلما أتاه به ونظر في عنوانه ووجده يحمل اسم «زاد المعاد في هدي خير العباد» للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية الحنبلي، قال له: إنَّ هذا على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، ونحن مالكية فلا يجوز لنا العمل به أو نحو هذا.

واقتنى مرة شرح الإمام النووي رحمه الله تعالى على صحيح مسلم، فافتتح مطالعته، وقطع فيه شوطاً أيضاً، ووجد النووي يرجِّح ما في الأحاديث ويزيِّف ما سواها من المذاهب، فتحيَّر في ذلك.

وبعد مدة مال إلى طريقة النووي في العمل بالحديث، فشاور الشيخ المتقدِّم في اقتناء الكتاب فحبَّذ له ذلك، ثم قال له: إن طريقته كيت وكيت فهل يمكن للإنسان أن يترك المذهب ويعمل بالحديث، فغضب غضباً شديداً وقال: لا لا إن فقهنا مغربل والحديث فيه الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيَّد، والعام والخاص... ونحن لا ندري تطبيق ذلك، وأئمتنا رحمهم الله قد كفونا المئونة في ذلك فخدموا لنا الدين وتركوه لنا صافياً... أو كلاماً نحو هذا.

فكان كلام هذا الشيخ عفا الله تعالى عنه مثبطاً له عن الاشتغال بعلم السنة والعمل بها حتى منَّ الله تعالى عليه بذلك كما يأتي تفصيله بإذن الله وإرادته.

◻ دخوله في جمعية لحفظة القرآن الكريم:

كان في حيِّه الذي يسكنه ادرادب جماعة من حَفَظة القرآن من قبائل شتّى، فيهم علماء وأئمة المساجد ومعلمو القرآن وخياطون وتجار وأصحاب حِرَف ومهن، وكانوا يجتمعون بمسجد ادرادب القديم قبل توسعته ليلة الجمعة من كل أسبوع، فيلقي عليهم بعض علمائهم درساً، وكان في الغالب يلقيه عليهم عالم شريف اسمه سيدي عبد السلام الغيلاني، ثم بعد الدرس يذكرون الله تعالى ذكراً جماعياً، ثم يقرؤون بردة المديح يتخلَّلها سماع بعض المنشدين، ثم يختمون بقراءة دلائل الخيرات، هذا كان دأبهم... وكانت لهم رحلات ترفيهية واحتفالات في بعض المناسبات داخل المدينة وخارجها.

◻ انخراطه في حزب سياسي:

في تلك الفترة كان قد ظهرت الأحزاب السياسية تطالب بالاستقلال، وكان أبرزها ثلاثة أحزاب: حزب الاستقلال ويرأسه علال الفاسي، وحزب الوحدة المغربية وزعيمه المكي الناصري، وحزب الشورى ويترأسه محمد بن الحسن الوزَّاني، فانخرط الناس فيها، ولم يتخلَّف عنها إلا القليل، وكان من أهل الجمعية رجل نشيط في حزب الوحدة، فدعا الجماعة إلى الالتحاق بحزبه، وزيَّن لهم زعيمه، وأثنى عليه وأنه عالم وشريف مخلص... فقرروا

الدخول فيه، فعملوا إكراماً، واستدعوا إليه الزعيم المكي الناصري، وأسندوا إلى عبد ربه إلقاء كلمة عند حضور الزعيم.

فلما جاء افتتح أحدهم فتلا ثمناً مجوَّداً من القرآن، ثم قام عبد ربه فألقى كلمة من ورقة، فلما فرغ منها أثنى عليه الزعيم وشكره ودعا معه، فالتحق أكثر أهل الجمعية بالحزب ومنهم عبد ربه، فكان بعد ذلك يحضر إلى المركز في المناسبات وغيرها المرة بعد المرة، ومكث في الحزب نحو سنة تقريباً.

◻ مجزرة ثلاثين مارس:

وجاءت مجزرة ثلاثين مارس عام سبعين وثلاثمئة وألف للهجرة سنة خمسين وتسعمئة وألف ميلادية، حيث إن أهالي طنجة كوَّنوا مظاهرة صاخبة ضدَّ العدوِّ الفرنسي، وما كان يمارسه من عدوان وظلم واعتداء ضد المواطنين، فواجههم العدو؛ الضابط التمسماني وأعوانه المرتزقة أذناب الاستعمار من أبناء المغرب، فأطلقوا عليهم رشاشاتهم وبنادقهم... فكانت ضحية الحادث عشرات من الأهالي ما بين قتيل وجريح، من ذكر وأنثى، كبير وصغير... ثم دفنت الأموات في حشود رهيبة وجموع غفيرة، وقيلت عندها في المقبرة كلمات مؤثرة تنديدية.

وعقب هذا الحادث الجارح المؤثِّر ذهب عبد ربه لمركز الحزب فوجد به بعض أعضائه، فكلَّمهم في الحادث منتظراً منهم الفعل والتنكيل بالعدو، ولكن من دون جدوى، بل قابلوه بالصمت... فأحسَّ بهشاشة القياديين وضعفهم المتفاقم.

◻ حضوره مع الزعماء بالوحدة المغربية:

وفي هذه الأثناء كان قد حضر إلى طنجة الداعية المصري (سعيد رمضان) أحد رموز الإخوان المسلمين في الخمسينيات، والذي كان يصدر مجلة «المسلمون»، وجاء معه رجل آخر باكستاني اسمه (إنعام الله خان)، وكان الباعث لحضورهما الوساطة في مصالحة الأحزاب التي كانت تتناحر فيما بينها

على الرياسة والمصالح الحزبية، فاتفق أن صليت الجمعة في الجامع الأعظم بخطاب العلامة سيدي عبد الحفيظ كنون، ثم عقب الصلاة ألقى سعيد رمضان خطبة هامة، ثم تلاه إنعام الله خان فألقى كلمته بالإنكليزية لأنه كان لا يعرف العربية.

ثم انصرف الجمع ليعقد الزعماء اجتماعاً بالوحدة المغربية يضم كل الأحزاب، فجاءت جموع غفيرة، وحشود من الناس ذكوراً وإناثاً، فامتلأت البناية وما حولها من المتَّسع، واغتصَّ الشارع بالأهالي، وكان عبد ربه داخل البناية قريباً من الزعماء والقياديين، فجعلوا يخطبون مناوبة مع تناول الشاي والحلوى من الساعة الثانية زوالاً أو قبلها بقليل إلى أن أظلم الليل، وما صلَّى أحدٌ من الحاضرين لا العصر ولا المغرب، ولا وجد فيهم رجل رشيد ينبههم بالأذان والدعوة إلى أداء فرائض الله تعالى، وعبد ربه يتحسَّر وسط تلك الجموع، وما وجد منفذاً للخروج للازدحام الشديد، فلما انصرف الجمع تاب إلى الله تعالى مما حصل، وانسحب من الحزب، وتيقَّن أن أصحاب الأحزاب السياسية لا خير فيهم، وإنما هم سماسرة المقاعد والوظائف والرئاسة والمصالح الحزبية والشخصية، ولا اهتمام لهم بالدين ولا بشعائره، ولا يعيرون له أي قيمة أو وزن.

وقد كان أولئك الزعماء أيام الاستعمار يَعِدُون الناس قائلين: إننا سنستقل، وَنُحكِّم الشريعة الإسلامية، ونقضي على الفساد ومظاهره... فلما ذهب الاستعمار بجيوشه فقط خَلَفه أولئك الحزبيون في مناصبهم وكراسيهم، فطبَّقوا قوانين العدو المستعمر، وحكَّموا أنظمته بين الشعب المسلم في كل ميادين الحياة، وأظهروا من الفساد والبغي والظلم والاستبداد ما لم يكن أيام الاحتلال. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولذلك أصبح عبد ربه من ذلك الحين لا يغتر ولا يثق بأيِّ حزب سياسي مهما تلوَّن وتظاهر بشعارات، وثرثر وتَفَيْهَقَ بوعود وأضاليل وأكاذيب...

رحلته إلى فاس

كان الطالب عندنا في المغرب إذا فرغ من مستوييه الابتدائي والثانوي، وأصبح مُلمّاً بالعلوم، وقد حصلت له مَلَكَة، شدَّ الرحلة إلى فاس للالتحاق بجامعة القرويين، التي هي أقدم جامعة في العالم الإسلامي بعد الجامعة الإسلامية بالمسجد النبوي الشريف، وكان قلَّما يوجد عالم في جميع أنحاء المغرب لا يدرس في هذه الجامعة لما كانت تزخر به من كبار العلماء المتخصِّصين في جميع العلوم والفنون، ولما كان لها من المكانة في القلوب، حتى إنه كان لا يعتبر الرجل عالماً ولو قرأ ما قرأ إذا لم يدرس بفاس.

وكنتَ إذا دخلت مسجد القرويين، رأيتَ على كل سارية تقريباً من سواري هذا المسجد التاريخي عالماً على كرسيه، مُسْنداً ظهره إليها، وبين يديه جموع من الطلبة منصتين إلى درسه.

وعندما أراد عبد ربه الالتحاق بهذه الجامعة صحب معه طالباً من أهل حيِّه، كان صديقاً له قديماً، فركبا القطار إلى القصر الكبير، حيث توجد الحدود بين المستعمرين الإسباني والفرنسي، فنزلا ومشيا على الأقدام متسللين، حتى عبرا الحدود، فباتا هنالك بمسجد قرية، فأكرمهما إمام المسجد، وأرشدهما إلى الطريق المأمون. . .

وفي الصباح خرجا حتى انتهيا إلى محطة عرباوة، وهي أول محطة للقطار داخل جنوب المغرب، فانتظرا حتى جاء القطار فأقلَّهما إلى فاس فدخلاها. وهي أول مرة يرى فيها مدينة فاس التاريخية، التي طالما تحدَّث عنها شيوخه وأثنوا عليها، وأشادوا بها وبعلمائها، والتي تضمُّ قبور كثير من العلماء والصالحين، الذين قدموا إليها مهاجرين من الأندلس، والتي كانت معقل العلم والعلماء، ورجال التربية وأهل الفضل والصلاح كما يرى القارئ

ذلك متجلياً ومتمثلاً في (سلوة الأنفاس فيمن حلَّ من العلماء والصَّالحين بمدينة فاس)، لشيخ شيوخنا محدِّث وقته وبركته سيدي محمد بن جعفر الكتَّاني رحمه الله تعالى.

دخل عبدُ ربِّه مدينة فاس، وسأل عن القرويين، ثم عن بعض معارفه الطلبة، فاتَّصل بالأخوين الجليلين السيد عبد العزيز والسيد عبد السلام ابني الفقيه الخليع، فأقام عندهما.

ولما دخل مسجد القرويين انبهر مما شاهد من كثرة كراسي العلماء، وحشود الطلبة على اختلاف مستوياتهم في السنِّ والعلم، وكان عددهم إذ ذاك خمسة آلاف طالب، وهذا سوى الطلبة الخارجين عن نظام المعهد من الأحرار.

وكانت الدراسة بجميع أقسامها من الابتدائي إلى العالي داخل المسجد الكبير الفسيح ذي مئات السواري، وقد فقدنا ذلك المنظر الهائل الجميل بعد الاستقلال الأجوف، وسيأتي لنا كلام على هذا الجانب إن شاء الله تعالى.

استقرَّ مع الصديقين المذكورين، وأكرما نزله، جزاهما الله خيراً، فجعل يحضر الدروس الكثيرة المختلفة الفنون والمواد:

فقرأ مقدمة «جمع الجوامع» على العلامة عبد العزيز ابن المحدث شيخ الجماعة السيد أحمد بن الخياط.

وعلى العلامة إدريس العراقي العبادات من مختصر خليل بشرح الدردير. وقرأ عليه بعض الدروس في «الحكم العطائية». وقرأ التوحيد على أبي العباس بناني.

كما حضر على جماعة آخرين لا يتذكر أسماءهم كان منهم ابن أبي الشتاء الصنهاجي، وولدا الزرهوني وغيرهم، حضر عليهم في النحو بالموضح على الألفية، ومصطلح الحديث بالبيقونية، وبعض الدروس في الفلك والأدب.

لكنه لم تطل إقامته بهذا المعهد العظيم الذي كان في طريق الانهيار،

والذي كان في كثير من الأحيان يقوم فيه الطلبة بالإضراب عن الدراسة وشبه مظاهرات. . . يضاف إلى ذلك ما كان يواجهه المشايخ والطلبة من مضايقات الاستعمار، فلما رأى ذلك رجع إلى مدينته مكتفياً بما حصَّل من العلوم سابقاً.

❐ ما بعد رجوعه من فاس:

بعدما رجع من فاس تعرَّف عليه بعض طلبة المدينة، فطلبوا منه أن يقرأ معهم العربية، فاختاروا ألفية ابن مالك، فجعل يقرؤها معهم بشرح المكودي، وكان موضع الدرس بدار الرجل الصالح الولي الفالح سيدي الغالي بن عجيبة رحمه الله تعالى. . . وقطع معهم فيها شوطاً لا يتذكر أين كانت نهايته، ثم عرض احتفال ديني في بعض المساجد، فحضره مع أولئك الطلبة سوياً، فإذا به يفاجأ بالمنشدين مع استعمالهم آلات العزف، فأنكر ذلك واغتاظ، وقال لطلبته: الضرب بآلة العزف وبالمسجد حرام، فكيف يتعاطاه هؤلاء؟ فطمأنوه، وقالوا له: إن هؤلاء فيهم علماء، وهم أعرف بذلك منا، فسكت مجاملةً لهم.

❀ ❀ ❀

في المدرسة الصِّدِّيقيَّة

ثم جعل يتردَّد على الزاوية والمدرسة الصِّدِّيقيَّة التي كان أهلها مشهورين بالحديث والعمل به ومخالفة مذهب مالك الذي يدين الله به المغاربة . . .

وكان خطيب الزاوية وقتئذ والمدرس بها والقيم عليها العلامة الأثري الشيخ محمد الزمزمي، فاتَّصل به، وطلب منه أن يقرأ معه بعض كتب السنة، فاختار «بلوغ المرام»[1]، فافتتحه معه صحبة بعض الطلاب كانوا لا يزيدون على الخمسة.

ثم طلبوا منه أن يقرأ معهم أصول الفقه، فافتتح معهم «لب الأصول» للشيخ زكريا الأنصاري، ثم لزم دروسه الوعظية والتفسيرية التي كان يلقيها في الجامع الأعظم بين العشاءين.

ثم لم يلبث أن اتَّصل بالعلامة الأصولي سيدي عبد الحي بن الصديق، فقرأ عليه في جمع من الطلاب «الجوهر المكنون» في البلاغة، و«نُخبة الفكر» في مصطلح الحديث للحافظ ابن حجر، و«مفتاح الوصول» للشريف التلمساني، و«بلوغ المرام» مع سرد سبل السلام للأمير الصنعاني.

ثم اتَّصل بالعلامة المحدث سيدي عبد العزيز بن الصديق زاره في دار أخيه الأكبر التي كان وقتئذٍ مسجوناً، وكان السيد عبد العزيز في ذلك العهد لا ينزل إلى المدينة إلا المرة بعد المرة، حتى إنه كان يمكث أحياناً أكثر من شهر لا يخرج من منزله، ولا يتصل بالناس لاشتغاله بعلم الحديث والتأليف.

فلما زاره وعرَّفه بنفسه وما مراده بالزيارة سأله عن مستواه العلمي، فذكر

---

(١) هو كتاب «بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام» للإمام ابن حجر العسقلاني، عليه شرح مشهور بسبل السلام للأمير الصنعاني رحمهما الله.

له ما قرأ من المواد، فافتتح معه ألفية العراقي في الحديث بمفرده، ثم انضاف إليه طالب آخر، ثم قرأ عليه «جامع الترمذي» فختمه في ظرف ستة أشهر، خرج منه بفقه وعلم غزيرَيْن، وقرأ عليه «نخبة الفكر»، ثم التفسير بالجلالين إلى سورة هود، ثم لازمه وصحبه إلى أن توفي رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثم قدم المدينة العلامة المحدث الشريف السيد محمد المنتصر الكتاني، فأقام بها، وكان يمثِّل حزب الشورى داعية إليه، فاتَّصل به، وطلب منه في جملة من الطلبة أن يقرأ معهم كتاباً في علوم الحديث، فافتتح معهم البيقونية، ثم «الورقات» لإمام الحرمين في الأصول، ثم «نور اليقين» في السيرة النبوية، وهذا بالإضافة إلى دروسه في التفسير التي أربت على أربعة أحزاب، بل أكثر كل ذلك كان بالجامع الأعظم.

وفي هذه الأثناء اتَّسعت دائرته العلمية، وذهب عنه جمود المقلدة المتعصِّبين، وحُبِّبَ إليه العمل بالسنة والدليل، ووجد عند هؤلاء العلماء من أنواع الثقافة الإسلامية الواسعة الشاملة ما لم يسمع به عند المشايخ وما يسمون عند الناس في طنجة بالعلماء والفقهاء... بل حتى علماء فاس.

ووجد نفسه كأنه ولد من جديد، أو كأنه كان ساكناً في غرفة ضيقة فخرج منها إلى فضاء واسع فسيح.

❑ مقاطعته للمتعصبين الطاعنين في أهل الحديث:

وعندما حَبَّبَ الله إليه الحديثَ النبويَّ، وهداه للعمل به دون ما سواه من الأقوال المخالفة له، وأصبح مخالفاً لما عليه الجماهير من أهل بلده، رماه جماعة من أهل العلم ومعارفه بالانحراف عن الحقِّ، وطعنوا فيه، وسلقوه بألسنتهم، وتنكَّروا له، فقاطعهم جميعاً، وانسحب من تلك الجمعية القرآنية، ولم يعد يتَّصل بغير أهل الحديث، والمنصفين من غيرهم، وأقبل على شأنه ومطالعة ما يهمُّه من كتب التفسير والحديث والفقه الإسلامي المقارن والرقائق والزهديات.

▢ خطابته بقرية الشجيرات:

في سنة ثنتين وخمسين وتسعمائة وألف ميلادية وهي السنة التي خلع فيها الفرنسيون محمداً الخامس عن عرشه ونفوه مع أسرته لجزيرة مدغشقر، ونصب محمد بن عرفة بديلاً عنه، في هذه السنة عُيِّن خطيباً بقرية الشجيرات بضواحي المدينة، وأكثرية الشعب في حِدادٍ على نزع ملكهم ونفيه، فلا تقام جمعة ولا وليمة عرس ولا عقيقة ولا ختان ولا تضحية... كل هذا حداداً على الملك، وهي من البدع الضالَّة التي اعتادها أهل العصر خلافاً لما جاء به الهديُ النبوي.

وكان هذا الحداد بأمر من زعماء بعض الأحزاب السياسية، وكان كل من خالفهم في ذلك رموه بالخيانة، بل ربما اختطفوه فعذَّبوه أو قتلوه.

في هذا الوقت الحرج جاء عيد الأضحى، فسأله بعض أفراد جماعة القرية عن الأضحية، فأجاب بأنها سنة من سنن النبيِّ ﷺ لا تُترك لموت أحد ولا لسجنه، فعارضوه بأن الملك في المنفى والناس لا يضحُّون... فحصل نزاع بين جماعة القرية، وكان من بين المعارضين أعضاء منتمون إلى حزب علال الفاسي، فتخاصموا ورموا خطيبهم بالخيانة للعرش والوطن، فرفع الفريق الثاني بالطاعنين المعارضين شكاية للمندوب، العامل، فأحالهم على المقيم الفرنسي، وكان فوق المندوب رتبة، فاستدعى الطرفين، وبعد سماعه كلام الفريقين حكم على المعارضين بالسجن شهراً نافذاً، ثم بعث إلى الخطيب بالحضور إلى مكتبه بالمندوبية لا يدري ماذا كان مراده منه، فرفض الحضور، ولم يعد يخطب بتلك القرية، وبعث إلى جماعتها صديقاً له نيابة عنه...

ثم غادر طنجة وسافر إلى جنوب المغرب.

▢ شدُّه الرحلة إلى الحافظ السيِّد أحمد بن الصِّدِّيق في مَنْفاه بسلا:

وعقب هذا الحادث، وكان خيراً له عظيماً، بعث إلى الإمام الحافظ السيد أحمد بن الصديق رحمه الله تعالى بواسطة بعض إخوته الأجلاء أنه يرغب في زيارته والأخذ عنه، فتفضَّل بالإجابة إلى ذلك.

وكان هذا السيد الجليل رحمه الله تعالى قد قام بحركة ثانية له مسلَّحة ضد الاستعمار الإسباني عام تسعة وستين وثلاثمئة وألف هجرية الموافقة سنة تسع وأربعين وتسعمئة وألف بتاريخ النصارى، ففشلت الحركة، وأُلقي القبض على جماعة من أصحابه فَحُكم عليهم أولاً بالإعدام، ثم بعد مدافعاتٍ حُكم عليهم باثني عشر عاماً نافذة. ثم أُلقي القبض عليه هو الآخر، فحكمت عليه المحكمة الدولية بطنجة بثلاثة أعوام ونصف نافذة مع غرامة مالية، فقضى سجنه في مدينة آزمور قرب الدار البيضاء.

ولما أُفرج عنه جاء إلى طنجة في خفية مُتَسلِّلاً، فلمَّا اطَّلعت السلطة على وجوده بالمدينة صَدَرَ الأمر بنفيه وإبعاده عن المدينة الدولية طنجة، فسكن مدينة سلا التي تقع بجانب مدينة الرباط.

وكان عبد ربه لم يتقدَّم له لقاء لهذه الشخصية الفذَّة، رغم أنه كان يعيش معه في المدينة منذ طفولته وطوال أيام طلبه؛ إذْ كان متعصِّبة المشايخ رحمهم الله قد حالوا بينه وبين لقائه والأخذ عنه مبكِّراً.

نعم يتذكر أنه مرة كان بأحد شوارع المدينة عند باب الفحص قُبالة سوق الزرع، وإذا برجل مُقْبل في هيئة حسنة له لحية سوداء قد خالطها شيء من الشيب، وعلى وجهه نور ونضارة، وعليه هيبة، فلما رآه انبهر ووقف مستنداً إلى جدار ينظر إليه، فقال في نفسه: إن هذا رجل عظيم لم نر مثله، فلا يكون إلا الشريف ابن الصِّدِّيق. وقال: معاذ الله أن يكون هذا ملحداً زنديقاً فإن وجهه ليس بوجه كذاب. فتحقَّق أنه الرجل الذي كان يسمع عنه ما يقال فيه زوراً وبهتاناً . . . ومن ذلك الحين مالَ إليه قلبُه وأحبَّه، وهو لا يزال في الطلب لم يتَّصل بإخوته بعد.

وعندما عَزَم على شدِّ الرحلة إليه صَحِبَ معه رجلاً من أولاد العلامة الصالح سيدي العربي بوعياد رحمه الله تعالى، وكان المغرب وقتئذ في هرج ومرج وفتن ومظاهرات وإضرابات ومواجهات مع الاستعمار، يضاف إلى ذلك ما كان بين الأحزاب من انتقام بعضهم من بعض وتصفية المعارضين وتعذيبهم

وتقتيلهم بأدنى تهمة وشبهة، وكم من بريء فُقد ومظلوم عُذِّب أو قتل...

في هذا الوقت الحرج بالذات قام عبد ربه برحلته في القطار من طنجة إلى مدينة سلا، حيث يوجد محدِّث الدنيا وعالمُها وقتئذٍ غريباً طريداً منفياً من طرف الاستعمار واتفاق كل الدول الكافرة، فوصل لسلا قبل غروب الشمس، فلقيَ الشيخَ بين العشاءين، وكانت فرحتُه بلقائه عظيمة لا يمكن وصفها، وكان أول لقاء له بهذا السيد العظيم، وأول مرة يصافحه ويقبِّل يده الكريمة وهو يجذبها ويتحاشى عن تقبيلها.

كانت بسلا زاوية قديمة من تأسيس بعض تلامذة شيخ الإسلام سيد وقته وإمامه سيدي محمد بن الصِّدِّيق رضي الله عنه.

وكانت تشتمل على دورين: الدور الأول: فيه مسجد ومراحيض وغرف يسكنها بعض المتجرِّدين المتعبِّدين، وفي الدور الثاني: غرفتان، غرفة كان يسكنها أخونا العلامة الدكتور سيدي إبراهيم[1] بن الصدِّيق مع ابن عم له، أما الغرفة الثانية فنزل بها عبد ربه.

وكان في أول اجتماع رسمي بالشيخ طلب منه أن يسمعه حديث الرحمة المسلسل بالأولية، ثم افتتح معه قراءة (صحيح مسلم)، وسمع عليه كثيراً من المسلسلات وبعض كتبه، ثم تتابعت المجالس والأسئلة والأجوبة مشافهة ومكاتبة، واستفاد منه كثيراً في مختلف العلوم، وخاصَّة علم الحديث وما يتعلَّق به، وتدرَّب به فيه وفي العمل بالدليل، وكان يتردَّد عليه كثيرٌ من أهل العلم والفكر في بعض الأيام، وبالأخص العلامة السيد المنتصر الكتاني، والسيد عبد الرحمن بن سيدي محمد الباقر الكتاني وغيرهما، فكان يحضر معهم. فكانت تدور وتجري بينهم مناقشات علمية في شتى الجوانب، فيفيض السيد فيها، ويُملي عليهم من التحقيقات وفرائد الفوائد ما يُدهش العقول ويسيل لسماعه اللعاب.

(١) وكان لا يزال صغيراً دون العشرين من عمره أو نحوها، وكان مع أخيه في السجن والمنفى في جملة العائلة (المؤلف).

أحبَّه حبّاً شديداً، وتأثَّر به وبطريقته وأفكاره، كما كان تأثَّر أيضاً سابقاً بشقيقه سيدي عبد العزيز، لكن تأثره بالحافظ كان أكثر، إذ قد صحَّح له مفاهيم كانت له خاطئة، فَوَجَد عنده ما لم يجده عند غيره.

وحَبَّبَ إليه الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحديث والاشتغال والعمل به، وبغَّضَه في التعصُّب والتقليد الأعمى للفقهاء، وكرَّه إليه الكفار وأعوانهم وأذنابهم، والمتفرنجين والعلمانيين والعصريين المفسدين.

وكان مرَّة يتكلَّم على أحوال الوقت وما ظهر فيه، فطلب منه أن يؤلف كتاباً يجمع فيه ما جاء عن النبيِّ ﷺ من الأخبار التي تطابق ما ظهر في وقتنا، فألَّف كتابه «مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية»، جمعه في أسبوع، فجاء كتاباً حافلاً لم يؤلَّف مثله.

وعيَّن عبد ربه إماماً للصلوات الخمس وخطيباً للجمعة بالزاوية، فأقبل على القراءة ومطالعة كتب الحديث بغرفته، واشتغل بتخريج أحاديث «مفتاح الوصول»، ونسخ كثيراً من كتب الشيخ كـ«الهداية بتخريج أحاديث البداية»، و«عواطف اللطائف»، و«الإقليد» في التفسير، و«الحسبة في وجوب الخطبة»، و«درء الضعف بتصحيح حديث مَنْ عشق فعف»، كما قرأ كثيراً من كتب الشيخ المخطوط منها والمطبوع، واعتنى كثيراً بـ«إبراز «الوهم المكنون»، «وفتح الملك العلي»، و«درء الضعف»، واستفاد منها علماً جمّاً في علم الحديث، لأن هذه الكتب الثلاثة تعتبر باباً لمعرفة علم الحديث التطبيقي.

ثم أجازه الشيخ بمقروآته ومسموعاته ومروياته، وكتبها له بخطه، كما لقَّنه طريقته الشاذلية، وأجازه فيها، وأذن له في نشرها وتلقينها، وقال له: إن طريقَتَنا مبنيَّةٌ على الكتاب والسنة والعمل بهما.

وكان أحياناً يبعثه لاستدعاء السيد المنتصر الكتاني الذي كان وقته أستاذاً بجامعة محمد الخامس بالرباط، حيث كان يدرس مادة المقارنة بين الأديان، فكان القسم غاصّاً بمزيج من الطلبة المغاربة ومن الرهبان وغيرهم من

الأجانب، فكانت الأسئلة تُطرح عليه، فيجيب عنها بلسانه الفصيح بأجوبة مفحمة مقنعة.

وكان إذا زاره في الجامعة أخذه معه لمنزله ليتناول معه طعام الغداء، وربما نام عنده بعد ذلك.

وكان أحياناً يبعثه الشيخ الحافظ للخزانة العامة ليعرض بعض كتبه المخطوطة على مديرها وقتئذٍ علوش اليهودي الذي كان قبل أن يخلفه عبد الله الركراكي.

وقد باع للخزانة كثيراً من مخطوطاته ليتقوَّت بها، بواسطة عبد ربِّه، منها: «سبحة العقيق» في ترجمة والده، وهو أصل «التصور والتصديق» المطبوع.

ومنها: «المؤذن بأخبار سيدي الحاج أحمد بن عبد المؤمن» وغيرهما.

وتعرَّف بسلا على العلامة الصالح بقية رجال السلف سيدي محمد الباقر الكتاني رحمه الله تعالى، فكان يزوره كثيراً، وسمع منه حديث الرحمة وبعض كتبه، واستفاد منه، واستجازه فألف بسببه رسالته: «غنية المستفيد في مهم الأسانيد» فأجازه بمقروءاته ومروياته.

وفي تلك الأثناء زار الشيخ سيدي أحمد بن الصِّدِّيق رحمة الله عليه مرة قبيلة زعير، وخرج معه في جملة من الإخوان، فرأى عبد ربه في المنام كأنَّ الشيخ يقول له: إن رسول الله ﷺ يحبُّك. فلما أصبح، وتناولوا طعام الفطور قال الشيخ: هل رأى أحد منكم رؤيا، فقصَّ عليه ما رأى، فهنأه بذلك وفرح بها.

ورأى عبد ربه مرة كأنه مع الشيخ بداره بسلا، وهما جالسان على مجلس من صوف، فقال له الشيخ: تعال أنا رسول الله ﷺ، فلما قصَّها عليه قال له: أنا ابن رسول الله ﷺ وخديم حديثه.

وفي هذه المدة استشهد صاحب للشيخ بسلا: جاءه رجل مجهول فقال له: هيء لي عشرين ألف فرنك غداً في ساعة كذا، فلم يفعل، فجاءه من الغد بين العشاءين، وهو في دكانه، فأطلق عليه طلقات من مسدس كان فيها حتفه رحمه الله تعالى.

فتأسَّف الشيخ وحزن عليه كثيراً لأنه كان من المؤمنين المخلصين أهل الخير والإحسان والعمل الصالح.

❀ ❀ ❀

رجوعه من سلا إلى طنجة
وبعض أخباره في تلك المدة

بعد إقامته مع إمام الدنيا وحافظها في وقته بسلا نحو سنة ونصف تقريباً، رجع إلى طنجة والملك محمد الخامس لا يزال في منفاه في مدغشقر.

أما المغرب فكان يفور بالمظاهرات والمواجهات مع فرنسة، والعمليات الفدائية بحق وبباطل في استمرار.

وفي هذه المدة كان الوالد رحمة الله عليه قد انفصل عن الوالدة، وتزوَّج بزوجة ثالثة، ورحل معها إلى بلادها في البادية، فبقي عبدُ ربِّه مع والدته بمنزلهم بادرادب...

ثم أقبل على قراءة «المحلَّى» لابن حزم، وعَكَف عليه ليل نهار، وما كان يَسْتشكله من الكتاب، كان يكاتب فيه الشيخ رحمه الله تعالى، ولم يمض على ذلك إلا سنة حتى استقلت البلاد من جيوش الاستعمار، ورجع الملك إلى المغرب، وأفرج عن الشيخ الحافظ، فجاء إلى مدينة طنجة، وكان يوم قدومه يوماً مشهوداً، حيث استقبل بمطار طنجة من طرف مريديه ومحبيه، ثم احتفلوا به احتفالاً هائلاً حَضَره الأعيان وأهالي المدينة.

ثم استقرَّ الحافظ بداره بسوق البقر، وأنشأ صلاة الجمعة بمنزله، فعيَّن عبدَ ربِّه للخطابة، ومكث على ذلك عاماً ونصفاً، كان ملازماً له في تلك المدة حضراً وسفراً لا يتخلَّف عنه، فكل يوم يأتيه إما صباحاً أو مساءً، يكرع من معينه العذب، وينهل من علومه الفيَّاضة، وكان إذا تأخر يوماً ما ثم جاءه لامَهُ على تأخُّره.

ومرض مرة مرضاً شديداً، وكان إذ ذاك مع أخته، فجاءه شيخه عائداً في

صحبة أخٍ له، فجاش بالبكاء إعظاماً لمجيء الشيخ لعيادته وزيارة أمثاله الضعاف الذين يسكنون المنازل الخشبية المتواضعة، وعدَّ ذلك من كمال تواضعه وتنازله رحمه الله تعالى.

◻ ما بعد هجرة شيخه الحافظ إلى مصر:

كان السيد الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد العداوة لأهل الأحزاب السياسية، لما كانوا عليه من الدعوة إلى التفسُّخ والتفرنج وتحرير المرأة واحتكاكها بالرجال، فكان لذلك ينكر عليهم، ويضلِّلهم ويتظاهر بسبِّهم وتكفيرهم في مجالسه التي كانت لا تخلو من الجواسيس الخَوَنة.

هذا ومقاليد الحكم في البلاد وأزمَّتها قد أصبحت في أيدي هذه الأحزاب، فمنهم رئيس الحكومة، ومنهم الوزراء، ومنهم العمال... فأرادوا الانتقام من الحافظ، وخططوا لذلك خطة لاختطافه لينتقموا منه أولاً بالتعذيب، ثم في النهاية بالقتل كما فعلوا بجماعة من الأبرياء، وكان التخطيط لاختطافه بواسطة امرأة جاسوسة كانت تتصل بأهله وتزور الدار، فجاء من بلَّغه بما أرادوا به كيداً، فخرج في إحدى الليالي مُتسلِّلاً، واختفى بدار أخت له كانت مجاورة لداره، وفي الصباح جاء عبد ربه في نحو الساعة التاسعة، فسأل الخادمة عن السيد، فأخبرته بأنه بدار أخته، فنزل إليه وسأله: ماذا حصل؟ فقصَّ عليه ما حَدَث، ثم جاء أخوه العلامة السيد الحسن، ثم العلَّامة سيدي محمد البقالي، ثم ابن عم الشيخ سيدي محمد بن الصديق، وكان قبلهم سيدي إبراهيم حاضراً معه، فقرَّر الشيخ الهجرة من المغرب، فطمأنه سيدي حسن وعارضه في ذلك، فأبى إلا الهجرة قائلاً: إنَّ هذه البلاد تجب الهجرة منها.

ثم بعث إلى سيارة أجرة، فجاءت فركبها، ومعه عبدُ ربِّه، وأخوه سيدي إبراهيم، وابن عمِّه، فتوجَّهت بهم السيارة نحو الجنوب، وخرجوا بين الظهرين، وأخفوا عن السائق مرادهم، وصلوا العصر قَصْراً بقرية حجر النحل، وهي تبعد عن المدينة بنحو خمسة وعشرين كيلو، ثم واصلوا السَّيْر حتى وصلوا إلى القصر الكبير، فنزلوا جميعاً وودَّعوه هناك لترجع بهم السيارة إلى مدينة طنجة.

كانت تلك آخر نظرة نظرها عبد ربِّه إليه رحمه الله تعالى.

نزل السيد ضيفاً على بعض أحبته بالقصر الكبير، ليركب من الغد إلى الدار البيضاء، ومنها على متن الباخرة إلى بور سعيد. كان ذلك في شهر ربيع الأول عام سبعة وسبعين وثلاثمئة وألف هجرية، سنة ١٩٥٧ بتاريخ النصارى.

بعد ذلك استقلَّ عبد ربِّه بنفسه، ولزم بيته مُقْبلاً على المطالعة والقراءة. واستأنف مكاتبة الشيخ التي دامت نحواً من ثلاث سنوات ونصف سنة كانت كلها علوماً وفوائد في مختلف الموضوعات، وهي التي ضمَّنها كتابه المطبوع: «دَرُّ الغمامِ الرقيقِ برسائل السيد أحمد بن الصدّيق»، مع رسائل أخرى لم تُطبع بعد.

ولما غادر شيخه المغرب حاول عبد ربِّه الالتحاق به، وجعل يسعى في الحصول على جواز السفر، لكن من دون جدوى، فقد منعه منه قائد الدائرة منعاً كليّاً، فكتب بذلك إلى شيخه فطمأنه قائلاً: «إنا نحبك أن تبقى في المغرب، لتنوب عنا في نشر السنة»... فسلَّم الأمر لله، وافهم عنه سبحانه ما قضاه وقدَّره عليه.

□ خطابته بجامع الحاج مسعود بحيِّ المُصَلَّى:

وبعد هجرة شيخه عُيِّن خطيباً بجامع الحاج مسعود بحيِّ المُصَلَّى، فجعل يلقي خطباً ينكر فيها على ما ظهر مع الاستقلال من الانحلال والميوعة والفساد وتطبيق نظام الاستعمار الراحل، فلم يُرض ذلك بعض المسؤولين، فوشوا به إلى القاضي الشرعي، وكان وقتذاك المسؤول عن الخطباء. فاستدعاه لإدارته، فلما حضر طلب منه أن يناوله إحدى خطبه فأجابه: إنني لا أكتب خطبي، وإنما أخطب بما يناسب الحال، وما يفتح الله به عليَّ، ثم بعد محاورة وأخذ ورد، أمره بالانسحاب من ذلك المسجد، فتوقَّف عن الخطابة به.

ولمَّا كاتب شيخه في ذلك أجابه قائلاً: «اترك المساجد للفراعنة... وادع الله تعالى ولو بالدكاكين أو في المقاهي، ودلَّ الناس على الله سبحانه»اهـ.

❑ بداية قراءته مع الطلبة وتزوجه:

وفي هذه المدة جاءه جَمْعٌ من الطلبة، فطلبوا منه أن يقرأ معهم، فافتتح معهم ألفية ابن مالك، وبلوغ المرام، وتفسير الجلالين، وكان ذلك في عدة مساجد: منها مسجد مرشان، ومسجد بوعراقية، ومسجد بوعبيد، ومسجد المطافي.

ثم حصلت له مضايقات، فجعل يقرأ معهم بمنزله، وكان في ذلك الحين قد قدَّر الله له التزوُّج رغم أنه كان عازماً أن لا يتقيَّد بمسؤولية الزواج الثقيلة لما كان يشاهده من فساد النساء أيام الاستعمار وفي عهد الاستقلال، وكان قد تعاهد مع زميل له من أهل بلدته أن لا يتزوَّجا، ويدوما أعزبَيْن منقطعَيْن إلى الله تعالى.

أما الزميل فوفَّى بما عاهد عليه، فعاش عزباً متعبِّداً حتى أتته منيته، وقد جاوز الخمسين من عمره رحمه الله تعالى، وأما عبد ربه فوقع في الفخ... وكان ذلك خيراً له، فعسى أن تكرهوا شيئاً، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً.

فبينما هو جالس مع صديق له في متجره، وإذا ببنت تلحُّ عليه في شراء حاجةٍ لها، فنظر إليها عبد ربه، فاستحْيَت وانخنست ولم تعد تتكلم، فلمَّا انصرفت قال لصديقه: لمن هذه البنت؟ إنها غريبة في أمرها! فعرَّفه بها، فقال له: إذا قدَّر الله لي التزوُّج فهذه زوجتي، فكان الأمر كذلك.

تزوَّجها وكانت لم تحتلم بعد، وبارك الله له فيها، فقضت معه حياته كلها منذ ذلك الحين إلى وقته الحالي عام ١٤٢٣ هجرية قرابة نصف قرن من الزمان، كانت ولا تزال نعمت الرفيق ونعمت المعين، حفظها الله تعالى.

تزوَّج بها ويده فارغة: لا مال ولا فراش ولا أثاث ولا سَكَن... وكان يسكن يومها في غرفة من الصفيح بأجرةٍ في سكن جماعيٍّ مُختلط، فلما بنى بها قال: لا يمكن لي أن أسكن هاهنا متزوّجاً مع وضعية الناس الحالية التي يعمُّها الاختلاط والفوضى الأخلاقية... فارتحل في الأسبوع الأول إلى منزل آخر اكتراه، ثم إلى ثان فلم يرضه، ثم سكن مع أخته، فأقام عندها خمس سنوات،

جزاها الله تعالى خيراً وأحسن مثوبتها، ومرَّت عليه أيام شدادٌ، قاسى فيها من الفقر والقلَّة والحاجة ما اللهُ عليمٌ به.

وكان في بداية زواجه يعمل خياطاً، كان يتقاضى درهمين في مقابل كل جلابية يخيطها، مكث على ذلك مدة حتى كفاه الله ما أهمَّه عند انقطاعه للتدريس مع الطلبة وقنع بالكفاف.

وعندما تزوَّج قال له شيخه الحافظ السيد أحمد بن الصديق رحمه الله تعالى: إيَّاك أن تنشغل بالزوجة عن مسيرتك العلميَّة، وذكَّره بقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ويحكى أيضاً عن بشر الحافي رحمه الله: ضاع العلم بين أفخاذ النساء... فامتثل وصيته في ذلك.

□ طبع (مطابقة الاختراعات العصرية) ورؤيا كليم الله موسى عليه السلام:

كان الحافظ سيدي أحمد بن الصدِّيق رحمة الله عليه في هذه الفترة قد طبع بالقاهرة كتابه: «مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية»، فبعث إلى عبد ربِّه بخمس نسخ منه، وكتب إليه بذلك، وعيَّن له أصحابها، كان من جملتهم الأستاذ عبد الله كنُّون رحمه الله تعالى، فلمَّا وصلت النسخ، وكان عنوان المراسلة عند صديق له، فرآها بعض إخوة الشيخ، نهى هذا الأخير صاحب العنوان عن دفعها لعبد ربه، فكتب إليه أخوه الأكبر يؤكِّد عليه بدفعها له ففعل، وإنما فعل ذلك الأخ ما ذكر خوفاً من أن تشمله إذاية الحزبيين الذين تكلَّم عنهم الشيخ في الكتاب، وسبَّهم وَوَسَمهم بالخيانة والفساد.

وفي هذه الأثناء رأى عبد ربِّه رؤيا عجيبة، كان فيها سيدنا موسى كليم الله عليه الصلاة والسلام في صورة الشيخ سيدي أحمد رحمه الله، وسمع منادياً يقول: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ فألقى عصا كانت بيده، فانقلبت حية، وأقبلت نحو عبد ربِّه، فخاف منها فقال له: لا تخف منها فإنها لا تضرّك.

فكتب عبد ربه إليه يخبره بهذه الرؤيا، فأجابه بأنَّ الرؤيا تتعلَّق بإرسال

الكتاب فهي العصا، وقال: إن الكتاب وما فيه سيقضي على سحر الحزبيين، الذين سَحَروا الناس بمعسول كلامهم، وأضلُّوهم عن دينهم، فكان الأمر كما قال والحمد لله، فلم نصب بأيٍّ ضرر من طرفهم، وانتشر الكتاب، وقرأه الناس، وأُعجبوا به، وانكشف أمر الأحزاب، واتَّضح للناس ضلالهم، والحمد لله أولاً وآخراً.

◘ التفاف جماعة من الشباب حوله:

وفي هذه الفترة التفَّ حوله جماعة من الشباب، وكانوا نِعْمَ المعين والمؤيِّد له ولدعوته، ونِعْمَ المساعد، وقبلوا دعوته التي كانت صعبة على النفوس، والتي لا يرضاها إلا من سبقت له من الله العناية، لأن دعوته كانت ولا تزال مؤسَّسة على العمل بالكتاب والسنة، وأخذ الشريعة من معدنها الصافي، ونَبْذ ما خالفها من الآراء التي لا يشهد لها دليل صحيح أيًّا كان مع الحض على ما كان عليه السلف عقيدةً وعملاً وحالاً وسلوكاً... والتحذير من الفرق الضَّالة الخارجة عن أهل السنة والجماعة.

ومن دعوته: الأمر بالزهد في المناصب والرياسات التي يتهافت عليها الناس، والابتعاد عَمَّا فضل عن الحاجة من الدنيا، والحذر من مفاتنها ومغرياتها بجميع ألوانها، مع الاستعداد للآخرة بالتقرُّب إلى الله تعالى بجميع أنواع القُرب والخير والبر حسب المستطاع.

◘ حدوث زلزال هائل بمدينة أكادير:

في عام تسعة وسبعين وثلاثمئة وألف الموافق سنة تسع وخمسين وتسعمئة وألف ميلادية، وقع زلزال هائل عظيم بمدينة أكادير ما سُمع بمثله في المغرب، ذهب ضحيته الألوف من الأهالي، فكانت الدار المكوَّنة من خمس طبقات تغيب في تخوم الأرض، فلا يبقى منها إلا سطحها على وجه الأرض، فكانت كارثة خطيرة وعبرة لمن يعتبر.

وما حصل ذلك إلا لما كان يوجد فيها من كثرة أنواع الفساد: كشرب

الخمر، والرقص، واللواط، والزنى، والقمار، والاختلاط المقيت، والعري الفاضح... وما إلى ذلك من الفواحش التي عمَّت المغرب، بل العالم الإسلامي كله. وكانت تلك المدينة مقصودة من السيَّاح الأجانب لما كانوا يجدونه فيها من متعهم الشهوانية البهيمية، فأغرقها الله في الأرض، وأباد خضراءها، ومَنْ كان بها، وبقي العمل لإخراج الموتى شهوراً، ثم الغريب أنه لما أعيد ترميمها وبناؤها، سرعان ما رجع الناس إلى ما كانوا عليه من ذي قبل، ولم يعتبروا بما حصل ولا انزجروا ممَّا حدث.

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

▢ ختم تفسير الجلالين مع الطلبة:

وفي آخر هذه السنة خَتَم «تفسير الجلالين» لأول مرة مع الطلبة بمسجد مرشان، وكانت قراءته في ظرف نحو سنتين، وفيها توفي الملك محمد الخامس، وجاء نعيه ونحن نفسر قوله تعالى من سورة القيامة: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

▢ محاولة اغتياله:

في عام تسعة وسبعين وثلاثمئة وألف هجرية كتب رسالته «الصارم المبيد» ردَّ فيها على بعض علماء المدينة ردًّا علمياً، فثار أصحاب ذلك العالم، وبدل أن يقابل المُنْتَقَدَ عليه رداً مماثلاً نزيهاً ثار بدوره، وحرَّض أتباعه عليه، فحاولوا اغتياله مراراً فحفظه الله تعالى، وردَّ كيدهم في نحورهم، ثم لمَّا لم ينجحوا في الانتقام منه صَدَر منهم أمر بمقاطعته ومقاطعة كلٍّ من يتَّصل به من قريب أو بعيد، ثم قام بعض الأنذال منهم فكتب رسالة ملأها سباباً وشتائم وقذفاً ورمياً بالعظائم بحيث عدَّ ما فيها من المطاعن والقذائف فوجد فيها نحو من أربعين طعناً كلها زورٌ وبهتان. فمرَّت عليه في تلك الفترة شدائد وفتن لم تخمد نيرانها إلا بعد حين.

أما المقاطعة والمدابرة فاستمرت من تلك الجماعة إلى اليوم رغم أن رئيسهم توفي منذ زمان.

□ الإشاعة عليه بأنه مسيحيٌّ:

وعقب هذه الأحداث أشاع عليه بعض المُفْترين أنه يتقاضى راتباً شهرياً من طرف مستشفى الإنكليز الذي كان أيام الاستعمار وأوائل الاستقلال مقراً للدعوة المسيحية، وانتشرت هذه الفِرْية حتى أصبح كثير من الناس يلمزونه بها حتى إنَّ بعضهم في ذلك الحين وسمه بها في كتاب له، بل لا زال بعض الناس هنا وهناك يطعنون فيه بذلك لحد الساعة.

فليعدُّوا لذلك جواباً أمام المحكمة الإلهية العادلة!!!

□ وصول نعي الحافظ أبي الفيض إلى طنجة:

وفي مساء ثاني يوم من جمادى الآخرة عام ثمانين وثلاثمائة وألف، جاء نعي موت الحافظ السيد أحمد بن الصديق رحمه الله تعالى، فاجتمع من الغد بزاوية والده حشود وجموع غفيرة من أتباعه ومحبيه وأهالي المدينة، فذهبوا في موكب عظيم رهيب إلى الجامع الأعظم، فصُلِّيت عليه صلاة الغائب بإمامة شقيقه الشيخ محمد الزمزمي، وكَثُر البكاء تأثُّراً بفقدانه، ثم عقد له تأبين حضره أقوام لا يُحْصَون كثرة، وقيلت فيه قصائد وكلمات مؤثِّرة تتعلق بشخصيته وحياته العطرة التي قضاها في خدمة السنة المشرفة، والدعوة إلى العمل بها، ومحاربة الكفار والعلمانيين والمتفرنجين... رحمه الله تعالى رحمةً واسعة شاملة.

□ تأسيس معهد لتحفيظ القرآن وتدريس العلوم:

بعد أن ضُويق عليه وطُرد من عدَّة مساجد، ومُنع من إلقاء الدروس بها كما مُنع غيره فيما بعد إلا بإذن خاص، صار يدرس في منزله، ويصلِّي الجمعة في بعض دور أصحابه، لأنه كان يرى عدم صحة إمامة أئمة المساجد العامة الذين يتقاضون مرتباتهم من الأوقاف.

ثم بدا له أن ينشئ مؤسسة تشتمل على مدرسة علمية لتحفيظ القرآن الكريم، وتدريس العلوم الدينية مع مسجد للصلوات الخمس ولصلاة الجمعة، ثم دار للسكنى، فسعى في ذلك مع جماعة بكلِّ ما في وسعهم، حتى حصلوا على قطعة أرض.

وبما أنَّ الأحوال تتغيَّر والقلوب قد تتبدَّل لم يوافق أن توضع في اسم خاص مفرد، بل وضعت في أسماء خمسة نفر كان هو أحدهم، ثم تكفَّل أحد الخمسة وكان موظفاً بوزارة الصحة بتكلفة البناء، فشرعوا في ذلك، وتطوَّع جماعة من المحبين بالعمل، فتمَّ المشروع في مدة وجيزة، وكان في المبنى دور خاص بالسكن يشتمل على أربعة غرف وحمامَيْن يفصل بين كل غرفتين حاجز، فانتقل للسكن الجديد بدل دار أخته، وأسكن معه لجانبه في الغرفتين أخاً له في الله ليساعده على مهام المؤسسة، فمرت الأمور على أحسن ما يرام، وجعل الطلبة يتوافدون، والدراسة قائمة متوالية بنشاط وهمة عالية.

❐ ما ولد له من الأولاد في هذه المدة:

في الخمس السنوات التي قضاها بدار أخته ولد له أربعة أولاد: محمد، وفاطمة، ومصطفى، وزينب.

توفي منهم الثلاثة الأوائل، أما زينب فَرَحل بها إلى دار المؤسسة وهي رضيعة في عامها الأول، وكان ذلك عام اثنين وثمانين وثلاثمئة وألف.

❀ ❀ ❀

خروجه للبادية للدعوة ومضايقاته من طرف السلطة

شملت دعوته عدة قبائل بدوية من القبائل الجبلية الساحلية، وهي: ودراس، بنو يدير، بنو كرفط. ومن القبائل الشرقية لشمال المغرب كقلعية، وبنو توزين، وبنو ورياغل، وبنو عمارت، وكرمالت، وبنو بشير، وترجست، وصنهاجة... لكنه كان يتردَّد كثيراً إلى صنهاجة، حيث كان له بها إخوان كثيرون. فقامت قيامة الأعداء، فوشوا به إلى السلطات المحلية من عمالة الحسيمة، وأبلغوهم بأن رجلاً مسيحياً يأتي من طنجة ليبدِّل الدين، لأنهم كانوا يعتبرون كل من يلتزم العمل بالسنة في جميع شؤونه مسيحياً، فكانت السلطات لذلك تستدعيه من وقت لآخر، ويعقدون معه مجالس للتحقيق، ويوجهون إليه عدة أسئلة، ثم في النهاية بعد سنوات منعوه من المجيء نهائياً.

ثم صارت السلطات بمدينة ترجست والحسيمة يؤذون من كان هناك من أهل السنة، فسجنوا جماعة منهم وضربوهم، وحلقوا لهم لحاهم... وكتب بعض شياطينهم عنهم بأنهم مسيحيون وبهائيون.

فانسحب عبد ربِّه من العمل في البادية، ولم يعد يخرج إليها إلا في زيارات عابرة.

❐ استدعاؤه لمخفر الشرطة بتطوان:

كان في الستينيات قد طبع عدة رسائل بالمطبعة المهدية بتطوان، فبلغ الشرطة بأن المطبعة، المهدية تطبع كتب البهائية، فاستدعي مدير المطبعة، وكلموه في ذلك، فأنكر أن يكون هناك كتاب طبع عنده للبهائية وقال: أطبع لفلان من طنجة رسائل ليس فيها شيء مما تقولون، فأمره الضابط بإحضار عبد ربه للمخفر إذا قدم لتطوان.

وفعلاً لما زار تطوان واتَّصل بمدير المطبعة أخبره بما جرى فذهبا للمخفر سوياً، وصحب معه بعض تلك الرسائل التي قيل عنها ما قيل، فاتصلا بالضابط، فجعل يسأله عن الكتب المطبوعة، وما محتواها، فأعطاه تلك الرسائل وقال له: انظرها، فجعل يتصفحها فلم ير فيها شيئاً مما قيل عنها، ثم بيَّن له دعوته وما يهدف إليه من الإصلاح والنهي عن الفساد، وأنه من الواجب علينا جميعاً أن نتعاون في ذلك، وقال له: إن البهائية عندنا كفار يجب إعدامهم شرعاً، وإننا نحارب ونعادي من هم أقل من البهائية بكثير ممن ينتمون إلى الإسلام، فكيف تتَّهموننا بالبهائية.

فشكره الضابط واسْتَسْمَحَه، ثم انصرف ولم يصب بما يسوءه، والحمد لله.

وكان السبب في هذا هو ما كتبه بعض الشياطين من عمالة الحسيمة في صحيفة، وذكر في مقاله بأن البهائية منتشرة بالريف، وأن بعض رموزها بطنجة، ويطبعون كتبهم بالمطبعة المهدية بتطوان... فلما وصل ذلك للسلطات عاتبت وزارة الداخلية رجال شرطة تطوان، فكان ما رأيت...

ومراد الوزارة بذلك معروف، ولم يكن القصد من ذلك الغيرة على الدين ولا حمايته، بل الأمر يرجع في ذلك إلى سياسة الدولة ومصالحها. وإلا ففي صفوف الشعب الكثير والكثير من اللادينيين والشيوعيين وهم شر من البهائية، بل فيهم من يحتلون مناصب عالية في الدولة...

□ إلقاؤه درساً بالجامع الكبير بتطوان وما نشأ عنه:

استدعي عبد ربه مرة لإلقاء درس بالجامع الأعظم بتطوان، فذهب، وافتتح الدرس، وأملى من حفظه نحو عشرة أحاديث في موضوعات مختلفة، ثم جعل يشرحها حديثاً حديثاً، فتطرَّق في كلامه إلى بعض ما يتعلق بالدولة، وأفاض في ذلك، فوشي به في الحال إلى قسم المخابرات، وكان ذلك في الستينيات حيث كان لا يستطيع أحد انتقاد أي شيء صدر من طرف الدولة كيفما كان نوعه...

□ وشاية بعضهم به لمخفر الشرطة بطنجة:

كان له أخ في الله، حبيب إليه من أهل البيت، فوقع بينهما سوء تفاهم في أمر بسيط جداً، بل تافه، فوجد ذلك الأخ عليه واغتاظ، فذهب إلى مخفر الشرطة واشياً بأخيه البريء، فأبلغ الضابط: بأن فلاناً يقول كيت وكيت... فاستدعاه الضابط، فلما مثل بين يديه أغلق باب مكتبه، وحدَّثه بما أبلغه ذلك الواشي، وتلطَّف معه، وأظهر من الأدب والاحترام له ما لم يكن يتوقعه منه، لا سيما والوشاية كان فيها كذباً وزوراً سبُّ السلطان، ويعدُّ ذلك في تلك الأيام أمراً خطيراً يوجب العذاب الشديد والسجن المديد إنْ نجا صاحبه من الإعدام... فحفظه الله من شرِّ ذلك ولطف به، وكان ذلك أحد الدروس له كيلا يثق بكلِّ أحد مهما كان.

□ عقد اجتماع ضده للتحذير منه:

ولما لم تنجح وشاية ذلك الأخ، ورجعت عليه بالخيبة، أراد أن ينتقم منه بحيلة أخرى، ذلك أنه عقد اجتماعاً بمنزله، استدعى له جماعة من إخوان عبد ربه وأصدقائه ومعارفه، فطعن فيه، ورماه بالعظائم، وحذَّرهم منه، فجاءت المفاجأة بتغيُّر وجوه الأصدقاء، فلا سلام ولا كلام، بل مدابرة ومقاطعة...

ومن عجيب الأمر أنه كان رأى قبل ذلك في النوم رؤيا تشير إلى ما وقع، خلاصتها: أنه رأى كأنه نبيُّ الله سيدنا يوسف ﷺ وإخوته محدقون به ويريدون قتله وهو يستعطفهم ويقول لهم: لماذا تريدون قتلي وأنا أخوكم...؟! وستأتي مفصَّلة في المبشِّرات.

فصدَّق الله تعالى تلك الرؤيا من الإخوان سامحهم الله جميعاً وغفر لنا ولهم.

وكان هذا أيضاً درساً آخر مضافاً إلى ما سبق، عرف منه وتيقَّن أن لا ثقة بأحد، وأنه يجب الحذر من كل المعارف وخاصَّة المقرَّبين.

❀ ❀ ❀

وفاة والده وأداؤه المتكرر للحج
إلى بيت الله الحرام وعمراته العديدة

إن الدنيا دار بلاء وفتن وهموم وأكدار، فلا تكاد تستريح من محنة حتى تواجهك محنة وبلية قد تكون أشد وأدهى من الأولى. . . وهكذا مرت وتمر حياتنا. . . فما كاد عبد ربِّه أن يتنفس الصُّعَداء مما دهمه من بلاء الإخوان حتى فُوجئ بفاجعة وفاة والده رحمه الله تعالى.

ففي رمضان من عام ثلاثة وثمانين وثلاثمئة وألف، جاءه نعي وفاة والده من البادية، وقد كان هاجر إليها وسكن مع زوجته الأخيرة، وسكن بقريتها، فجاءه أجله المحتوم هنالك من غير أن يتقدَّم له مرض يذكر، وسنه يناهز الثمانين، رحمه الله تعالى وإيانا رحمة واسعة.

وفي العام نفسه نفَّس الله تعالى عليه، وهيّأ له تعالى حجَّ بيت الله الحرام للمرة الأولى، وكان قد مكث في اشتياق لتلك البقاع سنين طوالاً، وعمل للذهاب إليها عدة محاولات كانت ترجع عليه بالفشل، حتى رأى مرة رؤيا تبشِّره بالفرج: رأى كأنه داخلٌ إلى المدينة المنورة، ومعه جماعة من الإخوان، فخرجت مولاتنا عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها للقائهم ترتدي درعاً طويلاً وخماراً قد سترت به رأسها وعنقها مع سفور وجهها، فقالت لهم: مرحباً. . . فعلم من هذه الرؤيا أن وقت الحج قد حان، فلم تمض على هذه الرؤيا إلا مدة قليلة، ففتح الله تعالى عليه باب كرمه، وهيَّأ له الحج على متن الباخرة من طنجة إلى جدة، وصحبه ثلاثة من أصحابه، ثم توالت حجاته وعُمَره، فالحمد لله على فضله وإحسانه وإنعامه.

وفي هذه الحجة التقى على متن الباخرة بالعلامتين السيد محمد أشماعو السلاوي، والسيد عبد السلام بن سودة الفهري الفاسي صاحب «دليل مؤرخ

المغرب»، فقطعوا المسافة ذهاباً وإياباً كلها في مجالس علمية، ومذاكرات في مختلف الشؤون والموضوعات، وأسندوا إليه إلقاء الدروس للحجاج في بيان مناسك الحج، فأجاب فكانت رحلة مباركة.

وللأسف لم يدوِّن وقتها ما وقع له في هذه الرحلة بتفصيل، وما لقيه فيها وشاهده، وإنما الذي يتذكره هو أنه لما أرادوا النزول في جدة سمعوا في المكرفون: لا يسمح للمرأة أن تدخل المملكة إلا بارتداء الحجاب، فتأثّروا بذلك كثيراً، وحَمَدوا الله على ذلك، لكن هذا مع الأسف أصبح في خبر كان.

ولا تسأل عن فرحتهم عندما شاهدوا الحرمَين الشريفين والآثار النبوية، فكان مع رفاقه طوال إقامتهم بالحرمين لا يخرجون من المسجدين الشريفين إلا عند تناول الطعام أو عند النوم.

ودخل المسجد النبوي الشريف، وزار القبر المقدَّس والروضة الشريفة، فكان يتمثَّل له كأنه يعيش أيام النبوة أو يعيش في عالم آخر غير عالمنا الحالي، لأنه رأى هنالك من مظاهر الإسلام وآثار الخير والأمن والاستقرار ما لم يعهده في بلاده المفتونة. . .

وتتَّبعوا الآثار النبويَّة بالحرمين الشريفين والمقدَّسات التي اعتاد الحجاج زيارتها، كالبقيع وشهداء أحد ومسجد قباء ومقبرة المعلاة وغار حراء وغير ذلك. . . وكانت مكة والمدينة لا زالتا لم تدخلهما حضارة العصر: لا بنايات منظَّمة، ولا طرقاً معبَّدة، ولا مصابيح في الشوارع ولا كهرباء عامة ولا مياه. . . وما انقلبت الأوضاع وبدأ التنظيم إلا أيام الملك فيصل رحمه الله.

نعم بداية التوسعة الأولى للحرمين كانت أيام الملك عبد العزيز وابنه سعود رحمهما الله.

□ حجته الثانية:

وفي عام أربعة وثمانين وثلاثمئة وألف، حجَّ عن طريق أوربة في رفقة إخوة له، خرجوا من طنجة على متن الباخرة إلى الجزيرة الخضراء، ومنها

ركبوا القطار مروراً بمدريد، فبرشلونة، فمرسيلية بفرنسة، فإيطالية، فيوغسلافية، فبلغارية، فاليونان، فتركية، ثم سورية.

وشاهدوا في هذه الرحلة عجائب الغرائب في ذهابهم وإيابهم، وانبهروا بما رأوا عند الأوروبيين من الحضارة والتقدُّم في الصناعات، وما لهم من حُسن تنظيم في شؤون الحياة.

ولما وصلوا إلى دمشق استأجروا حافلة تركية، وزاروا القدس الشريف، والخليل، وضريح كليم الله سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام.

ووقعت لهم نكبات في الصحراء، حيث إنَّ الطريق لم تكن عُبِّدت بعد، فكانت الحافلة تغيب في الرمال، فكان الركاب يعانون متاعب في ذلك، ومكثوا مرة تائهين في الرمال أربعاً وعشرين ساعة، وما أفرج عنهم حتى دخلوا تبوك التي كانت الطريق رابطة بينها وبين المدينة. وكانوا من أول من قطع تلك الرمال الصَّحراوية في السيارة.

تعرُّفه على العلامة المحدِّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى:

ولما حجُّوا ورجعوا، وكانوا بمدينة حلب، مكثوا ينتظرون القطار الذي كان يأتي من مدينة إسطنبول مرتين في الأسبوع، فجاء يوم الجمعة وهم بحلب، فصلوها بمسجد، وإذا بالخطيب العلَّامة المحدِّث عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان لا يزال شاباً أسود اللحية طويلها، وكان موضوع الخطبة التحذير من التشبُّه بالكفار. فلمَّا فَرَغوا من الصلاة قاموا فسلَّموا عليه، وانصرفوا ولم يَدْروا مَنْ هو.

وفي المساء بينما هم بمحطة القطار بين العشاءين إذا بالخطيب نفسه مُقْبل نحوهم، فسلَّم وتعرَّف عليهم، وعرَّفهم بنفسه، ثم عزم عليهم بالذهاب معه لمنزله، أمَّا الإخوة فاعتذروا له بتعبهم، وأما عبدُ ربِّه، وكان جَلْداً قوياً، ذهب معه، فأكرم ضيافته، وتذاكرا في موضوعات شتَّى، وكان الشيخ عبد الفتاح وقته بصدد تحقيق كتاب «التصريح في نزول المسيح» للإمام محمد أنور الكشميري، فاسْتَشْكَلت عليه جملة في حديث لم يهتد إلى معناها، وهي ما جاء في حديث

نزول سيِّدنا عيسى عليه الصلاة والسلام المخرَّج في المسند: «**فتُجْمَع له الصلاة**». فسأل عبدَ ربِّه فقال له: إن ذلك يشير إلى أنَّ كلَّ صلواتِ أهل الملل سيبطلها، ولا تبقى إلا صلاة هذه الأمة التي سيكون هو على دينها، فقال: نعم هو ذا.

ثمَّ أرجعه من ليلته إلى المحطة وودَّعه وانصرف. فكان هذا أول تعارف بينهما، فكانا بعد ذلك يجتمعان بمكة المكرمة أو بالمدينة المنورة كل عام تقريباً إما في الحج أو العمرة.

◻ وفاة والدته وولادة ولده محمد:

ولمَّا رجع من هذه الحجَّة التي استغرقت نحو شهر وعشرين يوماً تقريباً لم تمض إلا أيام قلائل حتى توفيت والدته رحمها الله تعالى بعد أن ألمَّ بها مرض مُعضل منذ مدة، وكانت وفاتها في شهر الله المحرم مفتتح عام خمسة وثمانين وثلاثمئة وألف للهجرة، وفي ربيع الأول منه ولد له ولده محمد أكبر أولاده[(١)] الذكور صاحب كتاب: «تراث المغاربة في الحديث النبوي وعلومه» وهو كتابٌ قيِّم مفيد.

◻ بدايته في تهذيب جامع الترمذي:

منذ أن قرأ جامع الترمذي على شيخه سيدي عبد العزيز الصِّدِّيق رحمه الله تعالى عام ثلاثة وسبعين وثلاثمئة وألف، وهو مُغْرَمٌ به، وفي عام خمسة وثمانين وثلاثمئة وألف كان مصطافاً بالبادية بقبيلة بني يدير قرية الاثنين، فصحب معه بعض أجزاء الكتاب، فافتتح قراءته، وخلال ذلك رأى في إحدى الليالي في المنام كأنه جالس إلى جانب رسول الله ﷺ، فأتي بكوز لبن حليب، فشرب منه ﷺ، ثم ناوله إياه، فشرب بعده سؤره، فكانت هذه الرؤيا بشارة عظيمة له تؤكِّد البشارة الأولى التي رآها بالمسجد الأعظم بطنجة عامه الأول أو الثاني للطلب، وأنه سيأخذ الشريعة من معدنها الأصلي مباشرة.

---

(١) حفظ القرآن، وقرأ على والده العلوم العربية والفقه والأصول والتفسير والحديث، وقرأ على العلامة المحدِّث السيد عبد الله بن الصِّدِّيق، وتزوَّج وأنجب. (المؤلف).

ولمَّا رجع إلى منزله ظهر له أن يشتغل بهذا الجامع العظيم، وقرر في نفسه أن يهذِّبه، وخاصَّة أنه كان قد رأى في مؤلفات شيخه السيد أحمد أنه شرع في تهذيبه ولم يتمه، فجعل يشتغل به، وتمَّ في ظرف عشر سنوات. وكانت كتابته غير متوالية، فكان يبقى أحياناً شهوراً لا يكتب فيه شيئاً... وسيأتي الكلام على منهجه فيه في ذكر مؤلفاته إن شاء الله تعالى.

◘ حجته الثالثة وزيارته القاهرة للمرَّة الأولى:

وفي هذه السنة ١٣٨٥ هجرية حجَّ على مَتْن الطائرة مروراً بفرنسة، فالقاهرة، فجُدَّة، ورجع على متن الباخرة من جدة إلى طنجة، وفي هذه الرحلة زار القاهرة وقبور مَنْ بها من أهل البيت، كالسيد الحسين، والسيدة زينب عليها السلام، وغيرهما، وكذا زار قبور الإمام الشافعي، والإمام الليث، والعارفين السيد الدردير، والسيد على الخوَّاص، والسيد عبد الوهاب الشعراني وغيرهم، كما زار قبر شيخه السيد أحمد وغيرهم رضي الله تعالى عن جميعهم.

وزار الأزهر الشريف، وتعرَّف على بعض علمائه، ثم تجوَّل في كثير من أحياء القاهرة، وذهب للجيزة، ورأى الأهرام وغير ذلك، وانبهر مما رأى في القاهرة من كثافة السكان وتكدُّس أعداد كثيرة في المنطقة الواحدة.

◘ رحلته إلى الكويت وزيارته القدس للمرة الثانية:

كان قد تعرَّف على بعض الإخوة الكويتيين بالحرمين الشريفين، فاستدعاه للكويت، فشدَّ الرحلة إليه عام ستة وثمانين وثلاثمئة وألف عن طريق أوروبة مروراً بدمشق، وبها التقى للمرة الأولى بالشيخ محمد ناصر الدين الألباني، زاره بمكتبه، وجلس معه ساعة، سقاه فيها كأساً من ماء، وسأله: هل يوجد في القرآن آية تشير إلى رسالة يحيى بن زكريا عليه السلام؟ فأجابه: لا أعلم ذلك في آية خاصَّة، وإنما ذكر في جملة المرسلين على العموم. ثمَّ ودَّعه وانصرف.

ثم ركب إلى عَمَّان، فبغداد، فالكويت. والجدير بالذكر هنا أنه ركب حافلة من عمان عبر الصحراء الواقعة بينه وبين بغداد، وهي ألف كيلو، فكان

عدد الركاب أكثر من ستين راكباً، وكان لا يصلّي منهم أحد إلا عبدَ ربّه، ورجلاً شيعياً من بغداد، وكلُّ الركاب عرب ينتمون إلى الإسلام، كان فيهم أردنيون وعراقيون وكويتيون. هذا شأن مسلمي عصرنا الذين يحاربون اليهود، ويريدون الانتصار عليهم، وقد تخلَّوا عن دينهم، وليست لهم قوة مادية يجابهون بها عدوهم الذي تفوَّق عليهم في التكنولوجية والآلات الحربية المدمِّرة بجميع أنواعها.

فكانوا إذا وقفت الحافلة في محطة ما يهرع الجميع إلى مقهى أو مطعم، ولم يكن يخطر ببالهم أداء ما أوجبه الله تعالى عليهم من صلاة مكتوبة.

ولما وصل إلى الكويت بقي ضيفاً على أخ له هناك عشرة أيام، أضافه خلالها وزير الدولة وقتذاك، وطلب منه أن يلقي عليهم درساً، ففسَّر لهم حديث سيدنا جبريل عليه السلام. ولما كان داخلاً منزل الوزير التفت التفاتة ليرى رياضاً حوله عدَّة فتيات مُطْلقات شعورهنَّ، كأنهنَّ مكشوفات، فعلم أنه لا خير في رجال السلطة إطلاقاً. وكان هذا الوزير يعتبر من خيرتهم عندهم، ثمَّ تاب إلى الله من الذهاب إليه وإلى غيره من ذوي السلطة كما سيأتي.

وفي هذه الرحلة ذهب لزيارة القدس الشريف والخليل للمرة الثانية، ولما كان داخل حرم المسجد الأقصى شاهد هنالك خموراً تُباع، ورأى أثر الفساد واضحة به، فقال في نفسه: إن هؤلاء القوم سوف يتمُّ استعمارهم من طرف اليهود.

فلما كانت السنة المقبلة وهي عام سبعة وثمانين وثلاث مئة وألف هجرية، سنة سبع وستين وتسع مئة وألف بتاريخ النصارى حصلت تلك الكارثة للأردن وسورية ومصر، واحتل اليهود ما أرادوا من صحراء سيناء والجولان والقدس والخليل، وما والاها من المناطق، وقَنْبلوا حتى مطار القاهرة الحربي.

❑ بناؤه منزله الأول بآخر شارع الحسن الثاني بمرشان:

وفي عام ستة وثمانين وثلاثمئة وألف بنى داره بحومة السوسي بمرشان،

ولم يكن يخطر بباله أنه يبني لنفسه منزلاً يملكه، ولا كان يهتم لذلك أصلاً... وارتحل إلى داره بعد أن عانى من معاشرة الجيران والسكن الجماعي أنواعاً من الإذايات، حتى إنهم آذوا زوجته وبالغوا وسرقوا له ملابسه من سطح الدار، ولما غادر دار المؤسسة إلى داره، استراح وحمد الله تعالى على سكناه وحده حراً.

وفي هذه السنة زار الجزائر وتونس وليبية والقاهرة للمرة الثانية وبيروت في سياحة طويلة، ولما كان ببيروت رأى في النوم كأنه يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية. وكان ذلك على إثر هموم وأكدار.

◻ إرادته الهجرة وحجته الرابعة:

وفي عام سبعة وثمانين وثلاثمائة وألف، وقد اشتدَّ عليه الحال من كل جهة، ورأى في البلاد ما لم يكن يتصوَّر وقوعه، قرر أن يهجر المغرب فراراً بدينه ودين أهله وأولاده، وقد قال في هذا الشأن في كتابه «نصب الموائد» ما نصُّه:

«﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

لقد عشنا تحت الاستعمار ثلاثين سنة كاملة بشمال المغرب من الطفولة إلى وسط الشباب، وشاهدنا أيامه، وذقنا من المحن، ورأينا من المنكرات والويلات ما هو معروف في كل الأقطار التي استعمرت من طرف العدو الكافر، وعندما استقلَّت بلادنا وذلك عام ١٣٧٦ هجرية، وانتقل العدو بجيوشه وحكامه، كنا نتوقع ونأمل أن تنقلب الأوضاع من تلك المخازي التي عشناها مع الاستعمار إلى مجتمع إسلامي طاهر نظيف يحكمه المسلمون، ويطبق فيه شرع الله العزيز، كما كان يعدنا به الزعماء الثرثارون المتفرنجون، لكن خابت ظنوننا، وطبق علينا ما لم نكن نعهده أيام الاستعمار حتى ضاقت بنا الأرض بما رحبت، وفكرنا في المخرج ومفارقة هذه البلاد الظالم أهلها، فلم نجد ملجأ نلتجئ إليه ولا بلداً إسلامياً نظيفاً نقيم فيه، ولم نر أمامنا إلا بلادنا

المقدَّسة ـ مكة والمدينة ـ التي هي وطن كل مسلم التي تكفَّل الله ﷻ بحفظها من قذر الاستعمار الكافر، ولما شاهدنا فيها من الخير، وظهور الدين ونظافتها في الجملة من المظاهر القذرة البغيضة التي نشاهدها ونعايشها في بلادنا.

ولما كان عام ١٣٨٧ للهجرة وقد مرَّ على الاستقلال قرابة اثنى عشر عاماً، عزمت على الهجرة إليها بزوجتي وطفْلَيَّ الصغيرين آنذاك، فشرعت في بيع مكتبتي والاستعداد للسفر، واخترت أن تكون الإقامة بالمدينة المنورة مجاورةً لحبيب الله ﷺ، فسافرت أيام موسم الحج لأبحث عن اللوازم المطلوبة لدى الحكومة السعودية لمن يرغب في الإقامة هناك.

ولما زرت المدينة علمت بأن بها رجلاً صالحاً جزائرياً مهاجراً بها من زمان، فزرته في بيته، واستشرته في الموضوع، وأتذكَّر أنه لم يوافق.

وفي الغد رجعت إليه، فأخبرني بأنه رأى رسول الله ﷺ الليلة في المنام، وأمره أن يبلِّغني بأنه لا إذن لي في الهجرة، وأن الواجب عليَّ أن ألزم بلادي لينتفع بي الناس، ولي الإذن في الزيارة كل سنة.

فلمَّا قصَّ عليَّ الرؤيا، وقعت في حيرة، وبقيت متشكِّكاً في الأمر، لكن الواقع فيما بعد صدَّق الرؤيا، وعلمت أن الشيخ الجزائري رحمه الله تعالى كان صادقاً، وأن الأمر كما قال، فإنَّ الهجرة أولاً لم تتيسَّر لي، وحصلت لي برودة مما كنت مُصَمِّماً عليه، وثانياً حصل بي نفع شامل لأقوام وأجيال من المؤمنين لا يُحصَوْن كثرة، وبالأخص طلبة العلوم الدينية، فقد ختمت معهم تفسير القرآن الكريم بالجلالين، وابن كثير، وصفوة التفاسير، والخازن أربع مرات، ونحن الآن في الخامسة، وقد أشرفنا على ختمها، وقرأت معهم البخاري ومسلماً أكثر من خمس مرات، والترمذي، وأبا داود مرة، وعمدة الأحكام، وبلوغ المرام مرات، ونيل الأوطار مرتين، ونحن الآن في الثالثة، وختمت معهم ألفية الحديث للعراقي أربع مرات، ونحن الآن في الخامسة في باب الجرح والتعديل، وقد ختمناها والحمد لله، ونخبة الفكر، والباعث الحثيث مرات، وألفية ابن مالك، ومقدمة ابن آجروم مرات، والورقات، ومفتاح الوصول،

وأصول الفقه لخلاف ولابن شِعبان مرات، والمرشد المعين، ورسالة ابن أبي زيد، ونور اليقين، وفقه السيرة للبوطي مرات، وغير ذلك. . .

وهذا بالإضافة إلى خطبة الجمعة كل أسبوع، والنصائح، والإرشادات العامة والخاصَّة مع الأجوبة عن الأسئلة التي تأتينا دائماً.

بذلك كله عرفت أن ما قاله ذلك الشيخ صحيح لم يبق لي فيه شك، فإن بلادنا كباقي البلاد الإسلامية المنحرفة، تحتاج إلى دعاة ومرشدين ومصلحين، أما البلاد المقدَّسة فلا تحتاج إلينا، فإنها مليئة بأهل العلم والدين. . .

وثالثاً: قد هيَّأ الله تعالى لي زيارة الحرمين الشريفين كل سنة، إما في حج أو في عمرة، من ذلك الحين عام ١٣٨٧ هجرية ١٩٦٨ بتاريخ النصارى إلى وقتنا هذا سنة ١٤١٣، بل إلى وقتنا هذا ١٤٢٣ هجرية، فكان كما قال الشيخ عن الرؤيا، وزاد هذا تأكيداً أنّي رأيت مرة كأن رجلاً صالحاً يقول لي: إنك بنور رسول الله ﷺ تحجُّ كلَّ سنة، وتفعل كذا وكذا لأشياء حسنة لم أتذكرها. نسأل الله تعالى أن يديم علينا نعمته، ويزيدنا من فضله، وأن يتجاوز عمَّا جَنَيْناه، ويسامحنا في تقصيرنا إنَّه جواد كريم» اهـ.

وفي هذا العام ١٣٨٧ ولد له ولدٌ أسماه عبد العلي، وهو الذكر الثاني، قد حفظ القرآن، وقرأ ما تيسَّر له من علوم الدين، وتزوَّج وأنجب أولاداً.

□ حجته الخامسة وبدايته في الاتِّجار في الأرض والبناء:

وفي عام ثمانية وثمانين وثلاثمئة وألف للهجرة باع داره الأولى، وبنى وسكن داراً ثانية بحومة المطافي، ووفر من بيع الدار ما حجَّ به عن طريق أوروبة أيضاً بالقطار إلى سورية، ثم من دمشق أقلتنا الطائرة إلى جُدة، وكان الرجوع فيها إلى دمشق، ثم من بيروت في الباخرة إلى برشلونة، ثم منها بالقطار إلى الجزيرة الخضراء، فطنجة.

وفي هذه السنة بدأ يتَّجر في الأراضي والبناء، فكان يشتري قطعة أرض، فيبني بها داراً فيسكنها مدة، ثم يبيعها ويشتري أخرى، وهكذا، وكلما باع وفَّر

ما يحج به، وينفق على عياله، وما بقي صرفه في الأرض والبناء. دام على ذلك مدة تنقل من خلالها في عدة أحياء، فسكن المطافي، ثم مستر خوشا، ثم السواني، ثم ابن بطوطة، ثم رجع لمرشان حيث مقرُّه الحالي.

□ حجته السادسة واجتماعه بالألباني للمرة الثانية:

وفي عام تسعين وثلاثمائة وألف حجَّ في رفقة من الإخوان يتجاوزون العشرة، خرجوا من طنجة عبر الجزيرة الخضراء، فمدريد، فبرشلونة، ثم ركبوا باخرة يونانية أقلَّتهم إلى اسطنبول.

وفي هذه الرحلة طغى عليهم البحر وهاج هيجاناً لم يشاهدوا مثله، وبلغت الأرواح الحلاقم، وشاهد الركاب الموت، وكَثُر البكاء، وأيسوا من الحياة، ثم لطف الله تعالى بهم، فأفرج عنهم، فرست بهم الباخرة باصطنبول، ثم ركبوا إلى بيروت، ثم منها استأجروا حافلة خاصَّة تقلهم إلى الحرمين، وشرطوا المرور على العراق، فخرجوا، ودخلوا بغداد، وزاروا قبور الشيخ عبد القادر، وموسى الكاظم، وأبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم خرجوا إلى كربلاء، فزاروا الحسين رضي الله عنه، ثم الكوفة فزاروا الإمام علياً رضي الله عنه، ثم اتَّجهوا للكويت، فأقاموا بها يومين، ثم دخلوا الرياض، فباتوا بها ليلة، ثم نزلوا إلى المدينة المنورة، وقد تعبوا تعباً شديداً في قطع هذه المسافات التي تناهز أكثر من ثلاثة آلاف كيلو.

ولذلك لما رجعوا غيَّروا طريقهم، فمرُّوا على تبوك، فعمان، فدمشق... وبما أن تلك الباخرة التي أقلَّتهم من برشلونة كانت لا تأتي بيروتاً إلا مرة في الشهر، مكثوا ينتظرون قدومها أكثر من عشرة أيام قضوها بدمشق.

وبينما عبد ربِّه مع بعض الإخوة يتجوَّلون بالمدينة، وإذا بشخص يُسلِّم عليهم، ويتعرَّف عليهم ويعرِّفهم بنفسه، وبأنه من تلامذة الألباني يدعى محمود مهدي الإستنبولي، فاستدعاهم لمنزله ليتناولوا عنده من الغد طعام الفطور، فأجابوه، وعمل معهم موعداً، فجاءهم، فركبوا حافلة عمومية، حتى نزلوا قرب المنزل، فلما دخلوا واستقرَّ المجلس، إذا بالشيخ ناصر الدين يدخل مُسَلِّماً

ومصافحاً الجميع، ثمَّ جلس فرحَّب بالجماعة، ثم خاطب عبدَ ربِّه، وكان جالساً قبالته: كيف عقيدة هؤلاء الإخوان؟

فأجابه بأن هؤلاء كلهم عوام، وليسوا من أهل العلم، ثم جعل يتكلَّم في التوسُّل ونفي مشروعيته بالذوات كما ذكره ابن تيمية رحمه الله تعالى في «قاعدة التوسل والوسيلة»، فأجابه عبد ربِّه أن التوسُّل بالذوات الفاضلة مشروعٌ لحديث الضَّرير الصحيح المشهور وغيره، وبه قال أكثر العلماء، فأصرَّ على المنع، وأطال في الجدال.

ثم انجرَّ الكلام لسماع الأموات كلام الأحياء، فأنكر ذلك مطلقاً حتى من النبيِّ ﷺ وقال: إنه لا يسمع كلامَ مَنْ يخاطبه، ثم ذكر له عبد ربِّه حديث أنس المخرج في الصحيحين: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وأنه: ليسمع قرع نعالهم**»، فردَّه وأوَّله، ثم ذكر له حديث عمر في كلامه ﷺ مع كفار قريش الذين قتلوا وألقوا في القليب، حيث قال له عمر: يا رسول الله ما تُكلِّم من أجساد لا أرواح لها، فقال له: «**والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»، وهو في الصحيحين أيضاً، فأوَّله أيضاً بما هو معروف لأهل الشذوذ.

ثم تطرَّقنا لحديث عرض الأعمال على رسول الله ﷺ: «**حياتي خير لكم، تُحدثون ويحدث لكم، وموتي خيرٌ لكم، تُعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيتُ من خير، حَمَدتُ الله، وما رأيت من شرٍّ، استغفرتُ لكم**»، وهو حديث صحيح[1]، فضعَّفه، فقال له عبد ربِّه: إنه حديث صحيح، وصحَّحه جماعة من الحفَّاظ، فأصرَّ على تضعيفه. فلمَّا علم منه عدم الإنصاف أعرض عنه، وسكت، ولم يعد ينازعه.

فانفضَّ المجلس وانصرفوا، ثم بعد حين، رأيناه يصحِّح حديث عرض الأعمال في سلسلته الصحيحة.

---

(١) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح قاله في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤) ورواه ابن سعد وإسماعيل القاضي مرسلاً بسند صحيح. (المؤلف).

وبمناسبة نفي الألباني وغيره سماع الأموات كلام الأحياء نكتفي بإثبات ذلك بنقل كلام عالم واحد من مشاهير المفسِّرين والمحدثين والفقهاء، ألا وهو أبو الفداء ابن كثير رحمه الله تعالى، فقد قال في (تفسيره) ما نصُّه:

«والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة، من أشهرها: ما رواه ابن عبد البر مصحِّحاً له عن ابن عباس مرفوعاً: «**ما من أحد يمرُّ بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه في الدنيا، فيسلِّم عليه إلا ردَّ الله عليه روحه حتى يردَّ السلام**».

وثبت عنه ﷺ أنه قال لأمته إذا سلَّموا على القبور أن يُسلِّموا سلام مَنْ يخاطبونه، فيقول: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**»، وهذا خطاب مَنْ يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد...

قال: **والسلف مُجْمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم، بأن الميت يعرف بزيارة الحي ويستبشر**» اهـ.

ثم ذكر آثاراً كثيرة عن السلف وغيرهم في ذلك، ثم قال: والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلِّم الرد» اهـ.

فالعَجَبُ ممَّن ينكر ذلك مع هذه الأدلة النقلية والعقلية؟! لكن الكمال لله تعالى وحده.

وفي هذا العام ولد له ولده إبراهيم بحيِّ المطافي... وفيه اتَّصل به الأخ الجليل الداعية الصادق الأستاذ السيد محمد العبادي، فلازمه للقراءة عليه خمس سنوات، وفيه ارتحل لمستر خوش، وفيه أُفرج عن العلامة المحدث الأصولي الفقيه سيدي عبد الله بن الصديق من معتقله بمصر، الذي دام فيه أحد عشر عاماً ظلماً وطغياناً من جمال عبد الناصر، فقدم المغرب، وكان يوم قدومه يوماً مشهوداً، فقد كان غاب عن موطنه وأهله ومعارفه أربعين سنة قضاها في القاهرة رحمه الله تعالى وإيَّانا رحمة واسعة.

ولما قدم سمع منه عبدُ ربِّه حديث الرحمة المسلسل بالأوليَّة، وحَضَر له مجالس ودروساً، وكان قد أجازه من مصر قديماً.

ولما سكن عبدُ ربّه بمستر خوش كان الطلبة يأتونه فيقرأ معهم بمنزله، إلا درس التفسير الذي كان يقرؤه بين العشاءين، فإنه كان يدرسه بمعهده كل مساء.

ثم ارتحل إلى حي السواني، فسكن به نحو سنة ونصف، وبه ولدت له بنته أسماء، وكان ذلك عام ١٣٩٢ هجرية، وفي هذا العام عُيِّن من قبل الأوقاف أن يلقي دروساً وعظية في رمضان بمسجد ابن بطوطة، فخصَّص الشهر كله لشرح حديث جبريل عليه السلام ولم يتمه.

وفي آخر الشهر ألقي عليه سؤال حول اتحاد المسلمين في الصوم والإفطار، فأجاب بوجوب ذلك، فقام في وجهه بعض الجَهَلة، وحَصَلت ضجَّة وفتنة في المسجد، كادت تأتي بمقتلة، لولا لطف الله تعالى.

❑ حجته السابعة والثامنة وزيارته للقاهرة للمرة الثالثة:

وفي عام ١٣٩٢ هجرية حجَّ حجته السابعة على متن الطائرة مع الحكومة من طنجة إلى جُدة مباشرة ذهاباً وإياباً...

وفي عام ١٣٩٣ هجرية انتقل إلى حي ابن بطوطة، وفيه حجَّ حجته الثامنة، وزار في طريقه القاهرة للمرة الثالثة، وفي هذه الفترات من عام ١٣٨٨ إلى عام ١٣٩٣ حصلت بينه وبين بعض أصحابه ما أوجب منافرة بينهما، حيث صدرت من ذلك الأخ أمور خارجة عن أخلاق الإسلام، بل والإنسانية، وأدى ذلك إلى تدخُّل السلطة في أمور لا داعي لتفصيلها.

وكان هذا الحادث أيضاً من الدروس التي تلقاها في حياته من طرف أصدقائه، بل أصحابه، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة**»(١).

فالخِلُّ الوفيُّ نادرٌ جداً أو غريب في كلِّ العصور، فكيف بهذا الوقت الذي انقلبت فيه الأوضاع رأساً على عقب، ولم يكد المرء يثق بجليس ساعة، فما بالك بالصحبة الدائمة؟!

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عمر.

وفي عام ١٣٩٤ هجرية حصل على قطعة أرض بحي مرشان طريق القرية زنقة حنان، فبناها وارتحل إليها، واتخذها مقره الأخير إن شاء الله تعالى، وهي منزله الحالي.

وكان في رحلاته في الأحياء المتقدمة يعاني من تكشُّف الجيران عليه، فكان يسأل الله تعالى أن يرزقه سكناً محترماً، فجاء الله بهذا المنزل الذي يحيط به من غربه وجنوبه عرصتان ورياضان ليس فيهما تكشُّف عليه، ومن شرقه مسجده ومن شماله سكن لرجل محترم.

وفي هذا العام حجَّ حجته التاسعة عن طريق بيروت برفقة الأخوين عبد القادر بن علوش وأخيه لأمه أحمد وزوجتيهما، وحَصَل لهم امتحان بجُدَّة حيث تأخرت عنهم الطائرة... وفي نفس السنة كان قد اعتمر في رمضان رفقة الحاج الحمادي التمسماني، والحاج محمد قروق وزوجته.

وفي عام ١٣٩٥ هجرية تمَّ له كتاب «تهذيب جامع الترمذي» تأليفاً وتنقيحاً، وفيه ولد له ولده عبد الحي حفظه الله وفرَّج عنه آمين.

❐ حجته العاشرة وزيارة القاهرة للمرة الرابعة:

وفي عام ١٣٩٦ حجَّ حجته العاشرة عن طريق فرنسة، ثم زار القاهرة للمرة الرابعة، وكان في صحبته فيها الأخ العلامة العابد الصالح السيد الحسن الشركّي الأنجري، والعلامة السيد محمد الوفراحي، والأخ الخِلّ الصالح السيد الحاج الحمادي التمسماني في جماعة آخرين...

وفي هذا العام كثر الطلبة، وضاق مسجده الأول عن المصلين، ففكر في شراء قطعة أرض بجوار منزله واسعة، فكلَّم في ذلك الأخ الصالح السيد شعيب المجاهد الذي سبق أن بنى المؤسسة الأولى، فوافق على شرائها، فباع داراً كانت له إضافية، فأدى ثمن القطعة وما عليها، ثم تطوَّع بعض الإخوة الصادقين، فبنوا مدرسة ذات طبقات، تحتوي على طابقين: الأول للصلاة، والثاني للتدريس، ثم غرف لإيواء الطلبة، فنشطت الدراسة، وقصدت المدرسة

من جميع أنحاء المملكة، وقصد الناس المسجد يوم الجمعة من أحياء المدينة لما يجدون فيه من الفائدة العامة.

□ حجته الحادية عشرة:

وفي عام ١٣٩٧ هجرية حجَّ في جماعة من الإخوة عن طريق سلا، فجُدَّة وهي حجته الحادية عشرة...

وفي هذه الحجة أساء إليهم مطوفهم المدعو بالكردي، فلم يُحسن سكنهم، ولا هيَّأ لهم حافلة لنقلهم لمنى ثم لعرفة، وأراد بعض الإخوة رفع شكاية بالمطوِّف إلى وزارة الحج، فمنعه عبد ربه، وقال للجماعة: هيا نذهب على الأقدام، وكانت معهم امرأتان أولاهما عجوز فوق السبعين والثانية شابة مع زوجها، فوافقوه على المشي، فذهبوا إلى منى يوم التروية، وباتوا في الشارع، ثم في الصباح توجَّهوا إلى المزدلفة، ولما توسَّطوها مرَّت عليهم حافلة، فاستأجروها وأقلَّتهم إلى عرفات، فوقفوا بها، ثم نزلوا على الأقدام كذلك إلى مكة المكرمة، وحصلت لهم متاعب عظيمة في هذه الحجة، وفيها زاروا غار ثور وغار حراء، وصعدوا جميعهم إليهما حتى العجوز المسنَّة، فضلاً عن المزارات الأخرى بمكة والمدينة... أما غار حراء فكان عبدُ ربِّه يزوره كل عام حتى أسنَّ وشاخ.

وكان معه في هذه الحجة الأخ سيدي محمد الشعيبي الكتامي، وزوجته الفاضلة للا شمس الضحى، والأخ العلامة الصالح سيدي عبد الله الروَّاس، والأخ السيد حمادي العمرتي... في آخرين.

□ حجته الثانية عشرة مع زيارة القاهرة:

وفي عام ١٣٩٨هـ حجَّ حجته الثانية عشرة عن طريق بروكسل، ثم القاهرة للمرة الخامسة، وكان برفقته الحاج شعيب الشعيبي الكتامي، والحاج أحمد الخالدي.

وكان قد أصابه مرض في هذه الرحلة بدأه في بلجيكة، ودخل القاهرة مريضاً.

وفي هذه السنة ولدت له بنته حفصة.

□ حجته الثالثة عشرة وحدوث فتنة بالمسجد الحرام:

وفي عام ١٣٩٩هـ حجَّ حجته الثالثة عشرة، وبعد رجوعه بأسبوع حَصَلت تلك الفتنة العمياء بالحرم المكي الشريف التي قام بها جُهَيمان وأصحابه، وذهب ضحيتها آلاف من الأبرياء، وبقي الحجاج مُحْتَجَزين داخل المسجد أياماً، وكان ذلك أيام الملك خالد بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ، وبعد مفاوضات نشبت حرب طاحنة... وكان هذا الحادث مشؤوماً على المسلمين.

□ دخوله السجن مع جماعة من العلماء:

وفي هذا العام أصابه ظلم عامل طنجة المدعو بالقيسي ابن أخت الدليمي، أحد جنرالات المغرب، فزجَّ به في السجن في جماعة من خيرة العلماء، ومعهم إخوة من المؤمنين.

وخلاصة الحدث: أنه كان منذ عام ١٣٧٤هـ يصوم ويفطر على رؤية هلال المشارقة، ولم يكن يتستَّر بذلك، بل كان الصدِّيقيون يعلنون بالصوم والإفطار مع مَنْ ثبت عندهم رؤية الهلال من الشعوب الأخرى ما دامت المسألة فرعية ذات مذاهب اجتهادية وليست منكراً يجب تغييره.

كان عبد ربِّه في رمضان بمدينة مرتيل عمالة تطوان، وفي آخره رأى في منامه كأن رجلاً يسأله في حضرة رسول الله ﷺ عن صلاة الضحى في رؤيا طويلة ستأتي في موضعها...

وكان يريد قضاء عيد الفطر بمرتيل، لكنه سرعان أن جاءه خاطر خاطف بالقدوم إلى طنجة، فقدم فجاء خبر هلال شوال من الحجاز، فأفطر وصلى بمنزله مع جماعة من الإخوان كالعادة منذ زمان، وأفطر آخرون في عدة أحياء بمنازلهم... ولم يحصل أي إخلال بالأمن ولا بالنظام العام...

فلما كان بالأمس بين العشاءين جاءه قائد الدائرة، ومقدَّم الحي العريف، ورجل من المخابرات، فأقلُّوه في سيارتهم إلى مكتب قسم الاستعلامات ببناية العمالة، الولاية حالياً، وهناك حضر خليفة العامل ورئيس قسم الاستعلامات ورجل ثالث. . . فأحدقوا به وشرعوا يوجِّهون إليه أسئلة حرجة دامت الجلسة بها تقريباً ثلاث ساعات ما تركوا فيها فاذة ولا شاذة إلا سألوه عنها، ثم كتبوا تقريرهم، ثم أقلُّوه إلى منزله في نحو الساعة الثانية عشرة ليلاً وأمروه بالرجوع من الغد. . . إلا أنه لم يكن في استنطاقهم عنف ولا سباب ولا ضرب، فتعجَّب عبد ربه من ذلك، إذ كانوا يعاملون وقتئذٍ الكثيرين بالقسوة والشدة والإذاية البالغة.

وبالفعل في الساعة العاشرة من الغد حضر لمخفر الشرطة، فجعلوا يأتون بالإخوة واحداً بعد واحد، فجاؤوا بالأخوين السيد عبد الله والسيد عبد العزيز الصديقيين، ثم صاروا يأتون بكل من كان لهم فيه شبهة، حتى تمَّ لهم نحو خمسة عشر نفراً كان من بينهم خمسة من أهل العلم والشرف، والباقي أخلاط من المؤمنين. . . وفيهم من كان عمره قد ناهز الثمانين.

فباتوا ليلتهم الأولى في السجن في زنزانة بجوار السكارى ورجال العصابات تحت الأرض.

ومن الغد أخذوا إلى النيابة، ثم في المساء أقلُّوهم للسجن المدني، فأصبحوا معتقلين.

فقامت قيامة الأهالي، وتكلَّمت الصحف والجرائد داخل المغرب وخارجه، ثم بعد يوم أو يومين قدِّموا للمحكمة الابتدائية، وتطوَّع للدفاع عنهم نحو من عشرة محامين، كلهم رجعوا بالفشل، ثم ردوا إلى السجن، ومكثوا به مدة غير محكوم عليهم، إلا أنه كانت كلها لنا شبه أعياد، إذ كانت كلها مذاكرات علمية وتاريخية رغم أن البعض كان جزعاً للغاية؛ إذ لم يجد لذلك صبراً.

ثمَّ صدر الأمر بالإفراج بعد أن عُوتبت الجهات العليا والقيادة الحاكمة

من طرف شخصيات على هذا الفعل المخالف للقانون ومبادئ الإنسانية، فضلاً عن قواعد الشريعة وأحكامها.

ثم انتقم الله تعالى من ذلك العامل، ومن كان وراءه، أو كان من الشامتين، وثبت للمبتلين الأجر الجزيل، وباء الظالمون المعتدون بالخزي، وبقي أثر عملهم هذا مكتوباً على صفحات التاريخ حتى يأتي يوم الوعيد.

☐ حجته الرابعة عشرة:

وفي عام ١٤٠٠ هجرية ولدت له بنته رقية، وهي الأنثى الأخيرة من أولاده الأحياء.

وفيها حجَّ حجته الرابعة عشرة عن طريق مدريد، فجدة، وكان بصحبته الأخ الفاضل المحب السيد إبراهيم الخليل الحكيم المرتيلي، وكان هذا الأخ قد حصل له ضيق بعرفات لمرض ألمَّ به، ونزلا إلى المزدلفة على الأقدام، وكانت تلك عادته منذ زمان حتى ضَعُف وكَبِر...

☐ حجته الخامسة عشرة مع زيارة القاهرة:

وفي عام ١٤٠١ اعتمر في جُمادى الآخرة عمرة مفردة استغرقت شهراً. وفيها حجَّ حجته الخامسة عشرة في رفقة كبيرة، كان في جملتها الشقيقان المحدِّثان السيد عبد الله والسيد عبد العزيز الصديقيَّان، وكان ذلك عن طريق مدريد، فالقاهرة للمرة السادسة، ثم دمشق، ومكثوا بها أسبوعاً، ثم جُدَّة.

وفي هذه الحجة عمل لهم العلامة المحدث السيد محمد ياسين الفاداني رحمه الله تعالى حفلة هامة، جمع فيها كثيراً من أهل العلم والفضل في مدرسة دار العلوم الدينية بمكة المكرمة، وألقى العلامة المحدث السيد عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى درساً فيها انطلاقاً من حديث: «**من قال رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وَجَبَتْ له الجنة**»، وأفاض في ذلك وأفاد كعادته.

وكانت ليلة مشهودة مباركة تاريخية لا تُنسى. وقد فقدنا كل تلك الوجوه

العالمة ألحقنا الله تعالى بهم مؤمنين طيِّبين، وجمعنا معهم في جملة النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.

□ باقي حجاته المباركة:

وفي عام ١٤٠٢ هجرية كانت له عمرة في رجب، ثم حجة مع الحكومة من طنجة إلى جُدة، وكان برفقته ولده محمد. ثم حجَّ سنة ١٤٠٣ هجرية من طنجة، وأخرى في عام ١٤٠٤ هجرية.

وفي هذا العام ولد له ولد سماه عبد الإله، ثم توفي وهو ابن أربع سنوات. وكان له ولد آخر قبله اسمه عبد الرحمن توفي بعد أسبوع من ولادته.

وفي عام ١٤٠٥ هجرية كان يريد الحج، فمرض بخراج ظهر له في بطنه، ألزمه الفراش بالمستشفى، وتأخَّر عن الحج، وكان قد سبقت له عمرة في رمضان ذلك العام رفقة الحكيم والشعيبي.

وفي عام ١٤٠٦ هجرية حَجَّ من طنجة برفقة ولده عبد العلي.

وفي عام ١٤٠٧ هجرية حَجَّ حجته العشرين في رفقة كبيرة سكنوا بمكة المكرمة قريباً من الأبطح، فكانوا لا ينزلون الحرم إلا في الحافلة، وفي هذه الحجة حصلت تلك المظاهرة الخطيرة الصاخبة التي أقامها الإيرانيون، ووقعت فيها تلك المجزرة من الجانبين، وكان عبد ربِّه نازلاً للحرم على قدميه، ووقع في وسطها، فسلَّمه الله تعالى.

□ تتابع عمره كل سنة:

وهكذا تتابعت حجاته وعمره، فوقعت بفضل الله عمرة في رمضان عام ١٤٠٨ هجرية، وعام ١٤٠٩ هجرية، وحجة في نفس السنة، ثم عمرة في رمضان عام ١٤١٠ هجرية، ثم حجة عام ١٤١١ هجرية، وكنا في جماعة من الإخوان، وولده عبد العلي، والأخ محمد الدامون، ووالده، وصهره السيد أحمد الصبَّان وزوجته، وكان معهم في العمارة بمكة المكرمة بحي التيسير الدكتور سيدي إبراهيم بن الصدِّيق.

ثم كانت عمرة في رمضان عام ١٤١٢ هجرية، وكان معه الأنجال الثلاثة: محمد، وعبد العلي، وإبراهيم.

ثم عمرة في رمضان عام ١٤١٣ للهجرة، وكانت بصحبته بنتاه: حفصة، ورقية، وولداه: محمد، وعبد العالي.

ثم عمرة في رمضان عام ١٤١٤ للهجرة من طنجة إلى المدينة مباشرة، وفيها سجن ولد له، وعانى من أجله شدائد سنة كاملة، ثم أفرج عن الولد بالبراءة.

ثم كانت عمرة في رمضان عام ١٤١٥ للهجرة، وكان معه ولده إبراهيم، وولده محمد مع زوجته وصهره السيد عبد الواحد الصباغ وزوجته، وفيها أكرمهم الأخ الدكتور الشريف سيدي محمد علوي المالكي إكراماً بالغاً، وزوَّدهم بكتب كثيرة كشرح سنن الدارمي، وشرح مختصر خليل وغيرهما، وفيها أضافهم بعض علماء الحضارمة بجُدة، واستجازوه.

ثم كانت عمرة عام ١٤١٦ للهجرة، وفيها مرض مرضاً شديداً صحبه حتى قدم المغرب، فلزم الفراش مدة.

□ حجته الثالثة والعشرون وحصول ذلك الحريق الهائل:

ثم كانت عمرة في رمضان عام ١٤١٧ للهجرة، ثم حجة في نفس السنة، وبها تمَّت له ثلاث وعشرون حجة، والحمد لله على إفضاله وإحسانه وتوفيقه.

وفيه حصل ذلك الحريق الهائل بمنى يوم التروية الذي ذهب ضحيته عشرات الألوف من الحجَّاج، وقاسى فيها الحجَّاج شدائد، وأصيبوا بمتاعب عظيمة، وكان عبد ربِّه ممَّن اشتدَّ عليه الأمر في ذلك، ولولا لطف الله تعالى لأُصيبَ بالحريق فيمن أصيب، إذ النار كانت قريبة من سكنه، وحتى عند الفرار كانت النار تسبقهم أمامهم وبين أيديهم لشدة العواصف والريح التي هبّت في ذلك اليوم...

وفي تلك الحجة أضافهم الأخ الفاضل السيد الشريف عصام بن ناهض

الهجاري عند بستان الشريف السباعي في بستان له بنواحي قريظة، وحضر الحفل جماعة من الدكاترة والأساتذة، يناهزون العشرة، وكان منهم الدكتور السيد إبراهيم بن محمد نور سيف المدرس بالجامعة الإسلامية، واستجازوه جميعاً، فأجازهم كتابة إجازة عامة. . .

وفيها أضافه العلامة المحدِّث المحقِّق الأستاذ الشيخ محمد عوَّامة، واجتمع بمنزل هذا الأخير بالعلامة المحدث محمد عبد الرشيد النعماني، فاستجازه في جماعة، فأجازهم بمَنْ فيهم الشيخ عوامة وأنجاله، والأستاذ الشيخ مَجْد مكي في آخرين. . .

◻ تتابع عُمَره خمس سنوات أخرى:

وفي عام ١٤١٨ للهجرة اعتمر في رمضان، وكان معه ولده محمد، وزوجته وبنت ولده فنة، وفيها اجتمع بعلامة المدينة ومدرس الحرم النبوي الشريف الشيخ عمر فلاتة رحمه الله تعالى بمنزل ابن عمه الدكتور عمر فلاتة، وحضر جماعة من العلماء والدكاترة والأساتذة، كان منهم الدكتور يوسف المرعشلي اللبناني محقق «الهداية بتخريج أحاديث البداية» للحافظ أحمد بن الصديق رحمه الله، والمحدث حمدي عبد المجيد محقِّق «المعجم الكبير» للطبراني، وهو تلميذ الألباني في آخرين، واستجازوه، فأجازهم إجازة عامة كتابة مع وضع أسماء جميعهم، ثم صُوِّرت ووزعت عليهم. . .

ثم كانت عمرة في رمضان عام ١٤١٩ للهجرة، وكان بصحبته ولده عبد العلي، وعدد من تلاميذه منهم السيد عبد الواحد العمرتي، والسيد محمد النميلي. . . وقرأ معهم في الحرمين الشريفين «الشمائل المحمدية» للترمذي، و«عمدة الأحكام» للحافظ المقدسي.

ثم عمرة في رمضان عام ١٤٢٠ للهجرة، وكان معه صهره السيد عبد العزيز بن شرها، والسيد عبد الله التجكاني، والسيد محمد النميلي في آخرين.

ثم عمرة أخرى في رمضان عام ١٤٢١ للهجرة، وكان معه ولداه عبد العلي، ومحمد، وزوجة محمد وبنتهما فنة، وعدد من تلاميذه منهم عبد الحق المساوي، وعبد الإله عسيوي التمسماني، وعبد الله التجكاني، ومحمد النميلي، وختم معهم كتابه «تهذيب الشفا» للقاضي عياض.

ثم كانت عمرة في رمضان عام ١٤٢٢ للهجرة، وكان معه ولده عبد العلي وزوجته وأولاده وصهره وزوجته، ومحمد النميلي، وعدد من المحبين نذكر منهم السيد يوسف المديني الحريري، وختم في الحرمين الشريفين كلًّا من «تهذيب الخصائص النبوية» للسيوطي، وكتابه «دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون».

وفيها أضافه الشريف الدكتور سعد بن عبد الله الشريف وأخواه الكريمان، والأخ الفاضل المحب أحمد محروس والشريف السباعي...

ثم كانت عمرة في عام ١٤٢٣ للهجرة رفقة ولده عبد العلي مع زوجته وأولاده وصهره وزوجته، وكان عدد من تلاميذه كان من بينهم تلميذه عبد الإله النميلي الذي يدرس الآن بسورية، وختم في الحرمين الشريفين كتابه «بداية الوصول بلبِّ صحيح الأمهات والأصول»...

وفيها أضافه الدكتور الشريف السيد سعد بن عبد الله العلوي الحسني وإخوانه، والبحَّاثة المدني السيد أحمد محروس، والعالم الفاضل الكريم السيد محمد علي دولة صاحب دار القلم، وفيها التقى لأول مرة بالدكتور السيد قاسم سعد، والتقى بمنزل السيد محمد علي دولة بعد غيبة طويلة بالناشر المصري السيد مصطفى صبري، وبالكاتب الأديب السوري الأستاذ فاروق بطل صاحب كتاب «أبطال الإسلام في عصر النبوة».

وبهذه العمرة تمَّت له أكثر من أربعين عمرة، والحمد لله على إنعامه، ويسأله المزيد من إفضاله.

وفي هذا العام ١٤٣٤ تفضل الله ﷻ عليه بعمرة في رمضان وحجة أيضاً تقبلهما الله تعالى.

❀ ❀ ❀

حالته الشخصية وأعماله

هو الآن عام ١٤٢٣ هجرية في سنِّ السابعة والسبعين من عمره، صحته جيدة والحمد لله، متزوِّج منذ قرابة نصف قرن، له أولاد ثمانية: أربعة ذكور وأربع إناث، كلُّهم متزوِّجون مُنْجبون، غير واحد منهم، فيعيش حالة من الوحدة والجَذْب الروحي، رعاه الله وعافاه، آمين.

وعمله الدائم ووظائفه بعد القيام بالتكاليف الشرعية وحقوق الله ﷻ، هو الكتابة والتدريس وإمامته في الصلوات الخمس، ثم خطبة الجمعة في مسجده منذ أزيد من أربعين سنة، ويعتمر كل عام في رمضان لا يتخلَّف عن ذلك إلا لعذر، وكان يحج كل سنة حتى حدَّدت السلطات الحج، فصار يحج كل خمسة أعوام.

وله يوم في الأسبوع، والغالب يكون يوم الجمعة، يعود فيه المرضى ويزور المقابر وبعض الصالحين وأكابر الإخوان الأحياء، ولا يخرج من منزله غالب الأوقات والأيام إلا لحاجة، ولا يحضر الحفلات العامة، ولا يجيب دعوات الولائم وغيرها، ولو كانت من أصحابه إلا نادراً لتضرُّره بذلك وتضييعه وظائفه ومهماته مع غلبة الفساد والشرور والمنكرات في المجامع العامة، ولأنه يحب الوحدة والانفراد، ويميل إلى الخمول ولا يحب الظهور والاحتكاك بعموم الناس ومخالطتهم.

بعيد عن ذوي السلطة ومن ينتمي إليهم، لا يطرق أبوابهم ولا يتَّخذ منهم صاحباً، وإذا اضطر إلى الاتِّصال بهم ينقبض ويشمئز منهم...

قوَّالٌ للحق، لا يُداري فيه ولا يُحابي، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حسب الطاقة، شديد على الكفار والملحدين والعلمانيين والمتفرنجين، يحبُّ الحقَّ وأهلَه والعمل به، ويبغض الباطل وأهله ومرتكبيه.

كثير الرجوع إلى الله تعالى، أوَّاهٌ مُنيب، بعيدٌ عن التعاظم، متواضع في نفسه، يميل في كلِّ شؤونه إلى التواضع في سكنه وفراشه ولباسه وهيأته وأكله وشربه.

بعيد عن الإسراف والترف، ويتعجَّب كثيراً من أهل العلم والدين الذين يتشبَّهون بالأغنياء المترفين، ويتنافسون مع أهل الدنيا في بناياتهم وفرشهم ومراكبهم وأحوالهم...

ومن تواضعه: كراهيته لمدحه في وَجْهه، بل يستحي ويخجل إذا مُدح كما يكره وصفه بالألقاب الضخمة كالحافظ والمحدِّث والعالم الكبير والعارف، ونحو ذلك من الألقاب التي يتنافس فيها الكثيرون، ويحبون أن يُوصَفُوا بها ويرضونها لأنفسهم، ولو كانوا عارين عنها.

ومن تواضعه: صبره على ثقل الثقلاء، وقضاؤه حوائجهم...

ويحبُّ المساكين، ويجالسهم، ويبدأ مَنْ لقيه بالسلام، إذا لم يكن هناك مانعٌ شرعيٌّ، ولا يمنع نفسه من الإفادة لكلِّ طبقات الناس، ولا يختفي عن ملاقاة المُسْترشدين... كما هو شأن كثير من أهل العلم ممَّن يمنعون العامة عن ملاقاتهم.

ومن تواضعه: أنه لم يتَّخذ خادماً يخدمه أو يخدم أهله لا من الرجال ولا من النساء، كما أنه لم يتخذ سيارة قط مع استطاعته اقتناءها، يفعل ذلك ابتعاداً عن الرفاهية والانشغال بغير ما يهمه... ولولا أنه يخاف الشُّهرة وإذاية السفهاء له لاتَّخذ البغل والحمار عملاً بالسنة.

❀ ❀ ❀

عقيدته ومذهبه الفقهي

❏ **عقيدته:**

كان في بداية أمره على مذهب الأشاعرة المتأخِّرين الذين مَزَجوا عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى الحقَّة ببعض عقائد المعتزلة، لكنه كان له مَيْلٌ إلى مذهب السلف لقراءته أيام الطلب رسالة ابن أبي زيد القيرواني مراراً، وعقيدته المذكورة في رسالته سلفيَّةٌ مَحْضَة.

ولما اتَّصل بشيخه الحافظ أبي الفيض رحمه الله تعالى أعطاه كتاب «التوحيد» لابن خُزيمة، و«الاعتقاد» للبيهقي، و«الدرة المضيئة» وأمره بقراءتها، فلما قرأها، وقرأ معها «العلو للعلي الغفار»، و«اجتماع الجيوش الإسلامية»، و«الإبانة» للأشعري، و«الطحاوية»، و«لمعة الاعتقاد» خرج من قراءتها كلها باعتناق مذهب السلف، فأصبحت بفضل الله تعالى عقيدته سلفية محضة، وزاد تمكُّناً في ذلك، بعد أن قرأ كثيراً من كتب التفسير وشروح الحديث التي تتعرَّض لمذهب السلف والخلف.

وهو ينصح أهل العلم بقراءة عقيدة ابن أبي زيد القيرواني، و«العقيدة الطحاوية»، و«الاعتقاد» للبيهقي، و«الإبانة» للأشعري... رحمهم الله تعالى.

❏ **مذهبه الفقهي:**

كان أولاً مالكياً حيث قرأ مذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى بجميع موضوعاته بكتبه الصغيرة والكبيرة، وتمكَّن فيه، ثم لما اتَّصل بأهل الحديث، وقرأ بإرشاداتهم آيات الأحكام وأحاديثها، وتبحَّر في قراءة كتب السنة وأحكامها مع الخلاف العالي كالمُحلَّى لابن حزم، وشرح المهذَّب، وبداية المجتهد، وقراءته سبل السلام، ونيل الأوطار مرات، والروضة الندية، وزاد

المعاد بعد ذلك، جعل يعمل ويأخذ بما دلَّ عليه الدليل من الكتاب والسنة الصحيحة، دون تقيُّد بمذهب من المذاهب المعروفة، إلا إذا تعارضت الأدلة، وتشعَّبت الأقوال، فيختار أحوط ما قال به بعض الأئمة.

وهذا مع كونه مذهب السلف هو واجبُ كلِّ عالم له من العلوم والقواعد ما يمكِّنه من أخذ الأحكام مباشرة من أصلها...

نعم لا يمنع العوام والقاصرين من أهل العلم من تقليد مذهب من المذاهب المشهورة ما لم يتبيَّن لهم مخالفتها لصريح السنة. ويرى مع ذلك تقليد الأئمة الأربعة وغيرهم في الأمور الاجتهادية التي لا نصَّ فيها نفياً ولا إثباتاً.

ثم إنه يدين الله تعالى بأنَّ كلَّ الأئمة والعلماء المجتهدين رحمهم الله تعالى على هُدى من الله تعالى في الجملة، أصابوا أم أخطأوا في اجتهاداتهم، فإن خطأهم مغفور لهم كما هو معروف لأهل العلم... ولا يضلِّلهم ولا يطعن في أحد منهم...

❀ ❀ ❀

رأيه في الفرق والجماعات الإسلامية

▢ الفرق الإسلامية:

يرى ويدين الله تعالى بأنَّ كلَّ من كان قَصْده وطلبه الحق من أصحاب المقالات والفرق الإسلامية التي تنتمي إلى أهل السنة، كالحنابلة والأشاعرة والماتريدية هم على هُدًى من الله تعالى في الجملة أيضاً، وإن كانوا مخطئين في استدلالاتهم، فلا يبدِّعهم ولا يكفِّرهم، لأن لهم مُسْتندات محتملة، وأن هدف الجميع واحد وهو توحيد الله تعالى، ونفي التشبيه عنه، وتنزيهه عما لا يليق به، وإن أخطأ بعضهم في التأويل، فليس قصدهم إنكار صفات الله ﷻ.

نعم مَنْ خرج عن هؤلاء من الطوائف الأخرى: كالرافضة(١) والخوارج(٢) والمعتزلة(٣) والنواصب(٤) والمشبِّهة(٥) والمجسِّمة(٦) والمرجئة(٧) وبعض الفرق

---

(١) الرافضة طائفة من الشيعة يغالون في أئمة آل البيت، وينالون من الصحابة في عقائد خطيرة لهم.

(٢) الخوارج يشبهون الرافضة في تكفير بعض الصحابة مع قولهم بتكفير أهل الكبائر وخلودهم في النار مع عقائد أخرى لهم.

(٣) لهم عقائد كثيرة منحرفة، كنفيهم الشفاعة وقولهم بخلود أهل الكبائر، ونفيهم رؤية الله يوم القيامة، وقولهم بخلق القرآن، ونسبتهم خلق أفعال العباد لغير الله تعالى في عقائد منحرفة لهم.

(٤) النواصب هم الذين يعادون أهل البيت، ويضْمرون لهم الأحقاد.

(٥) المشبِّهة الذين يصفون الله تعالى بصفات خلقه ويشبهونه بالمحدثات.

(٦) المجسِّمة الذين يجعلون ذات الله جسماً كسائر الأجسام، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

(٧) المرجئة الذين لا يقولون بالأعمال، ويقولون: لا يضرُّ مع الإيمان شيء. ومذهب أهل الحق أن الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص... فهذه الطوائف كلها ضالة تائهة حادت عن الحق، وعن طريق القرآن والسنة وسبيل المؤمنين. (المؤلف).

الصوفية، فهؤلاء عنده ضالُّون، وفيهم مَنْ هم كفرة، كبعض غلاة الروافض والخوارج. . .

◘ الجماعات الإسلامية:

أما الجماعات الإسلامية الحالية، وما أكثرها، ففيهم محقُّون ومبطلون، فمن المحقِّين: جماعة الإخوان المسلمين التي أسَّسها الإمام الشهيد حسن البنا، والجماعة الإسلامية التي كان يرأسها أبو الأعلى المودودي بالباكستان، وجماعة الدعوة والتبليغ التي أسسها الشيخ الصالح محمد إلياس الكاندهلوي والد محمد يوسف، وجماعة العدل والإحسان في المغرب، وغير هؤلاء.

فهؤلاء كلهم في نظره جماعات يدعون إلى الله تعالى، ويَسْعون في إصلاح المجتمع المسلم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وفيهم مَنْ يطالب الدول العلمانية بتحكيم شرع الله تعالى، ولهم مواقف يُشكرون عليها.

ولدعوات رجال هذه الجماعات آثارٌ طيِّبة، فبهم أنقذ الله ﷻ الشعوب الإسلامية ومدارسها وجامعاتها من تمرُّد الإلحاد والملحدين، وما هذه الصحوة الإسلامية العالمية إلا أثرٌ من آثارهم.

نعم هذا لا يمنع من وجود أقوام بين صفوف هذه الجماعات منحرفين مُبْطلين لهم عقائد زائغة، وسلوكات متطرِّفة، كأولئك الذين يكفِّرون المسلمين بعلمائهم وعوامهم، ويستبيحون دماء الأبرياء من المسلمين، حتى النساء والأطفال، فهؤلاء ملحقون بالخوارج، وما أكثرهم، نعوذ بالله من مواقع غضبه وسخطه، آمين.

❀ ❀ ❀

رأيه في الفرق الصوفية

الصوفية فيهم فرق وطوائف كثيرة، وهم كسائر الفرق فيهم السُّنِّي والشيعي، والصَّادق والكاذب، والطائع والعاصي، بل فيهم الملاحدة والزنادقة والدَّجَاجلة والسَّحَرة المشعوذون، ورأيه في صوفية أهل الوقت أنَّ أكثرهم ليسوا من عوام المسلمين المُقْتصدين، فَضْلاً عن أن يكونوا من الصوفية العارفين وأولياء الله المقرَّبين، لأنَّ التصوف أصبح طقوساً جوفاء، وشَقْشَقة وثَرْثَرة وكتابات فارغة باردة، ومتعاطوه اليوم أبعد الناس عن التمسُّك بالشريعة الإسلامية الحقَّة إلا أقل القليل منهم.

وقد قال عبد ربه في كتاب «نصب الموائد»[1]: «التصوُّف في ذاته كما عرفه أهله السابقون، لا يزيد على التحقُّق بالعبودية الصادقة الخالصة، والتخلُّق بالأخلاق الكريمة، والالتزام بالشريعة أمراً ونهياً، والتحقُّق بمقامات اليقين التي دعا إليها القرآن الكريم، وجاء بها نبيُّ الإسلام ﷺ، كالتوبة والزهد والورع والخوف والرجاء والتوكل والمحبة والرضا وغير هذا، مع التخلِّي عن الرذائل والأخلاق الساقطة، كالكِبْر والعُجْب والرياء والسُّمعة وحبِّ الدنيا والرياسة والتعاظم والعلو وثَلْب أعراض المسلمين والمشي بالنميمة والكذب والزور وقتل الأبرياء والزنى واللواط وشرب الخمر والدياثة والسرقة والغش والخيانة والغدر، وغير ذلك من الرذائل.

فمن تخلَّق بما ذكر تخلياً وتحلياً، فهو الصُّوفيُّ والسالك والسُّني والسلفي والصالح والولي، سَمِّه بما شئت من ذلك، ومَنْ كان على غير هذا فهو الملحد والزنديق والفاجر والمبتدع، وإن ادَّعى أنه سُنِّي أو سَلَفي أو صُوفي، فإنه مُفْتَرٍ دجَّالٌ نَصَّاب.

---

(١) ١/ ٢٠.

فقد كان الصوفية في بداية أمرهم متخلِّقين بأخلاق القرآن، سالكين الهدى النبوي، وأثر الصحابة الكرام، ولكنهم مع تطاول الزمان صاروا كعامة الناس، فيهم الصالح والطالح، والسني والمبتدع، كما قال الإمام الحافظ أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته «الصوفية والفقراء»[1]: «الصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله تعالى، فيهم السابق المقرَّب بحسب اجتهاده، وفيهم المُقْتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين مَنْ قد يجتهد فيخطئ، وفيه من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالمٌ لنفسه عاص لربه» هـ.

قلت: وهم أغلب صوفية زماننا.

وقُصارى الأمر أنه يحبُّ الصادقين المُخْلصين من أيِّ طائفةٍ كانوا، ويتمنَّى أن يكون منهم، ويتبرَّأ من جميع الأدعياء الكذَّابين أينما وُجِدُوا. والله الموفق الهادي لا إله سواه، ولا ربَّ غيره.

❀ ❀ ❀

(١) ص٢٠.

نظره في الشعوب الإسلامية ودولها الحالية

يأسف ويتألَّم كثيراً من حالة المسلمين التي يرثى لها من إعراضهم عن دينهم جملةً وتفصيلاً وانحلالهم الخلقي وتميُّعهم وتفسُّخهم، وانتشار كل رذيلة وفجور بينهم، وتَفَرْنُجهم وتشبُّههم بالكفار في كلِّ شيء حتى في أحوال المجانين، وذوبان شخصيتهم في شخصية أعدائهم، وإغراقهم في اتِّباع حضارة الغربيين الخبثاء بمنافعها ومضارها، وانغماسهم في قذارتها، يُضَاف إلى ذلك ما هُم عليه من تشتيت الشمل، وتفريق الصف، وكثرة العناصر والقوميات، وانتشار الأحزاب السياسية المحضة، ذوات المصالح الحزبية والشخصية، وظهور المذاهب الهدامة، كالشيوعية والاشتراكية والماسونية والقاديانية والبهائية، والقول بتساوي الأديان، إلى غير ذلك ممَّا تعيشه الأمة من هموم فكرية وأكدار عقدية.

هذا مع تنكُّر أكثر دولها لشريعة الإسلام، وتحكيمها القوانين الوضعية التي خطَّتها الأيدي الآثمة الكافرة القذرة، وسلوكها في أنظمتها سبيل العلمانيين من فصل الدين عن الدولة.

حتى أصبح المسلمون غرباء بين هؤلاء، يعادون ويحارَبون من الداخل والخارج، ويُلمَزون بكلِّ نقيصة في نظرهم: فهم متخلِّفون أصوليون متزمِّتون... إلى آخر جريدة الشتم والقذف...

لكنه رغم كل ذلك فإنَّه يعتقد أن المستقبل للإسلام إن شاء الله تعالى، برغم أنوف الملحدين والكافرين... فإن الأمة لا زال فيها خيرٌ، فالطائفة المنصورة التي تمثِّل الأمة والتي على سواعدها بإذن الله تعالى وقدرته وإرادته سينتصر الإسلام لا تزال موجودة مفرَّقة في الشعوب الإسلامية، وهي التي تمهِّد

للخليفة الإسلامي الذي سيجمع شَمْل الأمة ويوحد صفها، والذي حدثنا عنه نبينا ﷺ بقوله: «**إنكم في النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تكون ما شاء أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم يكون ملك عضوض، ثم تكون جبرية ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة**[1]».

فالأمة الآن تعيش في مرحلة السلطة الجَبْرية... ولم يبق بعد هذه المرحلة إلا مرحلة الخلافة المنشودة التي ستكون على منهاج النبوة وطريقتها، وهي التي ينتظرها المسلمون لتكون علاجاً لهذا العالم التائه الحائر المليء بالمشكلات والنكبات... ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

❀ ❀ ❀

(١) رواه الطيالسي وأحمد بسند حسن صحيح من حديث حذيفة ﷺ (المؤلف).

مِنن الله ونعمه عليه

❑ منن الله ونعمه عليه:

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

نِعَمُ الله تعالى على العبد لا يمكن إحصاؤها بحال، بل ولا القيام بشكرها، علماً بأن شكرها يزيدها كثرة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وقد قال الحكماء: «مَنْ شَكَرَ النعمةَ فقد قيَّدَها بعقالِهَا، ومن كفَرَها فقد تعرَّضَ لزوالها».

ومِن شُكرها: التحدُّث بها وإفشاؤها لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

وتحدُّثاً بنعم الله على عبد ربه الضعيف، يذكر هنا إخلاداً لشكر الله ﷻ بعض ما منَّ الله ﷻ به عليه:

اعلم أنَّ نعم الله تعالى على عباده نوعان: عامة وخاصة، فالعامة يستوي فيها الكافر والمؤمن، والفاسق والطائع، والإنسان وغيره، كالإيجاد والشمس والقمر، والليل والنهار، وأنواع الرياح والسحاب، والمطر والزروع والثمار، وجميع النعم الإمدادية، التي بها قوام الإنسان والحيوان في هذه الحياة.

والخاصَّة تختلف باختلاف الأشخاص، ومن هذا النوع ما سيذكر هنا، وهي كالآتي:

١ ـ فمن نعم الله عليه: شرف النسب من جهتي الأب والأم. وفي ذلك فَضل، فقد قال ﷺ في حديث: «**إنَّ لكم رحماً سأبلُّها ببلالها**». وهو في الصحيح.

وقال ﷺ: «كلُّ نَسَبٍ وسببٍ ينقطعُ يومَ القيامةِ إلا سببي ونسبي»، حديثٌ صحيح ورد من طرق... فلأهل البيت منزلة في الدنيا والآخرة ليست لغيرهم...

٢ ـ ومنها: نشأته على الفطرة لم تتدنَّس عقيدته بشيء من العقائد المنحرفة المتطرِّفة حتى قرأ العلم وهداه الله تعالى للحقِّ الخالص.

٣ ـ ومنها: حفظه للقرآن الكريم، وهو لا يزال لم يبلغ الحلم بعد، وأعظم بها نعمة: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

٤ ـ ومنها: هجرته من البادية، وسكناه بالحاضرة، حيث يوجد العلماء والشيوخ وأنواع الثقافة المختلفة.

٥ ـ ومنها: هدايته لطلب العلوم الدينية من دون مرشد ولا آمر.

٦ ـ ومنها: أنه كان أيام الطلب يدعو الله تعالى أن يعطيه علمَي الكتاب والسنة، والعمل بهما، فاستجاب الله دعاءه، فهداه للاتصال بأهل الحديث، فوفَّقه الله للعمل بالدليل من الكتاب والسنة الصحيحة، كما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين والأئمة وأهل الحديث خلاف ما عليه المقلِّدة المتعصِّبة لآراء الفقهاء.

٧ ـ ومنها: أنه ما خطر بباله أنه يطلب العلم لينال به وظيفة كما عليه الناس قديماً وحديثاً.

٨ ـ ومنها: نفوره من الوظائف الحكومية أياً كانت، وابتعاده عن مخالطة الظلمة وأعوانهم والفاسقين الغافلين.

٩ ـ ومنها: تحصيله ما يحتاجه من العلوم، كالعلوم العربية والفقه وأصوله والسيرة النبوية والتفسير والحديث وعلومهما والتاريخ والفلك والجغرافية والحساب.

١٠ ـ ومنها: محبته لله ﷻ، ولرسوله ﷺ، ولكتابه الكريم، ولسنة نبيه العظيم، ومحبة آل البيت النبوي الكرام، وزوجاته الطاهرات، وصحابته

الأخيار، وخاصَّة المهاجرين منهم والأنصار، لا سيما الخلفاء الأربعة، وباقي العشرة، فهم عنده كأصابع اليدين رضي الله تعالى عنهم جميعاً، وهكذا محبته للأولياء والصالحين والأبرار المتقين.

١١ ـ ومنها: وذلك من ورعه فضلاً من الله ﷻ، أنه كان يسبُّ معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وسَمُرة بن جندب، ثمَّ رجع عن ذلك، فحرَّق كتاب «النصائح الكافية» لابن عقيل الذي أُلِّف في معاوية وأضرابه وأتباعه... وينصح بعدم قراءته للمُبْتدئين، لأنه مليءٌ بالأباطيل والأكاذيب التاريخية.

١٢ ـ ومنها: بغضه للكفار ومن يواليهم، ويقتفي أثرهم، وبغضه لأصحاب المذاهب الهدامة، ولكلِّ ضال ومنحرف، كما يبغض الروافض الذين يسبُّون كبار الصحابة أو ينتقدونهم أو ينسبونهم إلى الظلم وبطلان خلافتهم، كما يبغض النواصب أعداء أهل البيت الأطهار الذين يناصبونهم العداوة والأحقاد...

١٣ ـ ومنها: بغضه للمتفرنجين المتشبِّهين بالكفار، ويتعجَّب كثيراً من المسلمين الذين أذابوا شخصيتهم في شخصية الكفار، ويزداد تعجُّباً ممن نصبوا أنفسهم للدعوة وزعامة الجماعات الإسلامية، فتراهم غَرْقىٰ في الاستغراب والتشبُّه بمظاهر أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ، وأعداء المسلمين، وأعداء دينهم الذين قتلوا أجدادهم وآباءهم، واستعمروا بلادهم، وغصبوا ثرواتهم، وأفسدوا مجتمعاتهم، وجَلَبوا لبلادهم كل فسق وفجور، وكل وَيْل وخزي، وكوَّنوا بينهم جيلاً ملحداً لا دينياً علمانياً، فكيف يجمل بالعاقل أن يتَّخذ هؤلاء قدوة في مظهره ومسكنه وتربية أولاده؟! إنَّ هذا لَعَجَبٌ عُجاب.

ولذلك لا ينقضي عجبه من أهل العلم والدعوة وزعامة مصالح المسلمين منْ تشبُّههم بالكفار، وتنشئتهم أولادهم على ذلك، وتنكُّرهم للمظاهر الإسلامية والعربية، هدانا الله وإياهم.

١٤ ـ ومنها: وسطيته في كل شيء، فلا يكفر أهل القبلة ولا يضلِّلهم على الإطلاق لمجرَّد ذنوب يأتونها.

١٥ ـ ومنها: أن الله تعالى جعله من الشباب الذين نشأوا في عبادة الله تعالى منذ أن بدأ يطلب العلم.

١٦ ـ ومنها: أنه لا يعلم من نفسه أنه ضيَّع صلاة ما في وقتها منذ عرف الحق.

١٧ ـ ومنها: محافظته على قراءة القرآن، فمنذ حفظه وهو يختمه في كل شهر، ثم صار يختم في كل اثنى عشر يوماً، ثم في مرحلته الأخيرة وهي التي هو عليها الآن صار يختم في كل أسبوع.

١٨ ـ ومن عظيم نعمه تعالى وفضله عليه: أنه يحصل له عند التلاوة من الأحوال والخشوع والتأثُّر الشيء العظيم، وكثيراً ما تستوقفه آيات الخوف والرجاء، وصفات الله تعالى ودلائل توحيده، وآيات القيامة والجنة والنار، وآيات القصص.

١٩ ـ ومنها: أنه كثير الرجوع إلى الله تعالى، لا يتذكَّر أنه أصرَّ على ذنب منذ بداية طلبه العلم، ولله الحمد

٢٠ ـ ومنها: هداية الله إياه لقراءة كتب الرقائق والمواعظ أيام الطلب، وقد انتفع بذلك كثيراً.

٢١ ـ ومنها: هدايته للعمل بعلمه حسب المستطاع.

٢٢ ـ ومنها: زهده في الدنيا، وإعراضه عنها، وعدم تطلُّعه إلى جمع حطامها، واكتفاؤه منها بسدِّ الحاجة، وقد جعل الله تعالى رزقه كفافاً وقوتاً لا فاقة ولا فضولاً.

٢٣ ـ ومنها: أن الله تعالى ألهمه وهو لا يزال يطلب العلم قيام الليل والإكثار من الصلاة على النبي ﷺ، حتى شغف بمحبته ﷺ، وصار في ذلك الوقت كلَّما صلَّى عليه ﷺ تهاطلت دموعه شوقاً إلى الحبيب ﷺ، وكان ذلك من الأسباب التي جعلته يدعو الله تعالى أن ييسِّر له الحج وزيارة البلاد المقدَّسة.

٢٤ ـ ومنها: محافظته على الأوراد والأذكار النبوية الصباحية والمسائية، والليلية والنهارية، وأذكار كل الأحوال لا يتركها بحال مع ذكره الله تعالى ألوفاً بين كل يوم وليلة.

٢٥ ـ ومنها: فرحه بالطاعة وسروره بما يجريه الله تعالى على يديه من أنواع القُربات مع حزنه وتألُّمه من صدور أيِّ ذنب منه كيفما كان نوعه.

وقد قال نبيُّنا ﷺ: «**من سَرَّته حسنتُه، وساءته سيئتُه فهو مؤمنٌ**»(١).

٢٦ ـ ومنها: استعماله الأعمال والأقوال التي تكفِّر الذنوب؛ لأن الإنسان ـ وإنْ بلغ في الفضل والصلاح ما بلغ ـ لا ينفك عن ذنب بإحدى جوارحه لما في ذلك من الحكم الإلهية.

ودواء الذنوب هو الحسنات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ولقوله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق النَّاسَ بخُلُق حسن**»(٢).

٢٧ ـ ومنها: كثرة حَسَدَتِه وأعدائه والواقعين الطاعنين فيه والمُؤذين له بلا سبب يُوجب ذلك، بل هناك جماعة ممن قرؤوا عليه وانتفعوا به، وأحسن إليهم، ناصبوه العداوة، وأصبحوا منحرفين عنه، عاقين له، كافرين بإحسانه وتعليمه إيَّاهم، وفيهم من كتب فيه وبدَّعه، بل وكفَّره مع السُّخرية والاستهزاء به، فهو يحمد الله على ذلك، فإن له أسوة بالصالحين الذين اعتدى عليهم الأنذال بالنَّيْل منهم عبر العصور.

٢٨ ـ ومنها: حُسْن ظنِّه واغتراره بظواهر الناس من العلم والعبادة والصلاح، وقد أُوذي بسبب ذلك من طرف أقوام صحبوه لمصالح لهم، فتأذَّى بهم، ولقن بذلك دروساً، فصار بعد يأخذ الحذر من الناس.

٢٩ ـ ومنها: تورُّعه عن أكل أموال الزكاة لحُرمتها على أهل البيت، كما

---

(١) وهو حديث صحيح له طرق اهـ (المؤلف).

(٢) رواه أحمد والترمذي وغيرهما (المؤلف).

جاء بذلك النص عن النبيِّ ﷺ حيث قال: «**إنَّ الصدقةَ لا تنبغي لمحمّدٍ ولا لآلِ محمّدٍ، إنّما هي أوساخُ الناسِ**»، رواه مسلم.

فكم من مال يأتيه من الزكوات فلا يأخذ منه فلساً، بل يوزِّع ذلك على مَنْ يستحقه من الفقراء والمساكين والمحتاجين، ولا يعرف هذا لأحد من الأشراف المعاصرين حتى من علمائهم إلا مَنْ رَحِمَ الله تعالى.

٣٠ ـ ومنها: عدم قبوله هدايا من يتعاطى الربا والاتّجار في المخدِّرات أو أي محرم، ولا يأكل عندهم أو يأكل شيئاً جاءه من جهتهم، والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصى.

فمن ذلك: أنَّ رجل أعمال كان قد تعرَّف عليه، وتبادلا الزيارة فيما بينهما مرات، فرتَّب له مبلغاً شهرياً لابأس به، فلمَّا علم به أنه يتعامل مع البنوك بالربا، اعتذر إليه، وردَّ عليه راتبه، ثم تركه، ولم يعد يتَّصل به لأنه حذَّره من ذلك ونصحه فلم يفعل. . .

ومن ذلك: أن رجلاً من ذوي السلطة كان عرض عليه ما يأخذه الجمارك من المظالم، فيصرفه على المدرسة والطلبة فرفض ذلك. . .

ومن ذلك أيضاً: أن أحد التجار في المخدرات بعث إليه أنه مستعدٌّ للقيام بالمدرسة وشؤون الطلبة وما يمكن طبعه من الكتب، فاعتذر إليه ولم يجبه لذلك. . .

ومن ذلك أيضاً: أن صديقاً بل تلميذاً له موظفاً بالإمارات، اقترح عليه أن يشتري قطعة أرض كبيرة، وأن جهة خليجية حكومية ستتولى بناء مدرسة كبيرة عليها والقيام بكلِّ ما تتطلبه، فلم يفعل لأن أموال الدول الحالية كلها حرام، لأنها أصالة تتعامل بالربا رسمياً علاوة على ما عندها من مظالم للشعوب. . .

٣١ ـ ومن تورُّعه: أنه لا يقبل مال الدولة إطلاقاً، ولا يلبِّي دعوة مَنْ يدعوه من ذوي السلطة، أو يتناول عندهم شيئاً، وقد تاب إلى الله تعالى من

تناول طعام عشاء عند وزير مرة وعند عامل محافظ بالدار البيضاء مرة أخرى، ولم يعد يتَّصل به مع إلحاحه عليه في الدعوة. وهذا كله من فضل الله تعالى عليه مع أن علماءنا المعاصرين لا يتورَّعون عن ذلك أصلاً، بل ينتقدون من يتحاشى ذلك، مع أن طعام أولئك سمٌّ قاتل للروح من ساعته.

٣٢ ـ ومن نعم الله عليه: أنه لم يتملَّق للأمراء والأغنياء وغيرهم في جمع الأموال باسم المعهد الإسلامي الذي أسَّسه كما يفعله كثير من المرتزقة والنصَّابين؛ لأن أكثر أموال أولئك حرام قطعاً، إلا مَنْ رحم الله من بعض الأغنياء الأتقياء، وقليلٌ ما هم.

ومن غريب أمره: أن ذا سلطة زاره مرة بمنزله لقضية سياسية، فترك عنده قلماً، فرماه ولم ينتفع به في كتابة ما.

ولما أصدر الملك الراحل الحسن الثاني أمره بالمجالس العلمية عَرَض عليه بعض مشايخه الكبار الذي كان عضواً في المجلس أن ينضم إليهم، وسيُعطى مقابل ذلك خمسة آلاف درهم مسبقاً منحةً، ثم يكون له راتب شهري يتقاضاه من الأوقاف في مقابلة إلقاء دروس وعظية تابعة للأوقاف، فرفض مع إلحاح ذلك الشيخ عليه. وهذا من فضل الله تعالى عليه ولطفه به... لأنه يعلم ما سيؤول أمره إليه في ذلك.

٣٣ ـ ومن نعم الله ﷻ عليه: مراعاته الأمانة، فلا يعلم من نفسه أنه خان أحداً، أو غَدَر به، أو وعد فأخلف.

٣٤ ـ ومنها: تسهيل الرزق عليه، وأنه يأتيه الله ﷻ به من دون تعب ولا تدبير، رغم أنه يعول عدة عائلات، وهذا حَصَل بفضل الله تعالى بعد أن عانىٰ من ضيق العيش والفاقة سنين طوالاً.

٣٥ ـ ومنها: أنَّ الله ﷻ عَوَّده الاستجابة في الغالب، بل أحياناً قد يَهُمُّ بالشيء ويخطر بباله أمر ما فيقضيه الله ﷻ له وييسِّره من دون سؤال... فقد يهُمُّ بالحج أو بالاعتمار مثلاً، فيهيء الله له أمرهما حالاً بلا أيِّ كلفة، ويتذكر أنه مرة ذهب للحج وكان الحرُّ شديداً فخطر بباله أن لو هيَّأ الله له سكناً بارداً

قريباً من المسجد، فكان الأمر كذلك، فسكن ملاصقاً للمسجد النبوي، وكان يصلي ببيته مع إمام المسجد.

وكان مرة أخرى نازلاً من جبال الريف في حافلة أيضاً، ودخل وقت الظهر، وكان من المفروض أن تقف الحافلة في محطة عند الزوال ليتناول الركاب طعام الغداء، لكنها واصلت السَّيْر، ولا تقف إلا في محطة أخرى قُرب غروب الشمس، فاشتدَّ عليه الأمر، وعلم أنه سيصلي الظهر في السيارة بلا وضوء ولا تيمم ولا استقبال للقبلة، فكلَّم السائق في الوقوف فامتنع فلم يمض إلا بضعة أميال من تلك المحطة، وإذا بالحافلة تقف في وسط قرية في الجبل لعطب وقع بها، فنزل جميع الركاب، ونزل معهم وتوضأ في عينٍ هنالك، وصلى الظهر والعصر جَمْعاً وقَصْراً، حامداً الله تعالى على إكرامه وإفضاله.

ملاحظة: امتناع سوَّاقي الحافلات العمومية من الوقوف لأجل صلاة المسافرين شيءٌ عادي بينهم سواء في الغرب أو الشرق، بل الأغرب من هذا هو أن الحجَّاج والمعتمرين كثيراً ما يخرجون من جُدة ليلاً متَّجهين إلى المدينة المنورة، فيصادفهم الفجر بالطريق فلا يهتمُّون بالصلاة، وإذا قام أحدهم يطالب السائق بالوقوف للصلاة نادوه بالامتناع، وربما أنَّبوا الداعي للصلاة، وقد حصل له هذا مراراً بين جدة والمدينة.

أما من غير الحجاج فلا تسأل كم وقع له من حادث مع الركاب الذين ينتمون إلى الإسلام، فكم مرة طالب السائق بالوقوف للصلاة، فيناديه الركاب من كل جهة: هل أنت وحدك مسلم؟ فدين الله واسع. فهؤلاء هم الأكثرية الساحقة ممَّن يسمُّون أنفسهم مسلمين اليوم، ولذلك ضربهم الله تعالى وسلَّط عليهم الأعداء، وأهانهم وأخزاهم على أيدي الصهاينة أبناء القردة والخنازير، وشتَّت شملهم وفرق صفوفهم... وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٣٦ ـ ومن نعم الله تعالى عليه: أنه ما آذاه أحدٌ إلا انتقم الله ﷻ له منه، إما في نفسه أو دينه.

٣٧ ـ ومنها: تأدُّبه مع المصحف الكريم وكتب التفسير والحديث والفقه الإسلامي وجميع كتب الدين، فلا يضع فوقها كتباً أخرى، بل يضعها مرتَّبة، فكتب الآلة والأدب والتاريخ في الأسفل، ويليها كتب الفقه، ثم الحديث النبوي، ثم التفسير والقرآن أعلاها، ولا يعرف من أهل العلم المعاصرين من يَسْلك هذا الأدب إلا مَنْ رحم الله، بل قد رأى منهم من يضع سماعة الهاتف وكوب الشاي والحاجيات فوق الكتب، ولا تخلو من قرآن أو حديث أو حكم شرعي أو اسم لله تعالى، فَمَنْ لا يراعي هذا الأدب كان رقيقَ الدين لا يحترم المقدَّسات وحرمات الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

وقد حدثني بعض أشياخي أنه دخل على بعض العلماء من أصدقائه، فوجد بين يديه رزمة من مختلف الكتب وفوقها صينية وبقراج وأكواب الشاي، قال: فلما توفي رأيت حالته غير حَسَنة، عياذاً بالله تعالى.

٣٨ ـ ومنها: أنه ما فتح حساباً قط مع بنك، ولا أودع فيه مالاً، ولا تعامل معه أصلاً، لأن ذلك لا يخلو من شبهة حرام، وحتى لو أودع من دون فائدة فإنَّ المال لا بد وأن يستفيدوا منه، وذلك لا يكون إلا بالربا.

٣٩ ـ ومنها: عدم إدخاله أولاده المدارس العصرية الفاسدة المختلطة المليئة بالفساد، والتي كانت في الستينيات والسبعينيات تعجُّ بالإلحاد والملحدين، ولولا أن الله ﷻ قيَّض لها دعاة أنقذوها، لكان الكل ملحداً، ولكن الأمر قد خفَّ نسبياً الآن، علماً بأن أغلبهم منحلون عقيدةً وأخلاقاً. أما اختلاط الذكور بالإناث مع التفرنج والتبرُّج والفساد، فذلك مما يندى له الجبين، فهو لا يزال في انتشار وتزايُد، لذلك كان موقفه من هذه المدارس تحريم التعلُّم فيها؛ لأنَّ المتعلم فيها لا يسلم من فساد عقيدته وأخلاقه غالباً.

وهذا الرأي السديد لم يوافقه فيه أحد إلا الأشقاء الأربعة: السيد أحمد، والسيد الزَّمزمي، والسيد عبد الحي، والسيد عبد العزيز أبناء الصِّديق، إلا أن

الأخيرين كانا يمنعان تعليم البنات فقط رحمهم الله تعالى رحمة واسعة. أما غير هؤلاء فقد أخذهم السَّيْل، وانساقوا مع الواقع القَذر.

وكم كان يتمنَّى أن لو تآلفت الجماعات الإسلامية، وأسَّسوا مدارس إسلامية نظيفة، للإناث مدارس خاصة، وللذكور، كذلك وتكون على نظام إسلامي... كما هو موجود في السعودية وغيرها لكن كل ذلك لم يقع ولا يقع، لأن أعداء الإسلام في الداخل والخارج لا يرضيهم ذلك ولا يوافقون عليه... نعم اختار لأولاده الذكور تحفيظ كتاب الله ﷻ وتعليمهم ما يحتاجونه في دينهم، فحفظهم الله من الشيوعية والعلمانية والأفكار الهدَّامة، كما أنه حافظ على بناته من الميوعة وتبرج الفتيات، واحتكاكهنَّ بالشباب حتى زوَّجهن، والحمد لله.

٤٠ ـ ومنها: أن الله ﷻ حفظه من التدنُّس بتعلم اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنجليزية... بُغضاً في أهلها، وبُعداً عن قراءة ما يأتي عنهم من أضاليل... رغم أنه يرى أن تعلُّم اللغات من فروض الكفاية من أناس خاصين لأجل الترجمة والدعوة، وليس ذلك لكل أحد.

٤١ ـ ومنها: حفظه من الكتابة في الجرائد والصحف العامة... ويرى تحريم ذلك؛ لأن الصحف مآلها الامتهان والقمامة، ولا تخلو من قرآن أو حديث أو اسم الله تعالى، وامتهانُ ذلك كفرٌ وردَّة عند العلماء، كما هو مذكور في كتب الردة من الفقه الإسلامي.

لذلك فهو لا يكتب فيها، ولا يستجيب لمن يريد استجواباً معه لينشره، لأنه يعلم علم يقين أن ما سيكتب عنه سيعرضه للامتهان، وسيكون مسؤولاً عن ذلك أمام الله تعالى. ورغم ما في ذلك من الخطر على دين المسلم تجد الناس لا يهتمون بذلك ولا يعيرونه أي قيمة.

وهذا الخُلق ممَّا تبع فيه شيخه الحافظ السيد أحمد بن الصدِّيق رحمه الله تعالى، فقد كان مُتشدِّداً في ذلك جداً، حتى إنه كان يحرِّم قراءة الجرائد، وكان قد همَّ بكتابة رسالة في ذلك يسميها: «**الضرب بالحدائد على قراء الجرائد**».

٤٢ ـ ومنها: أنه ما أدخل التلفاز بيته الخاص ولا اقْتَنَاه، مع استعمال كل الناس له بعوامهم وخواصِّهم وعلمائهم وأمييهم؛ لأنه يراه ذا حَدَّين فيه خير وشر، لكنْ شرُّه أكثر من خيره، خاصَّة وأن رجال الإعلام أكثرهم علمانيون إباحيون لا يريدون الخير والفضيلة للبشرية، وإنما هدفهم التهديم ونشر الفضائح بواسطة هذا الجهاز، ويراه إضافة عن كونه شغالاً عن المهمات داعياً إلى الغفلة وتضييع الوقت هو أشدّ المعاول التي يستغلها الأعداء وعملاؤهم لنشر فضائح الكفار وإفساد أخلاق الشباب والفتيات.

وقد أثَّر تأثيراً ملموساً على حياة المسلمين وأخلاقهم، وانتشر الفساد به، وكشفت العورات، وظهر في الشارع فَضْلاً عن الداخل ما لم يعهد فيما قبل. والناظر فيه لا يخلو من معصية النظر إلى النساء الجميلات المتفرنجات المتبرجات اللائي يتولين إذاعة الأخبار إلا من غضَّ بصره، وقليلٌ ما هم.

ومع كلِّ ذلك فقد ينظر فيه أحياناً عند بعض أولاده وقت إذاعة خبرٍ مهم، أو للترويح عن النفس.

٤٣ ـ ومنها: كثرة حَجَّاته وعمره وقد تمَّ له لوقته ٣٤ حجة وأكثر من أربعين عمرة، فإنه قد يعتمر في العام مرتين وثلاثاً، فالحمد لله على ذلك. ولا يزال ينتظر الفَضْل من الله حتى الموت.

٤٤ ـ ومنها: كثرة مبشِّراته التي رآها أو رُئيت عليه، وفيها مرائي نبوية وغيرها، وسيأتي لها فصل خاص بإذن الله تعالى بخصوصها.

٤٥ ـ ومنها: هدايته للقراءة مع الطلبة، وتأسيسه معهداً لتحفيظ القرآن وتدريس العلوم الدينية منذ شبيبته. ومعهده أقدم المعاهد الدينية الحرة بطنجة.

٤٦ ـ ومنها: أنه ختم مع الطلبة كثيراً من الكتب في مختلف العلوم، وختم معهم الأمهات الست: البخاري ومسلماً أكثر من خمس مرات، وأبا داود والنسائي والترمذي وابن ماجه مرة مرة، ومسند الإمام أحمد بن حنبل من أوله إلى آخره، وسنن الدارمي، وموطأ الإمام مالك، والأدب المفرد للبخاري

وغيرها، وختم معهم التفسير ستَّ ختمات، وكل ذلك من نعم الله تعالى عليه العظيمة.

٤٧ ـ ومنها: تدريسه للعديد من كتب السنة والحديث، وفيها بعض كتبه بالمسجد النبوي الشريف مع عدد من تلامذته، وكذا بالمسجد الحرام. وهي منَّةٌ عظيمةٌ وعظيمةٌ جداً.

٤٨ ـ ومنها: أنه مرَّ على أكثر من خمسين ألف حديث، وأنه أصبح يستحضر أكثر الأحاديث النبوية، ويعرف الضعيف أو الموضوع منها بمجرَّد سماعه... وله إلمامٌ بالصناعة الحديثيَّة بحيث يستطيع أن يصحِّح أو يحسِّن أو يضعِّف حسب القواعد الحديثية، فالحمد لله على ذلك.

٤٩ ـ ومنها: توفيقه لتأليف كتب نافعة لم يسبق إليها، وقد انتفع الناس بها شرقاً وغرباً، وتنافسوا في اقتنائها، وبعضها مقرَّرة في بعض الجامعات والمساجد تدرس للطلاب وغيرهم، وبعضها تُرجم لبعض اللغات.

٥٠ ـ ومنها: هدايته للاشتغال بالكتاب والسنة والحديث النبوي ليل نهار، وأنه يحمد الله تعالى كثيراً على أن هيَّأه لذلك في وقت كله فتن ومغريات ومشاغل وعوائق.

❀ ❀ ❀

مبشّراته المناميّة

❐ مبشراته المنامية:

إنَّ الرؤيا المنامية الصادقة تُعتبر جزءاً من أجزاء النبوة كما جاء في الحديث النبوي الشريف، فقد قال ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**»، وفي رواية: «**الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح...**»(١).

فمن استهان بالمرائي الصالحة، واعتبرها من الخرافات، كان مبتدعاً ضالاً منحرفاً، إذ كيف تكون من الخرافات والقرآن الكريم والسنة النبوية ينصّان على أنها بشارة من الله تدل على ولاية صاحبها لله ﷻ.

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾. صدق الله العظيم.

فقد أخبر تعالى بأنه يمنح أولياءه في هذه الدنيا بشارة يعرف منها أن له ولاية من الله، وهذه البشرى جاءت مبينة في السنة الصحيحة عن نبيّنا ﷺ من طرق عن جماعة من الصحابة.

فعن أبي الدرداء ﷺ أنه سئل عن هذه الآية فقال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: «**ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت: هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له**»(٢)

---

(١) رواه البخاري عن أنس وأبي سعيد الخدري ومسلم عن ابن عمر وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهم وفي الباب أحاديث كثيرة. (المؤلف).

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن جرير والحاكم من طرق بعضها صحيحة. (المؤلف).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**فالرؤيا الصالحة بشرى من الله ﷻ**».

وفي صحيح البخاري وغيره عنه ﷺ أنه قال: «**لم يبق من النبوة إلا المبشرات**»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «**الرؤيا الصالحة**»...

وفي صحيح مسلم نحوه وفي آخره: «... **إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له**».

فالرؤيا الصالحة مع كونها بشرى للمؤمن هي جزء من أجزاء النبوة. قال ابن القيم رحمه الله تعالى في «مدارج السالكين»: المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة، وهي جزء من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**».

وقد قيل في سبب هذا التخصيص المذكور: أنَّ أول مبتدأ الوحي كان هو الرؤيا الصَّادقة، وذلك نصف سنة، ثم انتقل إلى وحي اليقظة مدة ثلاث وعشرين سنة من حين بعث إلى أن توفي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه، فنسبة مدة الوحي في المنام من ذلك جزء من ستة وأربعين جزءاً وهذا حسن... إلى آخر ما ذكره، فراجعه فإنه مهم.

وللنووي والمازري والخطابي والحافظ كلام في الموضوع ذكرته في «المنح الإلهيَّة» المطبوع عام ١٣٨٣.

وبعد هذه النبذة في ذكر أهمية الرؤيا المنامية الصَّادقة في الإسلام، نورد ما بشَّرنا به الله ﷻ في المنام، وسنقتصر على أهمها، ونبدأ بالمرائي النبوية:

١ ـ **من ذلك**: أنه رأى عام سبعة وستين وثلاثمئة وألف هجرية كأنه بالمسجد الأعظم بطنجة، فقيل له: هذا رسول الله ﷺ جالس، فأمَّه فوجده جالساً بزاوية الجنوب الشرقي من المسجد على هيئة عالم عليه جلابية بيضاء وبرنس وعمامة ولحية سوداء، فقبَّل يده، فقال له ﷺ: قم فاجمع الزكاة، فذهب وجعل يجمع القروش من جالسي المسجد، فأتاه بها في حجره، فقال

له: زكِّها، فأجابه: وكيف ذلك؟ فقال له: أو لست تزكِّي القرآن، وأنك تقرأ منه حزباً صباحاً ومثله مساءً؟ فقال له: بلى، فقال: كذلك هذه. ثم قال في نفسه: الحمد لله الذي أتاني رسول الله ﷺ لآخذ عنه العلم وأدرس عليه، فاستيقظ وهو فرح والدموع تتهاطل على خدِّه.

٢ ـ **ومنها**: أنه رأى عام تسعة وستين وثلاثمئة وألف هجرية كأنه نازل من مَرْشان إلى المدينة، ولما وصل إلى رأس عقبة مدرسة ابن الآبار قَصَده رجل من طرف الطريق الغربي، وكان صاعداً من جهة المدينة فألقى في روعه: هذا رسول الله ﷺ، فأقبل نحوه، فلمَّا دنا منه قال له: تعال إلينا لنراك، فإنك شيء كبير، فعانقه وجعل يبكي، فوضع يده ﷺ على كتفه، وجعل يرفعها ويضعها، فاستيقظ وأثر البكاء على وجهه.

٣ ـ **ومنها**: أنه عام أربعة وسبعين وثلاثمئة وألف رأى كأنه بدار شيخه السيد أحمد بن الصدِّيق جالس على فراش والشيخ إلى جَنْبه، فقال له: ادْنُ مني أنا رسول الله ﷺ، فدنا منه وجعل يقبِّل يده.

٤ ـ **ومنها**: أنه كان عام إحدى وثمانين وثلاثمئة وألف مُصْطافاً بالبادية، وكان يقرأ جامع الترمذي، فرأى كأنه في جماعة مع رسول الله ﷺ، وكان جالساً عن يمينه، فأُتي بقدح من لبن، فشرب منه، ثم ناوله عبد ربه فشرب سُؤْر رسول الله ﷺ.

٥ ـ **ومنها**: أنه رأى في شوال من سنة ١٣٨١ كأنه في جماعة مع رسول الله ﷺ يذكرون الله تعالى، فجعل يسأل الله تعالى ويستشفع إليه برسول الله ﷺ، ويبكي، والنبيُّ ﷺ يذكر الله ﷻ بصوت مُطْرب. وكانت هذه الرؤيا كسابقتها وقت قراءته جامع الترمذي بالبادية.

٦ ـ **ومنها**: أنه في هذا العام ١٣٨١ للهجرة رأى كأنه في بيت فجاء رجل قائلاً: هذا رسول الله ﷺ خارج المنزل يحلق رأسه، فخرج في جماعة فوجدوه قد فرغ من حلق رأسه، فصار الجميع يقبلونه من رأسه وكتفيه وهو

جالس مطأطئ رأسه. فلما رفع رأسه نظر إلى عبد ربِّه، وكان على صفة بعض إخواننا العلماء وله لحية كثة سوداء.

٧ ـ **ومنها**: أنه رأى عام اثنين وثمانين وثلاثمئة وألف كأنه في جماعة، ثم جاء رجل مستدير الوجه كبيره يتلألأ نوراً، له لحية بيضاء كبيرة، فعانق من كان على يمينه، ثم عانقه وقبَّله، ثم قال له: أنا رسول الله ﷺ، ثم عاد إلى تقبيله.

٨ ـ **ومنها**: أنه رأى في هذا العام ١٣٨٢ للهجرة كأنه في جماعة ومعهم رسول الله ﷺ، وكان عبد ربِّه بين يديه، فانحنى على رجْلَي النبيِّ ﷺ فجعل يقبِّلهما، بدأ باليمنى ظاهرها وباطنها، ثم اليسرى كذلك، والنبيُّ ﷺ يرفع رجليه وهو يضحك، ثم أقيمت صلاة الصبح فتقدَّم ﷺ وصلَّى بهم.

٩ ـ **ومنها**: أنه رأى في هذا العام أيضاً كأنه يقاتل رجلَين من أعدائه، فقيل له: هذا رسول الله ﷺ خلفك يدافع عنك، فلما أصبح قابله رجلان، وأرادا به شراً، فدفع الله عنه شرهما...

١٠ ـ **ومنها**: أنه رأى مرة كأنه بالحرمين يريد زيارة رسول الله ﷺ، وبعد قليل أقبل عليه الصلاة والسلام، ودنا منه، فحصل له منه حياء وتخشُّع، وكان في صورة بعض أشياخه في القرآن.

١١ ـ **ومنها**: أنه رأى مرة كأن قائلاً يقول: هذا رسول الله ﷺ جالس مع سيدي أحمد بن الصدِّيق، ولا يجلس معهما إلا فلان، يعنيه.

١٢ ـ **ومنها**: أنه رأى ثاني يوم النحر عام ١٤٠٧ للهجرة وهو بمكة المكرمة، كأنه دخل المسجد النبوي الشريف فوجده ﷺ قاعداً وراء الروضة الشريفة، فلما رآه ناداه: تعالَ صلِّ هاهنا، يعني إلى جنبه الشريف، فكبَّر للصلاة، وجعل ينظر إليه، فلما فرغ من الصلاة وجده قد انصرف. فعلم من هذه الرؤيا أن السنة في زيارته ﷺ أن تكون بعد تحية المسجد فيه.

١٣ ـ **ومنها**: أنه رأى كأنه مع جماعة ورسول الله ﷺ محتَضَر، فدنا منه

وجعل يقبِّله، وإذا وجهه وضيءٌ مُشْرق كالشمس، ثم صار يصغر شيئاً فشيئاً حتى أصبح مثل طفل صغير.

١٤ ـ **ومنها**: أنه رأى في رمضان عام تسعة وتسعين وثلاثمئة وألف كأنه في جماعة والنبيُّ ﷺ جالس قبالته، فسأل عبد ربه رجل من الجماعة بحضرته عليه الصلاة والسلام عن صلاة الضحى؟ فقال له: هي ركعتان إلى أربع، ثم قال للنبي ﷺ: الحديث الذي رَوَته أم هانئ عنكم[١]، بأنكم صليتم يوم الفتح أربع ركعات بعدما اغتسلتم، وكان ذلك ضحى قال: نعم، وأشار برأسه ﷺ، فقال له: أكان ذلك منكم شكراً لله ﷻ على الفتح؟ فأشار أيضاً برأسه، أي نعم، فأراد أن يقوم ليقبِّل يديه، فاستعظمه واستحيا منه وجعل يبكي.

وعقب هذه الرؤيا امتحن بالسجن من طرف الظلمة المعتدين...

١٥ ـ **ومنها**: أنه لما ختم تهذيب جامع الترمذي عام ١٣٩٣ للهجرة بتوفيق الله تعالى وعونه، رأى صبيحة يوم ١٣ شعبان كأنه بموضع مع شخص وأم المؤمنين مولاتنا عائشة ﵄ معهما، وبعد قليل جاء النبيُّ ﷺ حتى دنا منه وبيده رغيف، وكأنه جاء من التهجُّد، فأشار إلى أمِّ المؤمنين فقامت، وجعلا يتسحَّران.

١٦ ـ **ومنها**: في صبيحة ٢٩ من ذي القعدة عام ١٤٠٨ للهجرة كان تأخر عن حضور الموسم فلم يحج، فرأى كأنه ذاهب لزيارة قبر رسول الله ﷺ في جماعة وجمٍّ غفير، فسبقهم إليه، فوَجَده ﷺ مُضطجعاً، فجعل يتأدب ويستعطفه، ويمدُّ إليه يده ويبكي وينادي قائلاً: يا رسول الله يا سيدي... وبعد قليل قعد ﷺ، واتَّجه إليه، وإذا بصورته في غاية الجمال، وعليه لباس أبيض فقال عبد ربه: يا رسول الله ادع الله تعالى لي أن يجعلني في أمن من العذاب، فرفع يديه الشريفتين إلى حيال وجهه المقدَّس، وأشار إليه برأسه أي نعم، ثم

---

(١) والحديث المشار إليه في الأربع ركعات أورده الهيثمي في «المجمع» برواية كبير الطبراني وأوسطه وقال فيه: رجاله ثقات. وهو يعارض حديث أم هانئ المخرج في الصحيحين وأنه صلى ثمان ركعات. (المؤلف).

تقدم إليه بغاية من الخشوع والأدب فمدَّ إليه يده الشريفة، فجعل يقبلها ظهراً وبطناً ويبكي، ثم تأخر القهقرى متأدباً، وهو يقول: يا سيدي يا رسول الله ﷺ.

١٧ ـ **ومنها**: أنه رأى في صبيحة ١٢ من ربيع الأول عام ١٤١٢ للهجرة، كأنَّ النبيَّ ﷺ أمامه وهو يصلِّي صلاةً خفيفة، فجعل ينظر إليه ويصعِّد النظر فيه، وإذا برجليه بيضاوين، وعليه قميص ليس بالطويل، وقد اتَّزر سروالاً عربياً واسعاً.

١٨ ـ **ومنها**: أنه رأى في أول يوم من جمادى الأخرة عام ١٤١٢ للهجرة كأنه يحكُّ جسم النبي ﷺ، فحكَّه من جوانبه الأربعة، ثم انتهى إلى ظهره، فباشر شعر خاتمه، ثم جعل يقبِّل كتفه الشريفة البيضاء الناصعة.

١٩ ـ **ومنها**: أنه رأى مؤخَّراً كأنه بالمسجد الحرام حول الكعبة، والنبي ﷺ واقف حذاءها لجهة الغروب، والكفار محدقون به، يجذبونه من ثيابه، فتقدَّم يريد الدفاع عنه وينصره، فأشار إليه بيده أن يتركهم... وهذه الرؤيا إن عبرت على ظاهرها دلت على أمر سلبي في الدفاع عن الدين ومقدَّساته، فالله أعلم.

٢٠ ـ **ومنها**: أنه رأى ليلة ٢٩ من ذي الحجة عام ١٤٢٢ للهجرة كأنه دخل حجرة فيها النبي ﷺ، فجلس أمامه، وكأنه معه من زمان، فدخل في أثره أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وكأنه طفل صغير أسود، وفي يده كوز من حليب فدفعه إلى النبي ﷺ، فأخذه، ثم وضعه على شيء بين يديه، فقال عبد ربه في نفسه: الآن سيشرب ويعطيني فأشرب سؤره، ثم استيقظ وإذا الساعة تشير إلى الثالثة ليلاً...

٢١ ـ **ومنها**: أن جماعة رأوا النبي ﷺ على صورته تكرَّر ذلك مراراً.

وهناك مرائي نبويَّة كثيرة هذه أهمها نرجو الله ﷻ بفضله وإحسانه أن يجمع بيننا وبينه في دار رحمته، وأن يحشرنا في زمرته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ومن المبشِّرات غير ما سبق من المنامات المحمدية:

أنه لما طبع الحافظ سيدي أحمد رحمه الله تعالى «مطابقة الاختراعات العصرية»، وبعث إليه نسخاً منها ليوزعها على أصحابها رأى سيدنا موسى كليم الله عليه الصلاة والسلام على صورته، وسمع منادياً يقول: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ الآية. فألقى عصى كانت بيده، فانقلبت حيَّة، وأقبلت نحوه فخاف منها، فقال له: لا تخف منها فإنها لا تضرك...

وعقب هذه الرؤيا بقليل رأى كأنه يوسف نبيُّ الله عليه الصلاة والسلام، وإخوته محدقون به يريدون به شراً، فنادى بعضهم: لا تقتلوه، فالتفت إليهم وقال لهم: أنتم أولاد يعقوب ﷺ؟ فقالوا: نعم، فجعل يبكي...

وقد ظهر صدق هذه الرؤيا بكل ما حصل لسيدنا يوسف ﷺ، فإخوته في الله بيَّتوا له شراً وأرادوا به كيداً، فحال الله تعالى بينه وبين ما أرادوا.

ومنها: أنه رأى كأنه ذهب لزيارة النبي ﷺ، فدخل المدينة في جماعة، وكان أولهم، ولما أشرفوا على بابها خرجت مولاتنا عائشة ﵂ لملاقاتهم، وكانت في صورة شابة طويلة عليها لباس طويل وخمار قد غطت به رأسها وعنقها، فجعلت تقول لهم: مرحباً مرحباً مرحباً ادخلوا، فخلع نعليه، وقال في نفسه: لا يمكن لي أن أطأ هذه الديار بنعلي، وصار يقبِّل تراب الطريق والأزقة ويتمرَّغ عليها، ويبكي.

وعقب هذه الرؤيا تفضَّل الله تعالى بالحجة الأولى مع جماعة من الإخوان عام ١٣٨٣ هجرية.

ومنها: أنه رأى جماعة من الصحابة ﵃ كان منهم سلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وأمير المؤمنين سيدنا عمر رآه مرتين رضي الله تعالى عنهم جميعاً... وهناك مرائي كثيرة تحمل بشارات رآها بنفسه أو رآها غيره، ولاستيعابها موضع آخر إن شاء الله تعالى...

❑ خاتمة لهذه المنامات:

لأهمية المنامات الصالحة ألف الحافظ ابن أبي الدنيا كتاب «المنامات» أورد فيه كثيراً من المرائي الصالحة، واقتفى أثره كثير من العلماء، فأفردوا في ذلك رسائل ذكروا فيها مبشِّراتهم، منهم العارف ابن أبي جَمْرة، وأبو المواهب الشاذلي، وابن العربي الحاتمي في آخرين... واهتمَّ علماء التاريخ والتراجم بذكر رؤى العلماء والصالحين، فحلية الأولياء، وتاريخ بغداد، وتذكرة الحفاظ، وسير أعلام النبلاء، وتاريخ ابن عساكر لدمشق، والبداية والنهاية... وغيرها مليئة بذكر المرائي المنامية الصالحة.

❀ ❀ ❀

رحلاته

□ **رحلاته:**

كانت الرحلة عند العلماء في القديم من أهم أمور حياتهم العلمية، فقد كانوا يتجشَّمون المتاعب والشدائد في ذلك، حتى كان الواحد منهم ربما بقي في الرحلة الواحدة عدة سنوات، ولهم في ذلك نوادر وحكايات غريبة تجدها في تراجمهم...

وعبد ربه قد شدَّ رحلات لحفظ القرآن وتصحيحه في البادية، ثم شدَّ الرحلة لطلب العلم بطنجة، ثم لفاس، ثم لسلا... ثم صارت أهم رحلاته وأشرفها وأبركها رحلاته للحج والعمرة وزيارة نبيِّنا ﷺ...

وأثناء هذه الرحلات زار القاهرة ودمشق أكثر من خمس مرات، وزار القدس والخليل مرتين، وزار بغداد ثلاث مرات، والكويت ثلاثاً أيضاً، ولبنان مرات عديدة، وزار ليبية وتونس والجزائر، وتجوَّل في سائر مدن المغرب: تطوان، الحسيمة، الناظور، وَجْدة، تازة، فاس، مكناس، القنيطرة، سلا، الرباط، الدار البيضاء، الجديدة، أزمور، آسفي، الصويرة، مراكش، أكادير، تزنيت، القصر الكبير، العرائش، أصيلةً إلا أنه لم يدخل الصحراء...

ورحل إلى بلجيكة مرات وهولاندة ومرَّ في طريقه للحج على إسبانية، وفرنسة، وإيطالية، ويوغوسلافية، وبلغارية، واليونان، وتركية، وحلب ثلاث مرات...

ولقيَ في هذه الرحلات كثيراً من العلماء والصالحين، والدعاة وذوي الفكر.

❀ ❀ ❀

مؤلفاته

□ مؤلفاته:

له بفضل الله وتوفيقه مؤلفات كثيرة فيها ذوات المجلدات وذوات الرسائل.

وأول مؤلفاته التي ظهرت لعالم المطبوعات: «**الصارم المبيد**»، الذي ردَّ فيه على أحد علماء طنجة، حين حكم على أكثرية عوام المسلمين بالشِّرك بالله وبطلان إيمانهم، حيث قال في كتاب له يشرح كلمة التوحيد: بأن من اعتقد في معنى لا إله إلا الله: لا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا نافع ولا ضار إلا الله، لا يكون بذلك مؤمناً، بل لا يخلو من الشرك. فرد عليه، وفنَّد كلامه بأدلة ناصعة مفحمة، وطبع الكتاب عام ١٣٨٠ هجرية.

٢ ـ ومنها: «**تهذيب جامع الترمذي**»، اختصره بحذف أسانيده والاقتصار على الصحابي ومتن الحديث وكلام الترمذي عليه، ثم تكلمه على الأحاديث ورتبها حسب القواعد مع شرح موجز بحواشي الكتاب، فتمَّ عام ١٣٩٣ للهجرة ثم طبع في ثلاثة مجلدات بدار الفكر في بيروت.

٣ ـ ومنها: «**تهذيب الخصائص الكبرى**»، للحافظ السيوطي رحمه الله تعالى، هذَّبه بحذف الأحاديث الضعيفة والموضوعة والاقتصار على الصحيحة والحسنة، مع تخريج الأحاديث وشرح ما يستحقُّ الشرح، فجاء في مجلد ضخم في ثلث الأصل، وكان تأليفه بين ١٤٠٠/١٤٠١ هجرية، ثم طبع مرتين مرة بطنجة ومرة ببيروت، وللطبعة الثانية مقدمة هامة ونقد لتعليقات خليل الهراس محقِّق الخصائص.

٤ ـ ومنها: «**جواهر البحار بصحاح الأحاديث القصار**» لم يسبق إليه،

وموضوعه ذكر نحو من ألفي حديث تقريباً صحيحة قصيرة لا يجاوز أحدها سطراً مخرَّجة معزوَّة للأمهات المشهورة مشروحة شرحاً مبسّطاً، مرتَّبة على حروف المعجم، مع ترتيبها آخر الكتاب على الكتب والأبواب والموضوعات، ثم طبع في مجلدين، وكان تأليفه أيام حرب أمريكة وحلفائها للعراق عقب احتلال هذه للكويت.

وقد تنافس الناس في اقتنائه، وعكف أهل العلم على قراءته، وارتفع سعره، ونفد من السوق.

٥ ـ ومنها: «**إتمام المنة بشرح منهاج الجنة في فقه السنة**»، وهو شرح لمنهاج الجنة الذي كان طبعه مرتين، طبع أولاً بتطوان المغرب عام ١٣٨٧ للهجرة، ثم أعيد طبعه ثانياً عام ١٤٠٨ للهجرة، وتكرَّرت الطلبات في شرحه من الكثيرين، ثم كان لشرحه قصة مفادها أنه رأى بعض مشايخه الأموات عام ١٣٩٢ هجرية يقول له: إن الناس قد انتفعوا بكتابك... وها هم ينتظرون منك أن تشرحه لهم، فشرع في شرحه في ذلك الحين، وشرح منه كتاب الطهارة، ثم جاءت عوائق حالت بينه وبين إتمامه إلى عام ١٤١٧، فألهمه الله ﷻ إتمامه في قصة أخرى عجيبة، ذلك أنه كان يشتغل في كتابة «بداية الوصول» ففقد كراسة منه وتعب في البحث عنها، وكان محتاجاً إليها للاعتماد عليها في الكتابة، فتوقف عن الكتابة، فأتاه خاطر خاطف في إتمام الكتاب «إتمام المنة»، فأعطاه كليَّته، وعندما فرغ منه وجد الكراسة من دون بحث عنها، فالحمد لله على إنعامه وإلهامه.

وموضوع الكتاب بيان العبادات حسب ما جاءت به السنة الصحيحة أو الحسنة خالياً عن الأقوال والآراء الاجتهادية التي لا دليل لها، وهو كتاب قيم لأنه فقه السنة المجرد.

٦ ـ ومنها: «**دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون**»، جمع آيات دلائل التوحيد المتمثِّلة في هذا الكون الفسيح، وهي نحو سبعمئة تَتَبَّعها وشرحها مُرتَّبة على سُوَر القرآن الكريم، وجعل للكتاب مقدِّمة هامة، وهو

كتاب نافع جداً في التعرُّف على الإله، وحقيَّة القرآن والوحي والرسالة، طبع في مجلد ضخم ببيروت بدار ابن حزم.

٧ ـ ومنها: «**تهذيب الشفا**»، للقاضي عياض، حذف منه أكثر من مئة وخمسين حديثاً موضوعاً ومنكراً وما لا أصل له أو كان شديد الضعف، وخرَّج أحاديث الكتاب تخريجاً علمياً، طبع في مجلد ضخم ببيروت بدار البشائر الإسلامية.

٨ ـ ومنها: «**الجواهر واللآلئ المصنوعة بتفسير كتاب الله بالأحاديث الصحيحة المرفوعة**»، جمع فيه ما جاء في السنة المطهرة المرفوعة من شرح أو كلام على آيات القرآن الكريم على شريطة أن يكون الحديث صحيحاً أو حسناً مرفوعاً، وامتاز الكتاب بذكر خصائص كل سورة ممَّا لم يذكر في غيرها، وهو عمل لم يُسبق إليه والحمد لله. يطبع الآن بدار البشائر الإسلامية ببيروت في مجلدين ضخمين.

٩ ـ ومنها: «**المُطْرب بمشاهير أولياء المغرب**»، وهو كتاب في تاريخ بعض مشاهير العلماء والصالحين من أهل المغرب الأقصى، طبع مرتين بطنجة المغرب، ومرة ببيروت.

١٠ ـ ومنها: «**الفوائد والعبر من عجائب الأقدمين**» في مجلد. طبع بالمغرب وببيروت مرتين، مفيد جداً، فيه عجائب وعبر من تواريخ الأقدمين وقصص صحيحة مرفوعة.

١١ ـ ومنها: «**نصب الموائد في الفتاوى والنوادر والفوائد**». طبع منه جزآن، فيه فوائد غزيرة.

١٢ ـ ومنها: «**أسباب هلاك الأمم**» في جزء متوسِّط، موضوع في الأسباب التي أهلك الله بها الأمم مُسْتقاة من القرآن والسنة النبوية. طبع مرة بطنجة، ومرتين ببيروت في دار البشائر الإسلامية.

١٣ ـ ومنها: «**المبشَّرون بالجنة**»، في جزء جمع فيه المبشَّرين بالجنة من الصحابة وغيرهم، وهو كتاب مُطْرب.

١٤ ـ ومنها: «**مشاهد الموت وأهوال البرزخ والقبور**» في جزء. كتاب مؤثِّر يحمل على التزوُّد للآخرة. طبع ببيروت.

١٥ ـ ومنها: «**الأنوار الباهرة في فضائل الذُّرِّيَّة الطاهرة**»، في فضائل أهل البيت النبوي في السنة الصحيحة.

١٦ ـ ومنها: «**فضائل الصحابة في القرآن والسنة وموقف الشيعة منهم**». طبع ببيروت في مجلد متوسط.

١٧ ـ ومنها: «**تهذيب الاستنفار في غزو التشبه بالكفار**» في جزء متوسط. طبع بتطوان وببيروت.

١٨ ـ ومنها: «**زاد المتقين في صحيح أذكار وأدعية سيد المرسلين**». طبع مزات في جزء وهو نافع قيِّم.

١٩ ـ ومنها: «**حياة الشيخ سيدي أحمد بن الصديق رحمه الله تعالى**»، وهو غير راضٍ على كلِّ ما فيه، فقد تراجع عن أشياء ذكرها فيه. طبع عام ١٣٨٣ بتطوان.

٢٠ ـ ومنها: «**دَرُّ الغَمَام الرقيق في رسائل سيدي أحمد بن الصدِّيق**»، وهي رسائل علمية كاتبه بها السيد المذكور. طبع في مجلد ببيروت.

٢١ ـ ومنها: «**القدس الشريف وكيف احتله الصهاينة**»؟ طبع عام ١٣٨٧ هجرية بتطوان.

٢٢ ـ ومنها: «**المرأة المتبرِّجة وأثرها السيء في الأمة**». كتاب قيِّم يتعلق بالمرأة لا يستغني مسلم غيور عن قراءته واقتنائه. طبع بتطوان، ثم ببيروت بدار ابن حزم.

٢٣ ـ ومنها: «**أهل السنة والشيعة بين الاعتدال والغلو**»، وهو كتاب قيم ذكر فيه عقائد الشيعة المتطرِّفة، وما يقولونه ويتداولونه فيما بينهم في الله وفي الأنبياء، وفي الصحابة، وفي أهل البيت، وفي القرآن، وفي سائر المسلمين من الطامات والعظائم، لا يستغني عنه مسلم سليم العقل والفطرة. طبع بطنجة عام ١٤٢٢ هجرية مرتين.

٢٤ ـ ومنها: «**بداية الوصول بلُبِّ صحيح الأمهات والأصول**»، وهو مَعْلَمَة علمية حديثية، سيطلع في عدة مجلدات، وسوف يشرع في طبعه مسلسلاً في أقرب وقت بإذن الله تعالى وتوفيقه.

٢٥ ـ ومنها: رسائل أخرى كثيرة مطبوعة بتطوان قديماً، وليس هو راض عن بعضها، فقد تغيَّر رأيه في أشياء منها، وأخرى مخطوطة لم تخرج إلى الوجود بعد.

منها: «إتحاف المسلم بزوائد جامع الترمذي على البخاري ومسلم»، ويليه «الرائد بمفتاح الزوائد»، وكتاب «البراهين السامية في عقيدة الفرقة الناجية»، وكتاب «الاحتساب على مَنْ خالف من المالكية الأصحاب»، وكتاب «الفتوحات الربانية في اختصار الشمائل المحمدية»، وكتاب «شرح البيقونية في مصطلح الحديث» كتبه قديماً، وكتاب «تخريج أحاديث شرح البردة» للإمام ابن عجيبة رحمه الله المسمَّى «تفريج الكربة بتخريج أحاديث شرح البردة»، ورسالة في «الشفاعة وأنواعها»، ورسالة في «أحكام الجمعة وأسرارها»، ورسالة «الرحمة المنشورة بشرح قصيدة مدح الطائفة المنصورة»، وجزء في «رفع اليدين في الصلاة»، ورسالة في «القنوت في الصلاة»، وغيرها من الرسائل الأخرى...

فالحمدُ لله على توفيقه وهدايته أولاً وآخراً، وبدءاً وعَوْداً، وصلى الله وسلَّم وبارك على نبيِّه ورسوله سيِّدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه.

❀ ❀ ❀

نموذج من رسائله وأجوبته العلمية في الفقه والحديث وغير ذلك

كتب بيده عدَّة رسائل إجابةً عمَّا كان يأتيه من أسئلة علمية في مختلف الموضوعات والقضايا والحوادث، ولا تخلو جهة من الجهات إلا وله فيها أجوبة علمية بحيث لو جمعت لجاءت في عدة أجزاء. وهذا نموذج من تلك الرسائل نقتصر على أهمها باختصار، فمن ذلك:

«. . . أما بالنسبة لما نعيش فيه من الغربة وقلَّة الأخ الصادق، وكثرة ما نعانيه من أنواع إذاية الخلق، فهذا شيء ضروري وعادي لمن يحاول الالتزام بدين الله تعالى، والتمسُّك بهدي رسوله ﷺ. ومرض المؤمنين في ذلك واحد، وقد أرشدتك مراراً إلى ما يجب أن تسلكه مع الناس وخاصة الإخوان والأصدقاء. . . فالواجب على المسلم وخاصة رجل العلم والدعوة إذا ابتلي بمخالطة الناس أن يكون صبوراً حكيماً، فلا بد وأن يتحمَّل الأذى ويصبر عليه وأن يؤثر الحسنة على السيئة: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ثم لا بد وأن يسلك مع كل الناس طريق الحكمة والتأنّي في الأمور، والنظر إلى العواقب، وعدم الاستعجال في التصرُّفات.

والمقصود أنه يجب عليك أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، وأن تغض الطرف عن كثير من هفواتهم، وأن لا تتدخَّل في شؤونهم، وإلا نهشوك نهشاً، وعشت معهم في تعب دائم. . .».

ومنها: «. . . إنني لم أفهم مرادكم بالنكاح، فإن كنت تريد وقت عقد النكاح، فالعقد لا وقت له، فالأيام والليالي كلها أوقات له إلا أوقات الصلاة وما في معناها، وإن كنت تريد النكاح بمعنى مواقعة الزوجة يوم الجمعة للإحراز على ثواب ما ورد في حديث: «من غسَّل واغتسل»، الحديث. فيوم الجمعة من طلوع فجره إلى زواله كله وقت له. . .».

ومنها: «... أما قضية ذلك الإمام فقد ارتكب ذنباً عظيماً حيث نسب بنت الغير إليه، وسجَّلها معه في كُنَّاش الحالة المدنية باعتبار أنها بنته تنتسب إليه وترثه. فهذا منكر يجب الإقلاع عنه والتوبة منه، وإخراج تلك البنت من كناشه إما بعقد جديد، وإما بإبدال كناش آخر مع اعترافه بأنها بنت أجنبية عنه، وإلا كان مآله العقاب... هذا ما يتعلق به شخصياً، أما صحة الصلاة خلفه أو بطلانها فهذه لا علاقة له بذلك، وخاصة على مذهب المالكية وجمهور أهل العلم الذين يرون صحة المتلبِّس بالمعصية، لأنه ليس من شروط صحة الصلاة التنزُّه عن المعاصي، ولو كان الأمر كذلك لكان أول من تبطل صلاتهم تلك الجماعة القائمة على الإمام، فإنه لا يخلو واحد منهم من التلبُّس بكبار المعاصي، فلا معنى لإيقاف الناظر إياه عن الإمامة لأن ذلك لا دخل له في الإمامة...».

ومنها: «... واستعمال الإبرة لا لَوْم على مستعملها لأن التطبُّب والتداوي جائز مأذون فيه شرعاً: «تداووا عباد الله فإن الله لم ينزل داء إلا أنزل معه شفاء إلا الموت والهرم»[1]...».

«... وحفظ الصحة فرض لازم، لأنه بذلك يتمكَّن المسلم من القيام بالتكاليف الشرعية، والسعي على عياله، والقيام بشؤونه الضرورية، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، لذلك كان إدخال الضرر على الجسم تعمُّداً حراماً والتسبُّب في عطب الإنسان نفسه أو بعض جوارحه بلا إذن شرعي معصية كبيرة».

ومنها: «... أما البسملة في الصلاة فأمرها مشهور فاستحبَّها الجمهور في أول الفاتحة، وقال بوجوبها الشافعي وغيره، وللمالكية فيها عندهم خمسة أقوال: الوجوب، والحرمة، والاستحباب، والكراهة، والإباحة.

وقال القرافي من المالكية والغزالي من الشافعية: الورع قراءة البسملة

---

(١) روى هذا الحديث أحمد وابن ماجه عن أسامة بن شريك (المؤلف).

أول الفاتحة خروجاً من الخلاف، ونقل الحطاب في شرح مختصر خليل عن الشيخ أحمد زرُّوق رحمه الله تعالى قال: كان المازري يبسمل، فقيل له في ذلك قال: مذهب مالك على قول واحد: من يُبسمل لا تبطل صلاته، ومذهب الشافعيّ على قول واحد: من تركها بطلت صلاته. هذا مذهب العلماء ولا يخفى على مَنْ له أدنى إلمام بأدلة الكتاب والسنة أن الواجب يقضي بلزوم قراءتها سرّاً وجهراً، ولا معنى للقول بكراهتها أو تحريمها[1]. . .».

ومنها: «. . . أما حديث تذكُّره ﷺ أنه جُنُب، فليس فيه أنه ﷺ استرسل في صلاته مع الجنابة حتى يكون فيه دليل على صحة صلاة من صَلَّى على غير طهارة، بل كبَّر، ثم تذكَّر، فقطع صلاته، وقال لهم: «مكانكم»، ثم دخل منزله، فاغتسل، فجاء فاستأنف الصلاة. هذا معنى ما جاء في الصحيحين، وعلى رواية أخرى: أنه كبر، ثم أومأ إليهم، فلما جاء أتمَّ بهم الصلاة كما في بعض السنن. وفي هذه الرواية كلام طويل.

أما قياس فقدان طهارة الحَدَث على طهارة الخَبَث، فذلك باطل بالإجماع، لأن طهارة الخبث وهي إزالة النجاسة عن البدن والثوب والمكان شرطُ صحةٍ للصلاة مع الذكر والقدرة على إزالتها، ساقطة مع العجز والنسيان، وهذا متفق عليه. والنبيُّ ﷺ لم يكن له علم بنجاسة نعليه حينما صلى بهما حتى أعلمه جبريل عليه السلام بذلك، فخلعهما، وأتمَّ صلاته كما في الحديث الصحيح الذي أخرجه أبو داود وغيره.

أما طهارة الحدث وهي الوضوء فهي شرط صحة للصلاة أيضاً لكنها لا تسقط إلا عند العجز عن الوضوء أو التيمم، أما مع النسيان فلا تصحُّ الصلاة بذلك بالإجماع، بحيث من نسي فصلى مُحدثاً بلا وضوء، ثم تذكَّر وجبت عليه الإعادة مع الطهارة بخلاف من صَلَّى بالنجاسة ثم تذكَّر بعد فراغه فلا إعادة عليه إلا في قولٍ للمالكية أنه يعيد في الوقت. . .».

---

(١) بل يعدُّ هذا القول مع سوء الأدب مع الله مخالفاً لقواعد الشريعة ومقاصدها العامة، إذ كيف يسوغ الحكم على كلمة قرآنية طيبة كالبسملة بالكراهة والتحريم اهـ. (المؤلف).

ومنها: «. . . أما قراءة القرآن أو الذكر أو التهجُّد، فالأمر في ذلك يرجع إلى حالة الإنسان، فإن كان يجد في الانفراد من الخشوع والرقة والبكاء والحضور ما لا يجده مع الجماعة، فالأفضل في حقِّه الانفراد، لأن ما يحصل له هو المطلوب، وإلا فليحضر مع الجماعة، ولا سيِّما إذا كان يقع له كَسَلٌ وفتورٌ وضعفٌ بمفرده، وهنا يأتي: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ . . .

أما الخشوع وقوة الإيمان واليقين فتارة تحضر وأخرى تغيب حسب عوارض الحياة والحالة البشرية، فوقت التفكر في آيات الله الكونية، وتدبُّر القرآن، والحضور عند الذكر ليس كوقت الغفلة أو وقت مباشرة المعاصي أو ملابسة الشهوات أو عقب أكل حرام أو ما فيه شبهة. . . ومَنْ هذا الذي يستطيع أن يكون دائم الحضور والخشوع، وهؤلاء أشرف خلق الله وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يكونوا كذلك، والرسول الكريم ﷺ يقول لحنظلة: «ولكن ساعة وساعة يا حنظلة»، كما جاء في صحيح مسلم.

ومنها: «. . . ورؤيا الأنبياء حقٌّ لا يتلاعب بها الشيطان بخلاف غيرهم، وما رأيته من ظهور رسول الله ﷺ في صورتي تدل على وراثتي له ﷺ، وقيامي خليفة عنه. وقد تكررت هذه الحالة من جماعةٍ رأوه ﷺ على صورة عبد ربِّه الضعيف. . .

ورؤياكم إيَّاي في صورة والدكم والعكس، تدل على أنني قائم مقام والدكم في التربية والعطف. . . ورؤياك الخضر عليه السلام بشارةٌ لك بالالتحاق بالصَّالحين، والصلاة الأفضلية التي أمرك بذكرها هي الصلاة الإبراهيمية.

أما بالنسبة لتلك الرؤيا النبوية التي رأيته ﷺ فيها على تلك الصورة البهجة في ذلك الجمع العظيم وعبد ربِّه يخطب، هي تدلُّ على أننا في جهاد ومحاربة لأعداء الدين بما نلقيه في خطبنا المتواضعة، وأن الرسول الكريم ﷺ في صفنا ويجانبنا بجيوشه الباطنة. فالحمد لله في الأولى والآخرة».

«. . . أما سرقة الحديث فقد يكون رجل وضَّاع اختلق حديثاً، فيأتي كذاب ووضَّاع آخر فيسرق ذلك الحديث ويركِّب له سنداً صحيحاً، ثم يحدث به موهماً أنه من مروياته.

. . . وأما كيفية التعامل مع المسانيد مع جهالة الصحابة، فالأمر في هذا كان صعباً في القديم، أما اليوم فأصبح من أسهل الأمور وأبسطها، فقد ألفت مفاتيح كثيرة لأطراف الأحاديث عامة وخاصَّة، بما في ذلك الصحيحان والسنن والمسند وغيرهما، شارك فيها حتى الأجانب المستشرقون، فلهم كتاب «المعجم المفهرس»، و«مفتاح كنوز السنة».

أما علماؤنا فلهم في ذلك الشيء الكثير والكل مطبوع متداول، وهذا بالإضافة إلى ما ظهر حديثاً من استعمال الحاسوب لذلك.

أما كيفية معرفة عدد الرواة لحديث ما، فترجع في ذلك لكتب التخريج «كنصب الراية» للزيلعي، و«التلخيص الحبير» للحافظ. . . والكتب الجامعة المختصرة للأمهات، كمثل «جامع الأصول» للجزري، و«مجمع الزوائد» للهيثمي، و«كنز العمال» للمتَّقي الهندي، و«جمع الجوامع»، و«الجامع الصغير» و«زياداته» الثلاثة للحافظ السيوطي، و«الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري، و«منتقىٰ الأخبار» للمجد ابن تيمية، وشرحه «نَيْل الأوطار»، والكتب المؤلفة في الأحاديث المشهورة على الألسنة. ومن أهم ذلك أيضاً: جامع الترمذي، فإن أمثال هذه الكتب تستوعب ما في الأبواب من الرواة غالباً، وبذلك تستطيع الرجوع إلى أصولها المسندة لتبحث في أسانيدها لتعرف رتبها من صحة أو ضعف. . . حسب بحثك تحت نطاق قواعد أهل الحديث.

أما كيف يتعامل طالب الحديث مع كتب الحديث والرجال، فبالنسبة لمتون الأحاديث ففيها ما ينبغي حفظه والاهتمام به، وذلك كأحاديث الأحكام، والمؤلفات فيها كثيرة، ومن أهمها وأخصرها: «عمدة الأحكام» للحافظ المقدسي التي جمعت نحواً من خمسمائة حديث، من البخاري ومسلم، و«بلوغ المرام من أدلة الأحكام» للحافظ، ومن كتب الأخلاق والآداب والفضائل والترغيب والترهيب «رياض الصالحين» للإمام النووي، وهو أحسنها وأخصرها.

وما عدا ذلك، فبكثرة القراءة والمطالعة والممارسة تصبح أكثر الأحاديث مستحضرة في الذاكرة...

أما الرجال فينبغي للطالب أن يقرأ بعض ما ألف في ذلك بداية ممَّا ألف في الصحابة فمن بعدهم، وأقرب كتاب في ذلك بصفة عامة لرواة الكتب الستة «الخلاصة» للخزرجي، و«تقريب التهذيب» للحافظ، وعند البحث يرجع «لتهذيب التهذيب» للحافظ، و«تهذيب الكمال» للمزّي، و«الميزان» للذهبي، و«التاريخ الكبير» للبخاري، و«الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم في جمهرة أخرى من المؤلفات.

... أما منهجي في تخريج أحاديث الجامع، فتقديمي للإمام أحمد لأنَّ «المسند» أصح من «الموطأ» في الجملة، ولأن الإمام أحمد لم يذكر في مسنده إلا الأحاديث المرفوعة والآثار فيه قليلة، بينما مالك ذكر في الموطأ بلاغات، وهي معضلات ومراسيل وأقواله واختياراته وأقوال الصحابة والتابعين وفتاواهم، فكان لذلك في الرتبة بعد المسند، بل بعد كثير من المسانيد وكتب السنة. نعم بالنسبة لما أخرجه مالك في «موطئه» مسنداً مرفوعاً هو أصحُّ الصحيح على الإطلاق إلا أحاديث قلائل.

وإني أحياناً أغيِّر هذا الترتيب الذي ذكرت وأخالفه، والمحدثون تختلف مناهجهم في ذلك، فمنهم من يقدِّم أهل الصحاح، ثم السنن، ثم المسانيد... ومنهم من يرتِّبهم في التخريج حسب أزمنة المخرِّجين، والأمر في ذلك واسع غير أنهم لا يجيزون العزو إلى السنن أو المسانيد أو التواريخ أو المعاجم... والحديث في الصحيح مثلاً.

أما بالنسبة للحديث الضعيف المنجبر كم يكفي لجبره من المتابعات ليرتقي لدرجة الحسن، فالحديث الضعيف المنجبر، إما أن يكون ضعفه لسوء حِفْظ راويه، أو تدليسه، أو اختلاطه، أو لانقطاع أو إرسال فيه، فإذا ما وجدنا بعد البحث متابعاً لذلك الراوي الضعيف مثله أو أمثل منه، أو وجدنا شاهداً للحديث مثله من طريق آخر ولو شاهداً واحداً، ارتقى عندئذ للحسن لغيره،

وكلما وجدنا متابعات وشواهد أخرى فيها ضعف محتمل ازداد أصل الحديث قوة،، فيرتقي إلى درجة الصحيح لغيره.

... أما قولك: هل يعتبر تقليد أئمة الجرح والتعديل مساوياً لتقليد الأئمة المجتهدين أصحاب المذاهب؟

فنقول: إنَّ أقوال أئمة الجرح والتعديل في الرجل هو بمنزلة الشهادة، وهي مقبولة من العدل الثقة.

أما اتِّباع الأئمة المجتهدين في أقوالهم مطلقاً أخطأوا أم أصابوا فغير جائز، لأنَّ الأحكام الشرعية لا تثبت إلا بنصٍّ من الشارع... فإذا نقل إلينا أحد الأئمة حكماً مدعَّماً بالدليل الشرعي عملنا به واتَّبعناه فيه، وإذا جاءنا بحكم اجتهادي منه لا يلزمنا اتِّباعه فيه، بل غاية الأمر جواز ذلك فهو أحسن من رأينا...».

ولنكْتف بهذا النموذج، فإنَّ الأجوبة في ذلك تستدعي وقتاً طويلاً. وليس مقصودنا هنا الاستيعاب، والله سبحانه وحده الموفق الهادي، لا إله إلا هو.

❀ ❀ ❀

بعض ما كتبه في مؤلفاته من كلام هام

من ذلك قوله:

«**في عالمنا الإسلامي اليوم ردَّة سافرة**، لا تأويل فيها، فيوجد في أكثر الأقطار تيارات منحرفة، وعناصر متطرِّفة، ومذاهب هدامة تخريبية، ماركسيون، شيوعيون، لا دينيون، بهائية، قاديانية، . . . والكل يمارس مذهبه وينشر مبادئه، ولكلٍّ مراكز وجمعيات وأنشطة بمرأى ومسمع وعلم من الدول الحاكمة، ولا نراها تهتم بمعاكسة هؤلاء أو مضايقتهم أو اعتقالهم ومحاكمتهم لردتهم، وتطبيق ما قاله الشارع فيهم، بل العجب هو وجود شخصيات بارزة منهم يحتلون مناصب ووظائف عالية في هذه الدول، ولهم من حرية الفكر والتعبير والكتابة ما ليس لغيرهم من الإسلاميين. . .».

وقال عن **وسائل الإعلام**: «. . . إن أعداء الإسلام بعد مؤامرات متوالية أقاموا بين أظهرنا جيلاً غربيَّ الهوية متنكِّراً لدينه، وولَّوه المراكز المهمة التي منها وسائل الإعلام، ولهذا فهو يبثُّ من خلال هذه الوسائل ما يريده الأعداء، غير أن المسؤول الأول بالذات هم الدول الحاكمة التي تتحكَّم في وسائل الإعلام، والتي يجب عليها حماية الدين والرقابة الصَّارمة لكلِّ ما ينشر أو يذاع أو يعرض على الشعب. . .».

وقال عن بعض المدارس العصرية: «. . . أما إذا كانت المدرسة والمدرسون والجوُّ الدراسي على الحالة الراهنة من الفوضى والانحلال والاختلاط، فهي أداة للإفساد وزرع الأفكار الضالة والمذاهب الإلحادية في المجتمع، وليس هنالك مسلم يعرف حق المعرفة جو المدارس الحالية يقول بشرعيتها. وما جاء الإلحاد والطعن في القرآن وفي الأحكام الشرعية وانتقاد ذلك، والفساد والتبرج والعري الفاضح والفسق والعهر والرذيلة إلا من المدرسة. . .».

وقال عن **مخالطة ذوي السلطة**: «. . . إن مخالطة ذوي السلطة الظَّلَمَة، والميل إليهم، والدخول عليهم، ومحبتهم طمعاً فيما بأيديهم أو طلباً للجاه والرياسة هو من الخطورة بمكان على دين المسلم، ويكفيه خسارة، أنه يحشر معهم يوم القيامة، وأنه لا يشرب من حوض نبيِّنا ﷺ، وأنه يتبرأ منه كما جاء في الحديث الصحيح. . .».

وقال عن **التلفاز وغيره من مخترعات العصر**: «. . . في الحقيقة إنَّ هذه الأجهزة والمخترعات الحالية بما فيها الطائرات والبواخر والقطارات والسيارات وأجهزة الطبع والتسجيل والإذاعة والهاتف والتلغراف والتلفاز والفيديو كلُّها من آيات الله تعالى الكونية الدالة عليه وعلى عظيم قدرته، وهي أيضاً من أعظم نعم الله تعالى علينا، والتي حُرِمَ منها أجدادنا وأسلافنا، فلو استخدمناها فيما يعود علينا بالخير والنفع، لكانت نِعْمَ المعين لنا على ديننا، وبالأخص وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، فهي وسائل عظيمة للتوجيه والتثقيف والتربية، لكننا وللأسف استخدمناها في نشر الشر والضلال والفساد. . .

. . . والتلفاز هو جهاز تخريبيٌّ تهديميٌّ. . . ولقد كانت الأغاني السافلة الماجنة تسمع من جهاز الراديو، فأصبح الناس الآن يستمعون إليها، وهم يرون ويشاهدون أشخاصها العواهر بعريهنَّ وخلاعتهنَّ ورقصهنَّ أمام المتفرجين في سهرات ماجنة فاضحة، يستحي الشيطان من حضورها. . . وكان الناس قديماً يشاهدون الأفلام والروايات في السينما، وكان لا يدخلها أيام الاستعمار إلا الرجال، فأصبح اليوم لكلِّ بيت سينما تخصُّه يجتمع حوله أفراد الأسرة، ليتفرجوا على الأفلام والمسلسلات والمسرحيات الخليعة المختلطة المثيرة. . . التي يعرض فيها ما لا يخطر على بال إبليس من أنواع المنكرات والمجون. . . ممَّا يقلع جذور الحياء والفضيلة والأخلاق من الناس، ولذلك أصبح الفساد منتشراً بصفة غريبة، وانقلبت الأوضاع في ذلك في مدة قليلة. . .».

وقال عن **العلمانية**: «. . . العلمانية بلغة العصر، والتي تطبَّق في عالمنا

المعاصر هي عبارة عن فَصْل الدين عن الدولة، بمعنى أن الدين خاص بالمسجد وإقامة الشعائر الفردية الخاصَّة، كالصلاة والصوم مثلاً... والأحوال الشخصية، كالأنكحة والطلاق والنفقة والمواريث... أما باقي شؤون الحياة فلا دَخل للدين فيها فهو بمَعْزل عن التدخُّل في السياسة والشؤون الاقتصادية والأموال والدفاع والعلاقات الخارجية الدولية والشؤون الاجتماعية ونظام الحكم، بل لكلٍّ دولة دستورها، وقانون وضعيٌ يطبق على شعبها، وتسير عليه في حياتها لا علاقة له بدين الإسلام وشرعه لا من قريب ولا من بعيد، بل هو من وضع أيدي البشرية الآثمة لم يأذن به الله ﷻ.

وعلى هذا المنهج يسير ركب أوروبة وأمريكة... ومن لفَّ لفَّهم ممن ينتمون إلى الإسلام... وكان أول بلد إسلامي سقط في يد العلمانية وأعلنت فيه رسمياً إجبارياً تركية بزعامة الملحد اللعين اليهودي أتاتورك، الذي كان يسمَّى من قبل اسمه المستعار مصطفى كمال لعنه الله، فهو عدوُّ الله الذي قضى على الخلافة الإسلامية، وأرغم الشعب التركي على التخلِّي عن الإسلام وشعائره ومظاهره، وحصلت بذلك مذابح ومجازر... وأعلن عدو الله إعلاناً سافراً بأن بلاده علمانية، وكان ذلك بدفع ودعم من الإنكليز أعدى عدو للإسلام والمسلمين، فكان ذلك أول شؤم دخل بلاد الإسلام من هذا الجانب...

وعندما تآمرت الدول الغربية على بلاد الإسلام، وهاجموها واستعمروها بعد حروب طاحنة دامية، ودفاع دام أكثر من ربع قرن على الرغم من ضعف المسلمين مادياً ومعنوياً، وأصبح المستعمر الكافر حاكماً طبقوا على المسلمين قوانينهم الوضعية العلمانية التي كانت عندهم، فكان القانون البريطاني حاكماً في مصر والشرق الأوسط والخليج، وفي فلسطين والأردن والكويت والعراق، وفي إيران وباكستان... وكان القانون الفرنسي حاكماً في سورية ولبنان وتونس والجزائر والمغرب الأقصى، وهكذا القانون الإيطالي في ليبية، والقانون الإسباني في شمال المغرب وفي صحرائه...

وهكذا حصروا الدين في الصلاة والصيام والحج والمواريث والأحوال الشخصية، أما أحكام الجنايات والحدود والشؤون المدنية والاجتماعية، وباقي شؤون الدولة كلها تابعة للقوانين الوضعية...

وعندما ارتحل العدو بجيوشه وقوَّته العسكرية عنا، واستقلَّ العالم الإسلامي عسكرياً فقط، ترك وراءه كل ما كان لديه من أنظمة وقوانين، ووكل بالقيام بها وبتطبيقها تلامذته الأوفياء الذين تربوا بين أحضانه، وغُذوا بأفكاره وثقافته، وأُشربوا في قلوبهم حضارته، وجعلهم نوّاباً عنه، وأوصياء على الشعوب المسلمة، لذلك أصبح العالم الإسلامي ـ إلا ما لا يذكر ـ علمانياً صرفاً يقوده، ويحكمه العلمانيون. حكم الإسلام فيه بعيد عن الساحة، وكلُّ من ينادي بتطبيقه وجعله نظاماً للحكم تُلصق به التهم الملفقة المفتعلة، ويزجُّ به في السجون والزنازين، ثم يقدم للمحاكم، فهذه هي العلمانية، وهذه بعض آثارها...».

وقال عن **الشيوعية**: «... الشيوعية مذهبٌ إلحاديٌّ لا ديني، لا يقول أصحابه بوجود الإله، ولا يؤمنون بالرسل، ولا بالكتب السماوية، ولا يقولون بالأديان، ولا ببعث، ولا حساب، ولا جنة ولا نار... وإنما يؤمنون بالماديات وعالم الطبيعة دون ما وراء هذا العالم من غيبيَّات مما لا يشاهد. وهؤلاء المجانين خاسرون خسراناً مبيناً ليس في الوجود شرٌّ منهم.

وهذه الفكرة الإلحادية قديمة كانت قبل الإسلام، غير أن كارل ماركس اليهودي الألماني الذي كان يعيش في القرن التاسع عشر الميلادي اعتنق هذا المذهب الإلحادي، وزاد فيه أنظمة سياسية واجتماعية... وسمَّى مذهبه بالشيوعية والاشتراكية، لأن هذا المذهب الساقط المقيت مبنيٌّ على أن يكون كل شيء مشتركاً بين الناس، لا يملك فيه الفرد شيئاً يكون خاصّاً به، حتى الزوجة والأسرة من بنات وأخوات... لا تكون مختصَّة بالفرد، وأن تكون ملكية الأرض ووسائل الإنتاج مشتركة بين كلِّ طبقات الناس، والدولة هي التي تتولَّى ذلك... وهذا المذهب لا يهتم بالأخلاق الكريمة ولا يعيرها أي وزن،

ولذلك فأصحابه إباحيون ليس عندهم شيء يقال له رذيلة أو فضيلة أو حرام أو حلال. . . وهذا المذهب على إطلاقه هو الذي كان قد طبقه الملحد لينين في روسية منذ عدة عقود حتى انهار في السنين الأخيرة لما لمسوا فيه من كذب الدعايات والأباطيل والمغريات التي كان لينين ومن قبله ومن بعده يغرون بها الطبقة العاملة. . .

. . . وأوروبة وأمريكة قد أخذت ببعض مبادئ الشيوعية في سياستها، وفي شؤونها الاجتماعية، ولذلك يعتبرون الدين والأخلاق الفاضلة شيئاً ثانوياً، فأعطوا الفرد الحرية الكاملة، يفعل ما يشاء، ويذر ما يشاء، ويدين بما يشاء إذا لم يخالف قانون الدولة المقرر.

ومن رجع إلى كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» الذي رسم السياسة اليهودية العالمية علم أن لهم يداً وراء هذا المذهب، وأنهم الذين روَّجوه ونشروه في العالم، وأنه دسيسة من دسائس اليهود لعنهم الله تعالى.

ويلاحظ أن هذا المذهب الشيوعي، أخذه اليهود الملحدون عمن قبلهم، فقد تبنَّاه ونشره قديماً رجل مجوسي فارسي يقال له: مزدك، كان يعيش في إيران قبل النبيِّ ﷺ بمدة وجيزة، وذلك سنة ٤٨٨ بتاريخ النصارى، وكان في أيام ملك الفرس قُباذ بن فيروز والد أنوشروان، فقام هذا الفاجر مزدك، فادَّعى النبوة، وكان شيطاناً مارداً، فعمد إلى أمرين هامين بهما قوام العالم، وهما: المال والنساء، فعمل حيلة لإباحتهما، ليكسب التأييد من الجماهير والرعاع والسفلة، فقام أولاً بالإصلاح والنهي عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما عرف أن أكثر ذلك إنما يقع بسبب الأموال والنساء نادى في الناس بإحلال النساء وإباحة الأموال مطلقاً، وجعل الناس كلهم شركاء فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ.

ولما كان في هذا المذهب ضالة الفسَّاق والكسالى المنشودة، ورأوا فيه بغيتهم، وما تشتهيه وتهواه نفوسهم الخبيثة، انتشرت دعوته بين صفوف العامة، واعتنقها السفهاء والعاطلون، وكثُر أتباعه كثرة هائلة حتى اضطر ملك الفرس

كسرى قباذ إلى اتباع مزدك خوفاً من ضياع كرسيِّه، فإنه هدَّده وتوعَّده بالخلع وإبعاده عن العرش إذا لم يؤمن به ويتَّبع شريعته، فاتَّبعه مُجْبَراً، وصارت الشريعة المزدكيَّة هي الشريعة الرسمية للدولة، فلحق الناس من ذلك ضرر وعار عظيم، إذ أصبح كل من يرغب في امرأة أيّاً كانت لا تمنع منه بحال، وكل من يريد أخذَ مالِ أحدٍ أخذه من دون كبير عناء، ومن امتنع من ذلك عُوقب من طرف مزدك، حتى إنه دخل يوماً على الملك قباذ بن فيروز، وعنده زوجته أم كسرى أنوشروان، وكانت من أحسن النساء وأجملهنَّ، وعليها من الحلل والحليّ الشيء الباهر، فأعجبته، فقال لقباذ: إني أريدها، لأن في صلبي نبياً يكون منها، فلم يستطع منعه منها، فلمَّا همَّ مزدك بها، وكان أنوشروان طفلاً مميزاً، جعل يستعطف مزدك ويقبل قدميه أن لا يفعل ما أراد بأمه، فوهبها له وتركها.

ولما مات والده قباذ، وخلفه ولده هذا أنوشروان عمل حيلة وجنَّد الجنود وأحضر قوة هائلة بقصره وضواحيه، وتظاهر بأنه يريد إكرام مزدك والاحتفال به، فاستدعاه وأجلسه حذاءه، فتحدثا، ثم أشار إلى أصحاب الحال، فأخذوه وقتلوه، ثم أمر بقتل أصحابه، فحصلت مجزرة عظيمة لم يسمع بمثلها، وبذلك انتهى العمل بنظام الشيوعية المزدكيَّة حتى جاء اليهود في القرن الماضي، فأحيوها بواسطة ماركس في قالب آخر. وكلُّ ما يعانيه المسلمون في العالم اليوم فمن آثار هذا المذهب اليهودي البغيض...».

وقال عن **عالمنا المعاصر**: «... فإن عالمنا المعاصر بصفة عامة يعيش في اضطراب وتعاسة وقلق وشقاء وضلال وانهيار وخروج كامل عن كلِّ فطرة الله تعالى التي فطر عليها، وأنتج كل هذا هذه المشكلات التي لم يهتد أحد إلى المخرج منها.

وإذا نظرنا إلى ما يسمى بالعالم الثالث ومنه العالم الإسلامي، وجدناه أغرق في الانهيار والانحلال والانحطاط وأكثر مشكلات في كل ميادين الحياة ومرافقها، وعلى جميع المستويات، فلا هو مع الركب الراقي المتقدم في

الصناعات والتجارة، وتطبيق أنظمة الحياة الجديدة، ولا هو مع ركب العاملين في حقل الآخرة، الذين لم تخدعهم زخارف الحياة الزائفة، ولم يتدنسوا بقذارة أخلاق الاستعمار العفنة...

... فالإلحاد والمذاهب الهدَّامة ضاربة الأطناب في جميع الأقطار الإسلامية، والظلم وضياع الحقوق سائدان في الحواضر والبوادي، وتعطيل الشريعة الإسلامية، وتحكيم القوانين الوضعية شائع معروف، والانحلال الخلقي والتفسُّخ والميوعة، وانتشار الرذيلة والفجور والدعارة ومحلات الرقص والقمار والغناء الماجن، وحانات الخمور، وشركات الاتِّجار في الفتيات والشقق المفروشة المعدَّة للعهر والزنى والفجور... الكلُّ مخيِّم على أكثر العالم الإسلامي تحرسه أجهزة الأمن، وترعاه الدول، وتوظف له الإمكانيات الضخمة، وتعين له الوزارات والمكاتب الخاصة، والويل والإرهاب والحديد والنار والسجون والزنازين لمن تسول له نفسه الإنكار أو الاستنكار...».

وقال عن المرأة **العصرية المتهتكة**: «... فالمرأة العصرية تبرَّجَت وتحلَّلت من كلِّ الأخلاق والآداب، وكشفت عن محاسنها ومفاتنها، ولبست الميني والبنطلون، وتفنَّنت في الملابس الفاتنة المثيرة والمساحيق والأصباغ، وخرجت للشارع كالعروس تغشى الأندية والمجامع والمدارس والمعامل والإدارة والمراقص والفنادق مختلطة بالرجال في الطرقات والمتنزَّهات... وشاركت في السينما والمسرح والإذاعة والتلفزيون، وأبانت عن وقاحتها، وأظهرت من الانحلال وانتهاك العرض ما جعلها أشبه بصاحبتها الغربية الكافرة، فعمَّ الفساد وانتشر البغاء والبغايا، ومُلئت الملاجئ بأولاد الزنى، وعمَّ البلاء الحواضر والبوادي... فماذا ننتظر من الله تعالى أن يفعل بنا؟!!.».

❀ ❀ ❀

شيوخه في القراءة والسماع والإجازة

شيوخه قسمان: شيوخ القراة والدراسة أيام الطلب، وقد تقدَّمت أسماؤهم، وما قرأ عليهم، وشيوخ السماع والإجازة. وسندمج تراجمهم جميعاً على وتيرة واحدة مرتبين حسب الحروف الأبجدية.

* حرف الهمزة *

❑ أحمد بوحسين:

هو السيد أحمد بن عبد السلام بوحسين التوزاني الطَّنجي، العلامة الفقيه النحوي. ولد بطنجة عام ١٣١١ للهجرة، وحفظ القرآن مبكِّراً، وطلب العلم بالمدينة، ثم التحق بجامعة القرويين، وتخرَّج منها، ورجع إلى طنجة، وعُيِّن رئيساً للجمعية الخيرية الإسلامية، وكانت أول جمعية خيرية في المغرب، ثم عضواً للمجلس التشريعي الدولي، ثم ولي وظيفة الخليفة الأول للمندوب السُّلطاني، ثم عُيِّن مديراً للمعهد الديني بالجامع الكبير، ثم أُعفي منه.

من شيوخه: الإمام شيخ الإسلام سيدي محمد بن الصِّدِّيق الغماري، والشيخ عبد الله بن إدريس السنوسي، والقاضي عبد الرحمن بن القرشي، وشيخ الجماعة بفاس المحدث الصالح سيدي أحمد بن الخياط الزكاري، والعلامة عبد الله الفضيلي، والعلامة الفلكي الشريف سيدي محمد العلمي...

توفي رحمه الله تعالى عام ١٣٨٦ للهجرة، ودفن بمقبرة بوعراقية، رحمه الله تعالى وإيانا.

❑ أحمد بن الصِّدِّيق:

هو أبو الفيض السيِّد أحمد بن السيِّد محمد بن الصِّدِّيق الحسَني الغُماري، العلامة الإمام الحافظ الفقيه المجتهد المطَّلع المتقن المتبحِّر. ولد

في ٢٧ من رمضان عام ١٣٢٠ هجرية. حفظ القرآن الكريم دون سنِّ العاشرة على شيخه الفقيه السيد العربي بن أحمد بودرة الغربي، وأتقنه رسماً وتجويداً بنظم الخراز على الفقيه عبد الكريم البراق الأنجري.

قرأ بعض المبادئ بطنجة على والده، وحفظ كثيراً من المتون العلمية، ثم التحق بالأزهر الشريف، فقرأ على كبار علمائه وقتئذٍ، وجدَّ واجتهد وحَصَّل ما يحتاجه من العلوم في مدَّة وجيزة، وأقبل على علم الحديث مطالعةً وحفظاً وتأليفاً حتى أصبح فيه من نوادر الزمان.

وكان رحمه الله تعالى قويَّ الحافظة، شديدَ الاستحضار، واسع الاطِّلاع، من أذكياء العالم، ذا أخلاق كريمة، وشيَم سامية، شجاعاً سخياً زاهداً في الحياة لم يتطلَّع لوظيفة قط، شديداً على الكُفار والاستعمار، ولذلك قام ضدّه، وثار عليه بالسلاح مرتين، سُجن في إحداهما ثلاث سنوات ونصفاً نافذة مع غرامة مالية ونُفي من بلدته. وهاجر بدينه آخر حياته إلى القاهرة، وبها توفي عام ١٣٨٠ هجرية رحمه الله تعالى وإيانا رحمة واسعة.

من شيوخه: والده العظيم سيِّدي محمد بن الصدِّيق، والمحدث الصالح سيدي محمد بن جعفر الكتاني، والمحدِّث الصالح السيد أحمد بن الخياط الفاسي، والعلامة الكبير السيد محمد بخيت المطيعي المصري، والعلامة الشيخ محمد إمام السقا، والشيخ محمد السمالوطي، والمحدِّث عمر حمدان التونسي المديني في آخرين ضمَّنهم معجميه الكبير والصغير.

وله تآليف كثيرة تفوق الثلاثمئة من أهمها: «الهداية بتخريج أحاديث بداية المجتهد» سبعة مجلدات، «المداوي لعلل المناوي» ستة مجلدات، «مسالك الدلالة باستخراج أدلة الرسالة»، مجلد ضخم في أجزاء كثيرة أخرى.. وهذه مطبوعة.

ومن أهم مخطوطاته: «وشي الإهاب بالمستخرج على مسند الشهاب» ثلاثة مجلدات، «جونة العطار» في ثلاثة مجلدات، «الإقليد في تنزيل كتاب الله على أهل التقليد» مجلد كبير، إلى غير ذلك مما ذكر باستيعاب في حياته التي

طبعت عام ١٣٨٣ هجرية. وسنعود للكتابة في حياته إن شاء الله تعالى مع إخوته...

❑ أحمد بوزيد:

هو السيِّد أحمد بن محمد بوزيد الشريف الحَسَني، العلامة الفقيه الفرضي الفلكي المؤرخ الأنجري.

ولد بعين الحمراء بأنجرة، وبها حفظ القرآن الكريم، وطلب العلم بالقبيلة، ثم شدَّ الرحلة إلى فاس، فالتحق بمعهد القرويين، فقرأ على كبار علماء وقته وشيوخه. وبلغ في الفقه المالكي من الاطلاع والتحقيق ما لم يصل إليه غيره من أهل عصره، ولما رجع إلى قبيلته اشتغل بالتدريس فانتفع به أقوام.

ولي قضاء القبيلة مدَّة ثم تركه وأقبل على الله وعبادته وزهد في الحياة، وكان من غرائب الزمان علماً وفضلاً وورعاً. له مؤلفات في التوقيت وتقاييد مفيدة.

من شيوخه: السيد محمد بن جعفر الكتاني، والسيد محمد بن الصِّدِّيق الغماري، والسيد محمد بن عبد الكبير الكتاني الشهيد في آخرين.

وله تلامذة كثيرة أكثرهم صالحون. توفي رحمه الله تعالى عام ١٣٨٢ هجرية بقريته، وبها دفن.

وقد رأيته مرة في المنام أيام حياته فقال لي: إنك من أصحاب الإمام المهدي، فلما قصصتها عليه قال لي: وهو كذلك إن شاء الله تعالى...

❑ إدريس العراقي:

هو العلامة الفقيه إدريس العراقي الحَسَني الفاسي من العائلة العراقية القديمة بفاس. ولد بها وحفظ القرآن، والتحق بمعهد القرويين، وقرأ على علمائه وتخرَّج منها، وعُيِّن مدرساً به طوال حياته.

وكان مقدَّم الطريقة التيجانية بالمغرب، وكان يقرأ الحكم العطائية بين العشاءين بالزاوية التيجانية بفاس. ولم يزل أستاذاً في القرويين إلى أن أُحيل على المعاش، وهو الآن على قيد الحياة يقارب التسعين من عمره.

* حرف الحاء *

❐ الحسن اللمتوني:

هو العلامة الفقيه النحوي السيد الحسن بن محمد اللمتوني المصوري، ولد بطنجة في مطلع القرن الرابع عشر، والتحق بالكُتَّاب، فحفظ القرآن الكريم مبكِّراً، وحفظ جملة من المتون، وقرأ مبادئ العلوم بطنجة، ثم رحل لفاس فالتحق بجامع القرويين، ولازم كبار علمائه مدَّة إلى أن صار في مَصَافِّ العلماء، فرجع إلى طنجة، فاشتغل بالتدريس والوعظ.

امتهن خطة العدالة، ثم عُيِّن كاتباً لباشا المدينة، ثم عضواً في مجلس الاستئناف الشرعي، ثم عُيِّن خليفة للقاضي الشرعي، وكان طيلة تقلُّده لهذه المناصب مدرِّساً بالمعهد الديني بالجامع الكبير وخطيباً بجامع القصبة إلى أن أُحيل على المعاش.

وكان آيةً في العلوم العربية لم نر مثله في حياتنا، يحفظ ألفية ابن مالك وشرحها للمكودي مع حاشية ابن الحاج.

توفي رحمه الله تعالى عن سن عالية عام ١٣٧٨ هجرية. ودفن بمقبرة جامع المقرع بالجبل الكبير بطنجة، رحمه الله تعالى وإيانا.

* حرف العين *

❐ عبد الحفيظ كنون:

هو العلامة الفقيه المشارك الفاضل السيد عبد الحفيظ بن عبد الصمد كنون.

ولد بفاس عام ١٣٢٠ للهجرة، وهاجر به والده مع الأسرة إلى طنجة، فنشأ بها، وقرأ على والده وعلى عمِّه، وعلى عدّة شيوخ بطنجة، ثم اعتكف على القراءة والمطالعة والكتابة، واجتمعت له ثقافة واسعة وعلم كثير. كان

يستحضر جمهرة كبيرة من الحديث النبوي لا سيما أحاديث الصحيحين. كان متواضعاً ذا أخلاق طيبة بعيداً عن ذوي السلطة. لم يكن له شغف بالوظائف ولا يحب الظهور.

تولى خطة العدالة ثم تركها، وعيِّن مدرساً بالمعهد الديني عام ١٣٦٣ هجرية إلى أن أحيل على المعاش، وكان خطيباً بالجامع الأعظم، بقي فيه أكثر من خمسين سنة إلى أن هرم وخرف آخر حياته.

له عدة مؤلفات منها: «حاشية على سنن ابن ماجه» في تسعة مجلدات، و«نصيحة المسلمين في الحض على ترك موالاة أعداء الله والتشبه بالمجرمين»، ومجموعة محاضرات في الفقه والتفسير والحديث، ومجموعة خطب، وشرح همزية البوصيري في أربعة أجزاء، وغير ذلك.

توفي رحمه الله تعالى وإيانا عام ١٤١٦ هجرية، وقد قارب المائة سنة، ودفن بمقبرة المجاهدين.

◻ عبد الحيِّ بن الصدِّيق:

هو السيِّد الشريف العلامة الأصولي النحوي الفقيه الأثري سيدي عبد الحي بن سيدي محمد بن الصدِّيق.

ولد بطنجة عام ١٣٣٥ هجرية. التحق بالكُتَّاب، وحفظ القرآن على الفقيه محمد الأندلسي المصوري، وحفظ عدة متون علمية كألفية ابن مالك، والآجرومية، والمرشد المعين، وقرأ المبادئ على الشيخ الصالح سيدي العربي بوعياد، وعلى خاله سيدي أحمد بن عبد الحفيظ بن عجيبة، وعلى الفقيه عبد الرحمن الجزائري، واستفاد من والده شيئاً كثيراً.

وفي عام ١٣٥٥ شدَّ الرحلة إلى القاهرة، فالتحق بالأزهر الشريف، وقرأ على كبار علمائه، ومكث بالقاهرة نحواً من اثني عشر عاماً بسبب الحرب العالمية الثانية، ثم رجع إلى طنجة، واشتغل بالتدريس احتساباً، ثم عيِّن مديراً للمعهد الديني، ثم أستاذاً به إلى أن أحيل على المعاش. . .

من مشايخه الكبار: شقيقاه السيد أحمد، والسيد عبد الله، والشيخ عبد السلام بن غنيم الضرير المصري، والشيخ محمود الإمام، والعلامة العربي الدسوقي في آخرين من علماء الأزهر.

له مؤلفات مفيدة منها: «رخص الطهارة والصلاة»، و«تبيين المدارك لرجحان تحية المسجد وقت خطبة الإمام في مذهب مالك»، و«التيمُّم في الكتاب والسنة»، وغيرها.

توفي رحمه الله تعالى وإيانا في شعبان عام ١٤١٥ للهجرة، ودفن بروضة والده وسنه يناهز الثمانين.

□ عبد الرحمن الجزائري:

العلامة الفقيه النحوي المشارك السيد عبد الرحمن الجزائري. ولد بطنجة، وحفظ القرآن، واشتغل بالعلم بالمدينة، وعلَّمه والده حرفة النسيج، فكان إذا فرغ من دروسه يأمره والده بالحضور إلى معلمه. ثم شدَّ الرحلة إلى فاس، فدرس في معهد القرويين مدة، ثم رجع فامتهن حرفة نسيج الأغطية والجلاليب وغيرها، وتزوَّج وأنجب أولاداً، وصحب علماء آل الصدِّيق مدة، وتتلمذ عليه بعضهم، ثم عُيِّن أستاذاً في آخر حياته بالمعهد الديني بطنجة إلى أن توفي رحمه الله تعالى.

وكان وقوراً متواضعاً، يبادر من لقيَهُ بالسلام، محافظاً على صلاة الجماعة بالمسجد... له بنت حفَّظها القرآن، وكانت زوجته معتنية بالقراءة وتهتم كثيراً بتفسير البيضاوي، وعلى كلٍّ حال فكان من محاسن العصر لم نر منه إلا خيراً، وكان له مَيْلٌ كثير إلى مذهب السلف خلاف فقهاء مدينته الجامدين. غير أنه كان يحطُّ من قدر بعض الأكابر.

توفي عام ١٣٧٦ للهجرة، وقد جاوز الثمانين.

□ عبد السلام الخُنُّوس:

العلامة النحوي الفقيه المقرئ الفرضي السيد عبد السلام الخنوس المَصوري.

ولد بقبيلته، وبها حفظ القرآن، وقرأ مبادئ القراءات بابن بري والشاطبية، واشتغل بالعلم بالبادية، ثم بطنجة، وشدَّ الرحلة إلى فاس، فالتحق بمعهد القرويين، فقرأ على جماعة من مشاهير علماء القرويين وقتئذٍ، ثم رجع إلى طنجة، فاستوطنها، وجعل يلقي الدروس احتساباً في الفقه والعربية والفرائض والمنطق وغيرها، ولم يقدر له الالتحاق بأيٍّ وظيفة، وعاش أكثر عمره أعزب ولم يتزوج إلا آخر حياته، وكان يعيش على ما يأخذه في مقابلة خطبة الجمعة التي تقلَّدها من يوم قدومه من فاس.

وكان تقياً ذا غَيْرةٍ على الدين، شديداً على العصريين المفسدين، لم يغتر بأحد، ولا التحق بحزب من الأحزاب السياسية.

كانت له اجتهادات واختيارات غريبة، فكان لا يرى الركوب في السيارات نظراً لكونها تسير بالنار... في اختيارات عجيبة له. توفي رحمه الله تعالى في العقد الأول من القرن الخامس عشر للهجرة، ودفن بمقبرة مرشان.

من أشهر شيوخه: شيخنا الحاج عبد الله بن عبد الصادق التمسماني الآتي فيما بعد، والعلامة أحمد بن عبد السلام السميحي، والفقيه الحوزي الرقيوق، وغيرهم.

□ عبد العزيز بن الصدِّيق:

العلامة المحدِّث الواعية الناقد المطَّلع البركة الشريف سيِّدي عبد العزيز بن سيِّدي محمد بن الصديق.

ولد بطنجة عام ١٣٣٨ هجرية. التحق بالكُتَّاب، فحفظ القرآن الكريم على شيخه الفقيه السيد محمد الأندلسي المصوري، ثم شرع في قراءة مبادئ العلوم، فقرأ على بعض إخوته وبعض تلامذة والده. وبعد أن توفي والده بسنة شدَّ الرحلة مع أخيه السيد عبد الحي صحبةَ شقيقهما الأكبر سيدي أحمد، فالتحق بالأزهر، واختار قراءة مذهب الشافعي، لأن كتب مذهبه لا تخلو من

ذكر أدلته، فقرأ على الشيخ عبد السلام غنيم الدمياطي، والشيخ محمد عزت، وعلى شقيقه المحدث السيد عبد الله في آخرين.

واعتنى بعلم الحديث الشريف حفظاً وقراءةً ونسخاً وكتابةً، وأعطاه كُلِّيَّته، حتى مهر فيه، وأصبح من كبار أهله المُتْقنين له، وكان شقيقه الحافظ سيدي أحمد يشهدُ له بالرسوخ في علم الحديث ومعرفته، وكذا شهد له بذلك شقيقه السيد عبد الله ومَنْ خالطه أو قرأ كتبه علم ذلك.

وكان قويَّ الذاكرة، ذكياً مستحضراً لمتون الأحاديث، مطَّلعاً على مذاهب الفقهاء، والخلاف العالي. وكان إلى جانب ذلك شديداً على الظلمة قوَّالاً بالحق، لا يخشى أحداً، له في ذلك مواقف عظيمة مشهورة. وقد امتحن لذلك وسجن وأُوذي، ومُنع من الخطابة...

وكان تقياً عابداً، كثير الذكر لله تعالى، متفانياً في محبة الله ورسوله وآل بيته ﷺ، مجتهداً على مذهب أهل الحديث أصلاً وفرعاً، له تذوُّق في التصوف، يطرب للسماع ويتواجد، وتعتريه أحوال عنده.

له تآليف كثيرة في الحديث والفقه والتصوف والتاريخ. منها: «بلوغ الأماني من موضوعات الصَّغاني»، و«الباحث عن علل الطعن في الحارث»، و«تخريج أحاديث التعرُّف»، و«تخريج أحاديث إيقاظ الهمم»، و«الجامع المصنَّف بما في الميزان من الراوي المضعَّف» ثلاثة مجلدات في أخرى كثيرة. وكلها مفيدة رائقة.

من مشاهير مشايخه: شقيقاه السيد أحمد، والسيد عبد الله، والشيخ أحمد رافع الطهطاوي، والمحدِّث عمر حمدان، والمحدِّث محمد زاهد الكوثري، والراوية المحدث السيد عبد الحي الكتاني رحمهم الله في آخرين ضمَّنهم معجمه.

توفي رحمه الله تعالى بعد غيبوبة طرأت عليه، صَحِبَتْهُ أكثر من عشرة أشهر عشية يوم الجمعة ٦ رجب عام ١٤١٨ هجرية، ودفن إلى جانب والده رحمه الله تعالى وإيانا رحمة واسعة شاملة آمين.

□ عبد العزيز بن الخياط:

العلامة الفقيه الأصولي المتبحِّر المشارك الشريف السيد عبد العزيز بن سيدي أحمد بن الخياط الزكاري.

ولد عام ١٣١٦ للهجرة، وحفظ القرآن الكريم، والتحق بمعهد القرويين، فقرأ على علماء وقته الكبار، كوالده المحدِّث السيد أحمد بن الخياط، والفقيه الفاطمي بن محمد الشرادي، والفقيه عبد الله الفضيلي، والفقيه الطائع ابن الحاج السلمي، والعلامة سيدي محمد بن جعفر الكتاني، والفقيه المحدث بوشعيب الدكالي في آخرين. وتخرَّج من جامعة القرويين واشتغل مدرِّساً بها منذ شبابه، ثم نقل إلى كلية الشريعة، وعيِّن مدرساً لمادة التفسير إلى أن أُحيل على المعاش عام ١٣٨٤ للهجرة.

كان بارعاً في الأصول والبلاغة والتفسير والتوقيت، يحفظ «مختصر خليل»، و«جمع الجوامع» للسبكي. توفي عام ١٣٩٤ رحمه الله تعالى، ودفن بالفخارين بروضة الشرفاء أولاد ابن الخياط.

□ عبد الفتاح أبو غدة:

العلَّامة المحدِّث المحقِّق الباحث المطَّلع المتضلِّع المُشَارك السيد عبد الفتاح أبو غدة.

ولد بحلب الشهباء في سورية عام ١٣٣٦ للهجرة، التحق بالمدرسة العربية الإسلامية الخاصَّة في الثامنة من عمره، ثم تابع دراسته في المدرسة الخُسروية، ثم شدَّ الرحلة للقاهرة، فالتحق بالأزهر عام ١٣٦٤، وتخرج منه حائزاً على الشهادة العالمية من كلية الشريعة عام ١٣٦٨.

من مشاهير مشايخه الذين انتفع بهم: الشيخ محمد راغب الطباخ، والشيخ عيسى البيانوني، والشيخ محمد نجيب سراج الدين، والشيخ مصطفى صبري، والشيخ محمد زاهد الكوثري، والشقيقان السيد أحمد والسيد عبد الله ابنا الصديق، والشيخ مصطفى الزرقا، وغيرهم.

رجع لبلاده، وتقلَّب في عدَّة مناصب دينية، وأُوذي إذايات بالغة من طرف السلطة الحاكمة، وسُجنَ وامتُحن في دينه، ونُهبت مكتبته، ثمَّ هاجر إلى المملكة العربية السعودية، فعُيِّن أستاذاً في كلية الشريعة بالرياض، إلى أن جاءه أجله المحتوم عام ١٤١٧، ودُفن بالبقيع الشريف بعد أن صلي عليه بالمسجد النبوي الشريف.

كان رحمه الله تعالى علَّامة واعيةً محقِّقاً كثيرَ الاطِّلاع، واسعَ الثقافة الإسلامية، فصيحَ اللسان، طليقه لا يتلعثم، له تآليف كثيرة وتحقيقات سَارَت بكتبه وتحقيقاته الركبان، وتنافس الناس بكلِّ طبقاتهم فيها في جميع الأقطار والأمصار.

وكان إلى جانب حالته العلمية ذا أخلاق كريمة، منوَّر الوجْه والشَّيبة، عليه أثر الصلاح ونور العلم، صالحاً تقياً مُقْبلاً على خدمة العلم بعيداً عن الفضول.

حدَّثني أخونا العلَّامة المطَّلع الأستاذ الشيخ مَجْد مكي أحد خواص تلامذته أنه لم يَقْتن في حياته التلفزيون، وهذا يدلُّ على ورعه ومحافظته على وقته.

وبالجملة: فكان من محاسن الزمان رحمه الله تعالى وإيَّانا رحمة واسعة شاملة.

ترجمه ولدنا الفاضل السيد محمد بن عبد الله الرشيد ترجمةً موسعة جامعة، اسْتَوعب فيها حياته وما يتعلق بها من جميع نواحيها، وقد طبعت وانتشرت باسم «إمداد الفتاح بأسانيد الشيخ عبد الفتاح».

◻ عبد الله اللَّحْجي:

العلامة الفقيه المشارك مُفتي الشافعية بمكة المكرمة السيد عبد الله بن سعيد اللحجي الحضرمي.

ولد بحضرموت من اليمن عام ١٣٤٤ للهجرة، حفظ القرآن الكريم على

والده وقرأ عليه كتاب الزُّبَد، وألفية ابن مالك، وتوفي والده وعمره نحو عشر سنين، فنشأ يتيماً، ثم تابع دراسته في عدة مدن باليمن على جماعة من المشايخ، وبرع في سائر العلوم، ثم اشتغل في بلاده بالتدريس إلى أن هاجر إلى مكة المكرمة عام ١٣٧٧ للهجرة، فاتخذها مقراً، ولازم فضيلة الشيخ السيد علوي المالكي وانتفع به، ودرَّس بالحرم المكي، وقَصَده الناس، واشتهر وأصبح مفتياً للشافعية بمكة المكرمة. توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإيَّانا بمكة المكرمة عام ١٤١٠ هجرية، وصُلي عليه بالمسجد الحرام، ودفن بالمعلاة.

من **مشاهير شيوخه**: الشيخ حسن بن محمد المشاط، والشيخ محمد العربي التَّباني، والسيد علوي بن عباس المالكي، والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ عبد الرحمن بن محمد الأهدل، والشيخ علي الحجازي في آخرين.

❐ عبد الله بن عبد الصادق:

العلامة الفقيه النَّحْوي الأصولي المتفنِّن الشيخ الحاج عبد الله بن عبد الصَّادق التمسماني أصلاً، الطنجي ولادة ووفاة.

كان والده من أعيان طنجة والحاكمين بها، قدم جده الأول من قبيلة تمسمان مع المجاهدين زمن إسماعيل العلوي لفتح طنجة من استعمار الإنكليز في القرن الحادي عشر للهجرة.

ولد بطنجة في العقد الثاني من القرن الرابع عشر، وبها نشأ، وحفظ القرآن، وقرأ المبادئ، ثم شدَّ الرحلة إلى فاس، فقرأ على كبار علماء وقته، وتفنَّن في النحو والفقه والتوحيد والأصول وغيرها، ثم رجع إلى طنجة بعد أن أُجيز من طرف جماعة من مشايخه، كالعلامة سيدي أحمد بن الخياط، والعلامة الصالح سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني الشهيد، وغيرهما من الأعلام.

تصدَّى للتدريس والإفادة احتساباً مدةً تربو على الأربعين سنة، وكان

رحمه الله تعالى أعجوبة زمانه، لا يعرف الكلل ولا الملل، لم يقطع التدريس مع الطلبة حتى أيام عمله خليفة نيابة عن أخيه زمن الحكم الإسباني بطنجة بعد انتصار ألمانية على فرنسة في الحرب العالمية الثانية، وبقي على حالته تلك حتى توفي رحمه الله تعالى، ولم يمنعه تعيينه أستاذاً بالمعهد الديني عن مواصلة دروسه التطوعيَّة.

تخرَّج عليه جماعة كثيرون من الطلبة، وكان يقول لنا في دروسه: لا شيء من عملي أرجى عندي عند الله تعالى من التدريس مع الطلبة.

وكان قويَّ الحافظة، يحفظ كلَّ ما يتعلَّق بالدرس مَتْناً وشرحاً، وكان يحفظ في النحو ألفية ابن مالك كلها، ويحفظ شرحها «أوضح المسالك» إلى باب الحال.

وكان إلى جانب ذلك واسعَ الصَّدر، حسنَ الأخلاق، جميلَ القراءة والصوت، مشتغلاً بنفسه، لا يحبُّ الخوض فيما لا يعنيه، ولا يكاد يذكر أحداً بعيب أو سوء، حسن الطويَّة، سليم الصدر، وكان ثرياً ذا ترف ورفاهية.

عاش رحمه الله تعالى معافى الجسم إلى أن دنا أجله، فأصابه مرض دخل على أثره المستشفى، ثم خرج فوافاه أجله المحتوم عام ١٣٨٦ هجرية وسنه فوق السبعين رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً شاملة.

بعد وفاته بسنة رأيته في المنام على هيئته، فزرته، وقلت له: أو لست قد مت؟ فقال لي: إنَّ العلماء لا يموتون...

☐ عبد الله بن عبد الصمد كنون:

العلامة الفقيه الأديب المشارك السيد عبد الله بن عبد الصادق بن التهامي كنُّون الفاسي ثم الطنجي.

ولد بفاس ٢٠ شعبان عام ١٣٢٦ للهجرة، هاجر به والده مع الأسرة إلى طنجة وسنه ستة أعوام.

حفظ القرآن على شيخه الفقيه أحمد أشرقي بوادي أحرضان، ثم تفرَّغ

للطلب، فقرأ على والده، وعلى العلامة القاضي عبد السلام بن الغازي، وعلى العلامة عبد السلام بن الأشهب، وعلى العلامة الفقيه البركة أحمد السميحي، وعلى العلامة المحدِّث أبي شعيب الدكالي، وعلى العلامة الأثري عبد الله السنوسي. ولازم والده في دروسه، واهتمَّ بالعلوم الأدبية، فبرع في الأدب واشتهر به، وألف فيه كتباً قيمة أهمها: «النبوغ المغربي»، وله تآليف وآثار كثيرة تدل على غزارة فكره وثقافته، منها مضافاً إلى سابقه: شرح الشمقمقية، وشرح مقصورة المكودي، ومحاذي الزقاقية، والمدخل إلى تاريخ المغرب، وذكريات مشاهير رجال المغرب، ومفاهيم إسلامية، وإسلام رائد، وأدب الفقهاء، وغير ذلك.

تقلَّب في عدَّة وظائف، فكان مديراً للمعهد الديني بطنجة، وأستاذاً بالمعهد الديني العالي بتطوان، ومديراً لمعهد مولاي الحسن للأبحاث بتطوان، ثم وزير العدلية بها، ثم عُيِّن عاملاً على مدينة طنجة عام الاستقلال ثم أُعفي.

وكان له أثر كبير في الحركة الفكرية والثقافية والسياسية، بَيْد أنه كان ميَّالاً للمتفرنجين وذوي السلطة، مخالطاً ومصاحباً لهم، ولا يجمل ذلك بأهل العلم والدين والشرف، غفر الله لنا وله ورحمنا وإيَّاه.

توفي ٥ ذي الحجة عام ١٤٠٩، ودفن بمقبرة المجاهدين.

❐ عبد الله بن الصِّدِّيق:

العلامة الفقيه النحوي المحدِّث المفسِّر الأصولي البحَّاثة المحقِّق الشريف السيد عبد الله ابن سيدي محمد بن الصِّدِّيق الغماري.

ولد بطنجة عام ١٣٢٨ هجرية. حفظ القرآن الكريم على الفقيه محمد البراق الأنجري، وعلى الفقيه محمد الأندلسي المصوري، ثم شرع في تلقِّي الدروس العلميَّة، فقرأ على شقيقه السيد أحمد، وعلى خاله السيد أحمد بن عبد الحفيظ وغيرهما. ثم شدَّ الرحلة إلى فاس عام ١٣٤٣ فقرأ على كبار علمائه بجامعة القرويين، العربية والفقه والأصول والتفسير والحديث والفرائض وغير ذلك.

ثم رجع إلى طنجة، وقرأ على والده عدَّة كتب، ثم شدَّ الرحلة إلى القاهرة صحبة أخيه السيد الزمزمي، وذلك عام ١٣٤٩، فالتحق بالأزهر، فقرأ مذهب الشافعي وتضلَّع من الأصول والتفسير والحديث، ثم تقدَّم للامتحان، فحصل على الشهادة العالميَّة الأزهريَّة.

من **مشاهير شيوخه**: والده، وشقيقه السيد أحمد، والمحدِّث السيد أحمد بن الخياط، وشيخ الجماعة بفاس السيد أحمد بن الجيلالي الأمغاري، والعلامة أبو الشتاء الصِّنْهاجي، والعلامة عبد الله الفضيلي، والعلامة محمد حسنين مخلوف، والشيخ محمد إمام عبد الرحمن المنصوري، وشيخ مشايخ أهل مصر محمد بخيت المطيعي في آخرين كثيرين.

وكان رحمه الله تعالى آيةً في الحفظ والاستحضار، متقناً في كتاباته وأبحاثه. كان أهل العلم يتسابقون لمقالاته في مجلة «الإسلام» التي كانت تزخر بفتاواه في الفقه والحديث وغيرهما.

وكان إماماً متضلِّعاً في العربية والفقه على سائر المذاهب والأصول والتفسير والحديث والتصوف.

وكان ذا أخلاق حسنة كريمة متواضعاً في هيئته ومسكنه وعيشه، زاهداً في الحياة، بعيداً عن ذوي السلطة.

مكث بالقاهرة خديماً للعلم أربعين سنة، كتب في عدة مجلات: مجلة الرابطة الإسلامية، ومجلة الشرق العربي، ومجلة الوسيلة، ومجلة المسلم، ومجلة الإسلام، وتقلَّب بمصر في عدة جمعيات، فكان عضواً ومفتياً في العشيرة المحمديَّة، وكان وكيل جماعة أنصار الحج، وترأس جماعة أنصار السَّلف الصالح، ودرس مع الطلبة بالأزهر حسبة، فكان يحضر عليه الطلبة من جميع الأقطار، مغاربة وجزائريين وتونسيين وليبيين وحجازيين وسوريين وفلسطينيين وأندونيسيين وأتراك ويوغسلافيين وألبانيين وأحباش وصوماليين.

وكان يحاضر لجمعيات نسوية، وأصابه ظلمُ عبد الناصر فَسُجِنَ أحد عشر عاماً، ولما أُفرج عنه، قدم المغرب عام ١٣٩٠ هجرية، فقضى ما تبقَّى من

حياته في الدراسة مع الطلبة، قرأ معهم التفسير والأصول، وختم معهم «نيل الأوطار» وكتباً أخرى.

له مؤلفات مفيدة في الفقه والحديث والأخلاق والفضائل. من أهمها: «فضائل النبي ﷺ في القرآن»، «بدع التفاسير»، «تمام المنَّة ببيان الخصال الموجبة لدخول الجنة»، «الرد المحكم المتين»، «الحجج البيِّنات في إثبات الكرامات»، «الأحاديث المنتقاة في فضائل رسول الله ﷺ»، «إتقان الصنعة في تحقيق معنى البدعة»، وهي كثيرة أغلبها لم يسبق إليها، وفيها فوائد عزيزة غير أنها كلها ليس فيها ما يزيد على مجلد أو جزء.

وبالجملة، فكان هذا السيد من الأفراد الذين قلَّ وجودهم، ولا نعرف له مثيلاً في مشاركته في العلوم التي كان يتقنها. توفي رحمه الله تعالى ٩ شعبان عام ١٤١٣ هجرية، وسنُّه نحو ٨٦ سنة، ودفن بروضة والده رضي الله عنه.

* حرف الميم *

□ محمد بن إبراهيم الفاسي المكي:

العلامة المشارك الصالح شيخ الطريقة الشاذلية بمكة المكرمة سيدي محمد بن إبراهيم الفاسي.

ولد بأجياد بمكة المكرمة عام نحو ١٣٢٠ هجرية، ونشأ بالبلد الأمين، وبه قرأ مبادئ العلوم، ثم شدَّ الرحلة إلى القاهرة، فالتحق بالأزهر وقرأ على كبار علمائه آنذاك من أشهرهم: الشيخ أحمد الظواهري، وشيخ علماء مصر محمد بخيت المطيعي، والعلامة الشيخ محمد حسنين مخلوف في آخرين من مكيين وهنود ومغاربة وغيرهم.

اشتغل بالتدريس بالحرم الأمين مدَّة، وخلف والده في الطريقة الفاسية المشهورة، وقام بعده بالدعوة إلى الله تعالى وعُمِّر طويلاً، ناهز المائة. توفي بمكة المكرمة عام ١٤١٠، وصُلِّيَ عليه بالمسجد الحرام.

حكى لنا بمنزله بأجياد آخر حياته كرامة حصلت له في جماعة من

أصحابه المصريين في طريقهم إلى زيارة أبي الحسن الشاذلي، قال: نَفَد منهم الماء في صحراء مُقْفرة لا وجودَ للماء فيها، وأيقنوا بالهلاك، فلما جنَّ عليهم الليل قال: خرجت لقضاء الحاجة، فوجدت شبه حفرة، فرميتها بحصاة، فإذا بها تقع في الماء، فناديت القوم: أبشروا ها هو الماء، فجاءني المرشد، وقال لي: لا وجود للماء في هذه المنطقة، فأمرتهم بأن يحضروا الحبال ودلواً ففعلوا، فرميت بالدلو فإذا به يقع في بحيرة من الماء، فاستقينا وشربنا وتوضأنا وملأنا الأوعية والقِراب، وحمدنا الله ﷻ، فلما أصبحنا ذهبنا ننظر البحيرة، فإذا بها لا وجود لها ولا نرى إلا الصحارى والرمال... فعلمنا أن هذه كرامة أكرمنا الله تعالى بها، إنه القادر على كلِّ شيء، الفعَّال لما يريد سبحانه.

◻ محمد المنتصر الكتاني:

العلامة المُحدِّث المؤرِّخ الأديب الاجتماعي المطَّلع الشريف سيدي محمد المنتصر بن سيدي الزمزمي بن سيدي محمد بن جعفر الكتاني.

ولد في المدينة المنورة في ربيع الأول عام ١٣٣٢ هجرية، ونشأ في دمشق، وبها قرأ المبادئ، ثم التحق بجامعة القرويين بفاس، ثم شدَّ الرحلة إلى القاهرة، والتحق بالأزهر، فدرس على كثير من مشاهيره، وتخصَّص في علم الحديث الشريف.

عمل مدرساً بفاس، والدار البيضاء، وسلا، وطنجة، وفقيهاً ضابطاً بغرفة الضبط بمحكمة الاستئناف الشرعي العليا بالرباط، وأستاذاً للفقه المالكي بمعهد الدراسات المغربية العليا في قسم الحقوق، وفي قسم الآداب أيضاً من جامعة محمد الخامس بالرباط.

وبعد استقلال المغرب حَصَل له خلاف مع السلطات المغربية فغادر المغرب إلى سورية حيث عمل أستاذاً للتفسير والحديث والفقه بكلية الشريعة ورئيساً لقسم علوم القرآن والسنة في جامعة دمشق.

كتب كتاباً بمشاركة الشيخ وهبة الزحيلي حول الفقه الظاهري سمَّاه:

«معجم فقه ابن حزم» الظاهري، وبعدما اطَّلع عليه الملك فيصل بن عبد العزيز السعودي بعث إليه، وعيَّنه عنده مُسْتشاراً، ثم مستشاراً عاماً لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وانتقل إلى المدينة المنورة كأستاذ في الجامعة الإسلامية، ودرس التفسير بمكة بالمسجد الحرام حتى ختمه، كما درس مسند الإمام أحمد بالمسجد النبويِّ الشريف بداية من مسند أبي هريرة حيث كان وقف فيه جده الإمام سيدي محمد بن جعفر رحمه الله تعالى. وبقي على حالته هذه إلى أن توفي الملك فيصل، فعيِّن عضواً في لجنة جمع فقه السلف بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

له تآليف وآثار كالتفسير، وشرح مسند الإمام أحمد، وفتية طارق والغافقي، وفاس العالمة. . . وغير ذلك.

من مشاهير شيوخه: جده سيدي محمد بن جعفر، ووالده سيدي الزمزمي، والسيد العظيم مولاي محمد بن الصديق، والشقيقان السيد أحمد والسيد عبد الله ابنا الصدِّيق وغيرهم.

كان رحمه الله تعالى علَّامةً مُطَّلعاً، مشاركاً في كثير من العلوم فصيحاً لا يتلعثم في محاضراته ودروسه وخطبه، داعيةً مصلحاً مهتمّاً بشؤون الأمة وهمومها، ذا أخلاق كريمة، عليه سمة العلماء ونور أهل البيت النبوي، أصابه كسْر في رجله آخر عمره، فلزم الفراش، فسكن جدة مدة، ثم رجع إلى المغرب، فاستقرَّ بالرباط إلى أن جاءه أجله المقدر، ففارق هذا العالم المنكوب في صفر عام ١٤١٩ هجرية رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

□ محمد السكيرج:

العلامة الفقيه الأديب الفَلَكي السيد محمد بن العيَّاشي بن عبد الرحمن السكيرج اللخمي الأنصاري الفاسي أصلاً ومنشأً الطَّنْجي مسكناً ووفاةً.

قدم أجداده من الأندلس إلى تطوان والرباط وفاس. ولد بفاس ٢٨ ربيع الأول عام ١٢٩٣.

حفظ القرآن على الفقيهين عبد الواحد برادة وأبي شعيب الصحراوي، والتحق بمعهد القرويين عام ١٣٠٩، فقرأ على كبار علمائه كالسيد أحمد بن الخياط، وعبد الله السنوسي، والتهامي كنون، وأحمد بن محمد بن الحاج السلمي، وأحمد بن الجيلالي الأمغاري، وعلى العلامة المحدث سيدي محمد بن جعفر الكتاني في آخرين.

وكان متضلعاً مشاركاً في كثير من العلوم. عمل كاتباً لدى الوزارة، وكاتباً بالسفارة الهولندية، ثم عيِّن مدرساً بالمعهد الديني بطنجة مع امتهان خطة العدالة والإفتاء بطنجة وتطوان، وكان إلى جانب ذلك مقدَّم الطريقة التيجانية بطنجة، وكان آخر حياته آثر التعبد والصلاح ظاهراً عليه.

توفي فاتح محرم عام ١٣٨٥، ودُفن بمقبرة بوعراقية، له تآليف منها: نظم سور القرآن، إفراد القبيل بتبيان أفراد التنزيل، المشذَّب من المهذب، وغير ذلك. رحمه الله تعالى وإيانا آمين.

◻ محمد بن عمر السكدلي:

هو السيد محمد بن عمر السكدلي، العلامة الفقيه، سيبويه وقته، إمام فقهاء المالكية وحافظهم...

ولد ظناً أواخر القرن الثالث عشر بقريته سكدلة بضواحي فحص طنجة، وحفظ القرآن الكريم، وألفية ابن مالك، والآجرومية، ومختصر خليل، وتحفة ابن عاصم، والمرشد المعين، وطلب العلم بالبادية وتضلَّع من الفقه والعلوم العربية، ثم رحل إلى فاس، فازداد تبحُّراً وتضلعاً... ثم قدم إلى بلدته فاشتغل بالتدريس والخطابة، ثم عيِّن مدرساً بالمعهد الديني بطنجة لمادة العربية، فكان يقرأ ألفية ابن مالك بابن عقيل يختمها كل سنة مع أن المقرَّر قراءة نصفها فقط.

وكان يقرأ مع الطلبة تطوُّعاً تحفة ابن عاصم، ومختصر خليل، فكان يأتي بالمتن، ثم يتبعه بالشرح والحاشية حفظاً كالفاتحة لا يخطئ من ذلك حرفاً. وما رأت عيني ولا سمعت أذني مثله في فقهاء عصرنا ونحاتهم، فكان يحق أن

يُفرد بتأليف خاص في ترجمته وحياته، ولكنه ضاعت أخباره بموته وإهماله.
توفي رحمه الله تعالى بقريته.

□ محمد الزَّمزمي بن الصديق:

العلامة الأثري الداعية الشريف السيد محمد الزَّمزمي ابن السيد محمد بن الصِّدِّيق الغُماري.

ولد ببور سعيد بمصر في طريق والديه إلى الحج عام ١٣٣٠ هجرية.

حفظ القرآن الكريم على شيخه الفقيه محمد الأندلسي، وفي عام ١٣٤٩ شرع في قراءة العلم على أخيه الأكبر السيد أحمد، ثم شدَّ الرحلة إلى القاهرة صحبة أخيه السيد عبد الله الذي قرأ معه الآجرومية، وطرفاً من ألفية بن مالك، وورقات إمام الحرمين، وأوائل جمع الجوامع على الباخرة.

ولما وصل إلى القاهرة التحق بالأزهر، فقرأ على جماعة من شيوخه، كالشيخ عبد السلام غنيم، وأبي طالب حسنين، ومحمود الإمام، وعبد المجيد الشرقاوي، والشيخ محمد بخيت المطيعي وغيرهم، واختار في الفقه قراءة مذهب الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

ثم رجع إلى طنجة عند وفاة والده عام ١٣٥٤، وجعل يلقي دروساً تطوعيَّة بالجامع الكبير، وبزاوية والده في التفسير والحديث، والتفَّ حوله جماعة من الطلبة، فقرأ معهم الأصول والمنطق والعربية والبلاغة...

وكان أثرياً عاملاً بالدليل، شديداً على أئمة المذاهب وأتباعهم، له نوادر في ذلك، قوَّالاً بالحق، بعيداً عن الظَّلَمة وذوي السلطة، شديداً عليهم وعلى المتفرنجين، لا يقول بتعليم الأولاد والبنات في المدارس العصرية، كثير التحذير منها ومن أهلها.

نشأ كأسرته وباقي أهل بيته على التصوُّف وكان جَلْداً فيه، وألف في نصرته كتاباً أسماه: «الانتصار لطريق الصوفية الأخيار»، ذكر فيه أدلة ما يختصُّ به الصوفية. قال في مقدمته: «إن مَنْ سَبَر أحوال سيد الكونَيْن ﷺ وتأمَّلها،

وتدبَّر أقواله السديدة وتفهَّمها، لا شك أنه يتَّضح له فضل التصوف، وعظم قدره، ومكانته السامية من الدين، وعلوُّ شأنه. وذلك لأن التصوف في الحقيقة مأخوذ من أحواله ﷺ وأقواله، يعلم ذلك من له اطلاع على سنته وأفعاله، ولا ينكره إلا من لا عبرة بكلامه وخلافه» اهـ.

ثم بعد الأربعين من عمره أشهر حرباً عنيفة منقطعة النظير على التصوف والصوفية، وضلَّلهم وكفَّرهم، وتبرَّأ من والده كتابةً وكتب: «الزاوية وما فيها من البدع والأعمال المنكرة» عنده، قال في ديباجته: «ألا فليشهد عليَّ المؤمنون، والعلماء والصالحون أنِّي أتبرَّأ من المتصوِّفة الجاهلين، وأتقرَّب إلى الله تعالى ببغضهم، وأدعو إلى محاربتهم. . .»هـ.

قلت: وما قاله، وأَشْهَدَ عليه. . . نحن متَّفقون معه فيه، لكنه لم يقف عند المتصوِّفة الجاهلين، بل عمَّمَ الطعن والتضليل للصَّادقين والمخلصين الصَّالحين، وأكابر العارفين الذين منهم والده. . .

وكانت محاربته للصوفية مركَّزة على إخوته وتلامذة والده، فعاداهم وهجرهم رجالاً ونساءً، ونشأ عن ذلك فتن ومشكلات، وتفريق الصف، وتشتيت شمل العاملين بالسنة، ووقعت ردود بينه وبين إخوته أدَّت إلى رفع أمره للمحكمة لقذفه بعض إخوته، فحكمت عليه المحكمة بمبلغ باهظ يؤدِّيه إلى أخيه في مقابلة انتهاكه عرضه وكرامته، فازدادت بذلك العداوة وتمكَّنت القطيعة، وتسرَّب ذلك إلى الأتباع، فتقاطعوا وتدابروا. . . وما كان ينبغي سلوك ذلك، فالعلم والدعوة بعيدان عن مثل هذه الخشونات، والانتصار للنفس باسم الدعوة. . . فالله يرحمنا وإياه، ويشملنا جميعاً بعفوه ويجازيه وإيانا على نيتنا آمين.

له تآليف بعضها مهمٌّ مفيد كـ «دلائل الإسلام»، و«التفرنج»، و«المحجة البيضاء»، و«إعلام الفضلاء بأن الفقهاء ليسوا من العلماء»، و«تحذير المسلمين من مذهب العصريين»، و«الحجة الواضحة على أن حالق اللحية ملعون وصلاته باطلة»؟!! غير أن له اختيارات واجتهادات غريبة كوجوبه على الموظَّف الذي

لم يجد مكاناً للصلاة أن يصلي ولو في المرحاض، ووجوبه تقصير الصلاة على المقيم في بلدة للقراءة أو العمل مع حطّ رحله واستقراره، وغير ذلك...

وكان في أخريات حياته قد عُيِّن من قبل الأوقاف بإلقاء الدروس الوعظية في الجامع الكبير، فكان إذا أذن مؤذن العشاء خرج هو وأصحابه، ولا يُصلُّون وراء إمام المسجد. وهذا أيضاً من شذوذه وبُعْدِهِ عن فقه الدعوة.

وفي الأخير بنى مسجداً خاصّاً له ولأصحابه، وجعله مقراً لدعوته، وتولى الخطابة فيه إلى أن ألمَّ به مرض ألزمه الفراش مدة حتى أتاه أجله المحتوم يوم الجمعة ٢٨ من ذي الحجة عام ١٤٠٨ هجرية، ودفن بجانب مسجده، رحمه الله تعالى وإيانا رحمةً واسعةً شاملةً، وغفر لنا وله ولوالدينا ومشايخنا آمين.

□ محمد الباقر بن محمد بن عبد الكبير الكتاني:

العلامة الفقيه المؤرِّخ المشارك الصالح الشريف سيدي محمد الباقر ابن سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني الفاسي ثم السلاوي ابن أخي الراوية المحدِّث سيدي عبد الحي.

ولد بفاس، ونشأ بين الرباط وَسَلا، حفظ القرآن الكريم وطلب العلم بفاس والرباط على جماعة من كبار العلماء كسيدي محمد بن جعفر الكتاني، وسيدي أحمد بن الخيَّاط، وسيدي محمد بن إدريس القادري، والسيد المدني بن الحسني، وأبي شعيب الدكَّالي في آخرين. وتضلَّع في العلوم وبرع فيها، وحدثني أنه قرأ الكتب الستة على العلامة المدني بن الحسني. وله مشايخ كثيرون لقيهم، وأخذ عنهم في حجته من مصريين وحجازيين وسوريين وغيرهم. له ولوع بالسيرة والتاريخ والأنساب، وله في ذلك عدة تآليف.

من أشهر مؤلفاته: ترجمة والده سيدي محمد بن عبد الكبير الشهيد الذي قتله عبد الحفيظ بن الحسن الأول العلوي، وكان المترجَم ممَّن أصابته محنة أسرته بداية من والده وجده وإخوته وأخواته من طرف عبد الحفيظ الذي ما راعى فيهم إلّا ولا ذمَّة.

وكان سيِّدي محمد الباقر من أفضل البيت الكتَّاني صلاحاً وأخلاقاً، حدثني أنه رأى النبيَّ ﷺ في المنام مراراً في رؤى عظيمة، وكنت إذا رأيته رأيت نور النبوة بادياً على وجهه مع سَمْتٍ ووقار. توفي رحمه الله تعالى في ١٦ شعبان عام ١٣٨٤ هجرية

□ محمد الساحلي:

العلامة الفقيه المشارك السيد محمد الساحلي الوسيني.

ولد بخميس الساحل بين أصيلة والعرائش حوالي عام ١٤٢١، وحفظ القرآن الكريم مبكِّراً، ثم اشتغل بطلب العلم في مدارس البادية، ثم رحل إلى فاس، فأخذ عن جملة من علمائه المشاهير، وكان من المشاركين في المقاومة بفاس، فتعرَّض للضرب والتنكيل من طرف الاستعمار الفرنسي.

وبعد إنهائه دراسته العليا، رجع فسكن طنجة، وتولَّى مهنة التدريس والوعظ بالعديد من مساجد المدينة وزواياها، وعُيِّن أستاذاً بالمعهد الديني في التفسير والتوحيد والفقه، وكان يمتهن خطة العدالة، وتقلَّب خطيباً في عدَّة مساجد. وفي أخريات عمره عُيِّن عضواً في المجلس العلمي.

كان علامة ذا مشاركة في العربية والفقه والتفسير والمنطق والبلاغة والحساب. أصابه آخر عمره عمى وزمانة، لزم معها الفراش، وحفظ الله عليه عقله إلى وفاته.

وكنا نزوره المرة بعد المرة على تلك الحالة، فكان يخبرنا بأنه يختم القرآن عن ظهر قلب كل يوم، وكان أحياناً يتذكر حياته فيبكي.

توفي رحمه الله تعالى وإيانا عام ١٤٢٠ هجرية عن سنٍّ تناهز المائة.

□ محمد ياسين الفاداني:

العلامة المحدِّث المتضلِّع الراوية المسند الشيخ السيد محمد ياسين بن محمد الفاداني.

ولد بمكة المكرمة عام ١٣٣٥ هجرية. ونشأ في رعاية والده الذي كان من العلماء الصالحين. حفظ القرآن الكريم، والتحق بالمدرسة الصولتية، ثم بدار العلوم الدينية التي تخرَّج منها عام ١٣٥٢ هجرية. وبعد تخرُّجه جعل يدرس بالدار التي تخرج منها وبالحرم المكي.

كان رحمه الله تعالى متضلِّعاً في كثير من العلوم من عربية وأصول وحديث وفقه وتفسير وبلاغة وفلك وغير ذلك.

تخصَّصَ في الرواية والإسناد وجمع من الشيوخ ما لم يجمعه غيره من معاصريه، وأصبح مسند العصر وراويه بلا منازع ولا مدافع.

وكان منزله رحمه الله مُجتمَعاً للعلماء والطلبة يَقْصدونه من كل جهة.

وعمل مديراً لدار العلوم ودرس مع الطلبة، وختم معهم كثيراً من الكتب، وكان ذا أخلاق كريمة متواضعاً للغاية، من رآه لا يظنه عالماً. يُكرم العلماء ويحتفل بهم.

له مؤلفات كثيرة كشرحه لسنن أبي داود، وبلوغ المرام، وللقواعد الفقهية. وله أثبات كثيرة وإجازات مطبوعة منتشرة.

رأى قبل موته بأيام النبي ﷺ يقول له: إنك ستصلي معنا الجمعة، فتوفي ليلة الجمعة رحمه الله تعالى وإيَّانا، وذلك في ذي الحجة ١٤١٠ هجرية.

وصُلِّي عليه بالمسجد الحرام، ودُفن بمقبرة المعلاة، وبموته انقطعت التجمُّعات العلمية الروحيَّة والإسناديَّة بمكة المكرمة، إلا ما كان في بيت العالم الفذ السيد محمد العلوي المالكي حفظه الله، وذهب بحر علم الإسناد والرواية بالبلد الأمين.

❑ محمد الشاذلي النيفر:

هو العلّامة المحدِّث المحقِّق المشارك، الشيخ السيد محمد بن محمد الصادق النيفر الشاذلي التونسي.

ولد عام ١٣٣٠ هجرية في بيت علم وفضل. حفظ القرآن الكريم،

والتحق بجامعة الزيتونة، وتخرَّج منها، وأقبل على التدريس ونشر العلم والدعوة إلى الله تعالى، وشارك في مقاومة الاستعمار الفرنسي.

وله تآليف وتحقيقات رائقة منها تحقيقه لشرح مسلم للمازري في ثلاثة مجلدات.

من مشاهير شيوخه: محمد البشير النيفر، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ عمر حَمْدان، والشيخ حسن المشاط، والشيخ عبد الحي الكتاني. تدبَّج معه عبد ربه مكاتبةً. توفي رحمه الله تعالى وإيَّانا عام ١٤١٨ هجرية.

□ المختار الحسَّاني:

هو العلامة الفقيه الفَرَضي الفلكي الحَيْسوبي العالم الصَّالح سيدي المختار ابن الفقيه الحسَّاني. أصله من قرية حسَّانة الأنجرية.

حفظ القرآن الكريم، وحفظ كثيراً من المتون العلمية، وطلب العلم بالقبيلة، ولازم الشيخ الصالح سيدي أحمد بو زيد، وانتفع به كثيراً، فقرأ عليه الآجروميَّة، والألفية، وابن عاشر، والرسالة، ومختصر خليل، وتحفة ابن عاصم، والفرائض والحساب والقراءات والفلك، وكان يتقنه متخصِّصاً فيه كشيخه المذكور. وكان له علم بالأوفاق وأسرار الحروف.

سكن طنجة، واشتغل بالتجارة، وكان عابداً متقشفاً مُقْبلاً على شأنه ذا حشمة ووقار، أثر الصلاح بادٍ عليه.

عاش خاملاً لم يعرفه أكثر الناس. لقي العارف سيدي محمد بن الصدِّيق في حداثته، وتبرَّك به، وكان قد بشَّر به وبأخيه السيد محمد والده، فقال له: سيولد لك إن شاء الله ولدان عظيمان، أو ما هذا معناه. فكان المترجَمَ وشقيقه، وكانا عالمَيْن صالحَيْن خاملَيْن.

توفي رحمه الله تعالى بعد أن حجَّ، وصحبه مرض دخل على إثره

المستشفى، فلم ينفع فيه علاج، وذلك عام ١٤٠٨ هجرية رحمه الله تعالى وإيانا رحمة واسعة شاملة، ودفن بمقبرة مَرْشان.

وبه انتهت تراجم الشيوخ، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

وبقيت تراجم لجماعة لا علم لنا بها، فَلْتُرجأ لوقت آخر.

❀ ❀ ❀

تلامذته

وله تلاميذ لا يُحصَوْن كثرةً، بحيث لا يخلو قطر من الأقطار إلا وله فيه تلامذة بالرواية والإجازة أو السماع.

أما تلامذته في القراءة عليه بمعهده، فلا تخلو مدينة أو قبيلة أو جهة من المغرب من تلامذة له، وفيهم علماء وفقهاء ودعاة وخطباء، وأئمة ومدرسون، ودكاترة وأساتذة جامعيون، وقضاة وأطباء ومهندسون، وكثير من خطباء طنجة وأئمتها من تلامذته، وفي إسبانية وفرنسة وهولندة وبلجيكة وألمانية، كثيرٌ منهم أئمة ودعاة في المساجد والمراكز. وأسلم على يديه وتتلمذ له خلائق من أوروبة وأمريكة...

وله تلامذة في كلٍّ من مكة المكرمة والمدينة المنورة وجُدَّة والرياض، وفي العراق ولبنان ودُبي والبحرين والكويت وسورية والأردن واليمن وأندونيسية ومصر وتونس والجزائر... وما من وقتٍ إلا وتأتيه رسائل من سائر الأقطار يستجيزونه حتى ملَّ من الإرسال، وتأذَّى من ذلك.

❀ ❀ ❀

العلماء والمحدثون ورجال الفكر والدعوة الذين عاصرهم أو لقيهم أو صحبهم

وقد عاصر ولقي وصَحِبَ كثيراً من طبقات أهل المعرفة والفكر والدعوة، فمن أشهر أهل الحديث والمشتغلين بالسنة النبوية الشريفة: الأشقاء الثلاثة الصديقيون؛ السيد أحمد، والسيد عبد الله، والسيد عبد العزيز، والراوية المحدث السيد عبد الحي الكتاني، والمحدث الشيخ عبد الحفيظ الفاسي، والمحدث السيد محمد بن إدريس القادري، والمحدث الشيخ أحمد شاكر، والمحدث محمد زاهد الكوثري، والمحدث عبد الرحمن المعلمي اليماني، والمحدث السيد محمد المنتصر الكتاني، والمحدث الشيخ محمد ياسين الفاداني، والمحدث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والمحدث الشيخ ناصر الدين الألباني، والمحدث الشيخ شعيب الأرنؤوط، والمحدث الشيخ عبد القادر الأرنؤوط، والمحدث حبيب الرحمن الأعظمي، والمحدث محمد عبد الرشيد النعماني في آخرين شرقاً وغرباً لا يحصون كثرة.

ومن العلماء ورجال الفكر: العلامة المؤرخ عبد الله كنون، والعلامة عبد السلام بن سودة الفاسي، والعلامة شيخ الجماعة بفاس الجواد الصقلي، والعلامة الأديب الفاروقي الرحالي، والزعيم محمد المكي الناصري، والزعيم محمد علال الفاسي، والعلامة إدريس العراقي، والعلامة عبد العزيز بن الخياط، والقاضي العربي التمسماني، والعلامة العربي اللوه التطواني، والفقيه العلامة المؤرخ محمد داود، والشيخ محمد بن تاويت، والعلامة المؤرخ العباس بن إبراهيم بن الموقت المراكشي، والعلامة المؤرخ المختار السوسي، والعلامة الصالح المجاهد سيدي محمد الحبيب السوسي التانلتي.

والشيخ محمد بخيت المطيعي، والشيخ عبد الحليم محمود، والداعية

الأديب المؤرِّخ علي الطنطاوي السوري، والعلامة المربِّي الشيخ أحمد عز الدين البيانوني، والعلامة السيد سابق، والداعية أبو الأعلى المودودي، والداعية العظيم الإمام المصلح الشهيد حسن البنا، والعلامة الداعية المفكر محمد الغزالي، والداعية العظيم النفَّاعة عبد الحميد كشك، والداعية السيد سعيد حوى، والداعية الكبير والعلامة العظيم أبو الحسن الندوي، والعلامة المفسِّر الشيخ عبد الرحمن حنبكة الميداني، والمرشد العظيم العالم الفالح سيدي عبد السلام ياسين مؤسس جماعة العدل والإحسان بالمغرب ومرشدها العام، والدكتور الشريف سيدي محمد علوي المالكي والشيخ عمر فلاتة، والشيخ القاضي عطية سالم بالمدينة المنورة، والشيخ عبد العزيز بن باز، في جمهرة كبيرة لا يستحضرهم الساعة، منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وقليل ما هم.

وقد كان العقدان الأولان من هذا القرن الخامس عشر من أنكب أيام حياة عبد ربِّه حيث فقد فيهما العشرات من العلماء على اختلاف ثقافاتهم وتخصُّصاتهم، رحمنا الله تعالى وإياهم رحمة واسعة.

❀ ❀ ❀

من لقيهم وتبرّك بهم من الصالحين

لقي وصحب كثيراً من أهل الصلاح والولاية والخصوصية، وانتفع بهم، وهذه أسماء بعضهم. . . : سيدي الغالي بن عجيبة الطنجي، سيدي عبد القادر بن عجيبة، سيدي بدر الدين بن عجيبة، سيدي الحاج ميمون القلعي، سيدي سليمان المدغري الزغنغاني، سيدي الحاج الحبيب السوسي التانلتي، سيدي الحاج المكي بن كيران الفاسي، سيدي ميلود السوسي، سيدي المحجوب الغماري، سيدي الزين بن عبد الصمد السعيدي، سيدي أحمد بوزيد، سيدي المبارك التجكاني، سيدي عبد السلام بن رحو الكرفطي، سيدي أحمد الطرداني، سيدي محمد البقالي الهسكوري، سيدي عبد السلام البحراني، الأخوان: سيدي محمد وسيدي أحمد الكرفطيان، وسيدي عبد القادر البرنوصي، سيدي محمد الحبيب المكناسي.

وسيدي محمد المرابط، وسيدي أحمد الغزاوي، سيدي عبد العزيز عيون السود الحمصي شيخ القراء، سيدي عبد الرحمن الشاغوري الدمشقي شيخ الشاذلية، سيدي محمد زكريا الأنصاري الكاندهلوي ثم المدني، سيدي عبد القادر عيسى الحلبي، سيدي محمد زكريا البخاري المديني، سيدي محمد الرفاعي الصحراوي، سيدي الحسن الشركي الأنجري، سيدي محمد بن العياشي الورياشي الكرفطي، للا عائشة العجيبية زوجة الحافظ سيدي أحمد رَحِمَهُ اللهُ، للا عائشة البقالية، للا منانة الساحلية، للا رحمة بوعشرين، للا عائشة الصنهاجية في آخرين.

وللتعريف بهؤلاء كتابٌ خاصٌّ إن شاء الله تعالى.

❀ ❀ ❀

الحركة العلمية بالمغرب أيام حياته

نعني بالحركة العلمية الحالة العلمية الإسلامية بالمغرب باعتباره بلداً إسلامياً يهتم أهله المسلمون بدراسته العلوم الإسلامية أكثر من غيرها لأنها طريق دينهم وسبيل سعادتهم.

وقد عاش عبد ربه في العهدين: عهد الحماية والاستعمار، وعهد الاستقلال، وشاهد الوضعين.

فكان التعليم بالمغرب بصفة عامة في القديم والآن بقلة، يبدأ فيه الطفل أول ما يبدأ بالكتَّاب الذي كان يسمَّى في المدن بالمِسِيد، وفي البادية بالجامع والمعمرة، فيتعلم فيه الطفل الكتابة والقراءة ويحفظ القرآن، فإذا ما أتقنه وصحَّحه على جماعة من القراء بقراءة ورش عن نافع، وقد يكون الطالب قد بلغ العشرين أو أكثر أو أقل من عمره، أقبل بعد ذلك على حفظ بعض المتون العلمية كالآجرومية، و«المرشد المعين» لابن عاشر، وألفية ابن مالك، ونحو ذلك، ثم يشرع في قراءة هذه الفنون وتفهُّمها على شيخ أو مشايخ مدة ثلاث سنوات أو نحوها، حتى يشرف على تحصيلها.

وقد يقرأ أثناء ذلك الأربعين النووية، والشمائل المحمدية، وبعض الكتب في السيرة النبوية، ومبادئ الحساب، وأحكام المواريث، ومبادئ التصوف والأخلاق، ثم يرتقي الطالب إلى قراءة كتب أخرى أعلى من الأولى، فيقرأ رسالة ابن أبي زيد، وبعض مختصر خليل بالدردير كالعبادة مثلاً، وتحفة ابن عاصم بالتاوي والسنوسية، والجوهرة، ويتوسَّع في قراءة كتب النحو والصَّرف، فيختم ألفية ابن مالك بأوضح المسالك، وابن عقيل، وربما قرأ خلال ذلك بعض الكتب الأدبية مثل المعلَّقات، ولامية ابن الوردي، ومقامات الحريري. . .

ويقرأ البلاغة بالجوهر المكنون، والمنطق بالسُّلم، والتفسير بالجلالين غالباً، والحديث بالموطأ أو البخاري، ويدوم على هذا نحواً من أربع إلى خمس سنوات مضافة إلى ما سبق، حتى إذا ما حصلت له مَلَكة، وتوسَّعت معلوماته في الجملة، التحق بجامعة القرويين بفاس، ليتابع بها دراسته العليا في الفنون السابقة وغيرها من الأصول، ومصطلح الحديث، ومختصر خليل بالزرقاني وغيره، والفلك، والجبر، والتوقيت، والتفسير بالبيضاوي أو النسفي مع التوسع في شتى العلوم.

وقد تقل إقامته بفاس وقد تطول حسب ظروف الطالب وحالته. وكان المتخرِّجون من جامعة القرويين تختلف مستوياتهم العلمية، فمنهم المتمكِّن الصالح للفتوى والقضاء الشرعي والخطابة... المقتدر على الكتابة والتأليف، ومنهم المتوسِّط في ذلك، ومنهم...

وكان الطالب في هذا العهد يختم كل كتب المواد التي يدرسها، ويأتي على جميع موضوعاتها، وقد يختم الكتاب ذا الأجزاء والمجلدات مرات متعددة.

لكن هذا الوضع تغيَّر حينما حدث النظام الجديد الذي كان قد وقع عام ١٣٥١ هجرية ١٩٣٢ بتاريخ النصارى، بجامعة القرويين، وجامعة ابن يوسف بمراكش وتوابعهما من المعاهد في المدن الأخرى، حيث نظمت فيها الدراسة وأُدخلت فيها كتب جديدة ومواد أجنبية وعلوم إنسانية، وأصبح الطالب والأستاذ مقيدين بعد أن كانا حرَّين في الدراسة والمواد والوقت.

وزوحمت المواد الإسلامية بالمواد الأخرى، وتكاثرت الدروس على الطالب، وبترت الكتب الدراسية، فصار المتخرِّج من تلك المعاهد المتخصِّص في الشريعة ناقصاً ضعيفاً علمه مبتور غير مؤهَّل للإفتاء والقضاء الشرعيين، فضلاً عن الاجتهاد ولو في نطاق المذهب، وذلك لجهله بكثير من الموضوعات التي لم تَطْرق سمعه، ولا قرأها لا سيما إذا كانت من الكتب الكبيرة في الفقه والأصول.

وازداد الضعف في التربية الإسلامية وعلوم الآلة من نحوٍ وصرف وبلاغة وأصول بعد إنشاء وانتشار المدارس العصرية في عهد الاستقلال من الابتدائي فالثانوي فالجامعي فالعالي، وأدخلت فيها العلوم الحديثة التجريبية والرياضية والطبيعية مع اللغات الأجنبية، وتخرَّج منها الأطباء والمهندسون وغيرهم بكثرة. وهذه العلوم ـ وإن كانت نافعة لنا في حياتنا ـ غير أن روَّادها والمتخرجين فيها تخرَّجوا بثقافة يغلب عليها طابع الغربيين والمتفرنجين، بل والعلمانيين، إلا ما قلَّ منهم ممن شملتهم رحمة الله.

ومن له أدنى اطلاع على دسائس المستشرقين والمبشِّرين عَرَف أن ما حَصَل كان مؤامرة استعمارية مسيحية ويهودية للقضاء على الإسلام، فأرادوا بهذه السياسة التعليمية إضعاف علومنا وتراثنا ومزجه بالعلوم الإنسانية كما يمزج السم بالدسم، ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون. . .

نعم لا تزال حتى الساعة مدارس إسلامية محضة تقليدية حرَّة تدرس فيها كل المواد الإسلامية، فتوجد في الجنوب بسوس مدارس كثيرة، ومن أشهرها: مدرسة تانلت عمالة أكادير، ولها فروع عدة هنالك. وبالشمال مدارس أيضاً، ومن أشهرها: مدرسة الرمان، ومدرسة طالع الشريف، ومدرسة المنار بضواحي طنجة، وبمدينة طنجة المدرسة التي أسَّسها عبد ربه المسماة بدار القرآن والعلوم الدينية. فلا زال أصحاب هذه المدارس محافظين على الطريقة القديمة، ويدرسون فيها كل المواد الإسلامية.

وإن كانت هناك خيوط تحاك حول إدماجها في سابقاتها، لكن الله غالب على أمره، وحافظ دينه.

وكانت الدروس العلمية الإسلامية أيام الحماية وفي أوائل عهد الاستقلال تلقى في المدن بالمساجد والزوايا والبيوت، أما البوادي والقبائل والأرياف، فكانت لكلِّ قرية مسجد يعلِّم فيه الأطفال الكتابة والقرآن. . . وبعض كبار المساجد كانت فيها مدارس لطلبة العلم المبتدئين والمتوسطين، وكان أهالي القبائل والقرى هم الذين يقومون بتموين الطلبة والمدرسين.

أما بالنسبة للمدن فكانوا لا يختلفون عما يدرس بالبادية... غير أن المدرسين في المدن والحواضر كانوا في الغالب أوسع علماً، وأرقى ثقافة من علماء البوادي، ولذلك كان كثير من الطلبة يؤمُّون المدن لمتابعة دراستهم، فكانوا يجدون في المدن مال لا يجدونه في البادية.

وكانت المساجد والزوايا بصفة عامة في المغرب لا تخلو من دروس طوال أيام السنة حسبةً لله تعالى بلا مقابل مادي، كما كانت الدروس الوعظية للعامة متوالية، كذلك بين العشاءين في كل مسجد وزاوية.

هذا ما كان أيام الحماية والاستعمار، وأوائل الاستقلال، لكنه الآن تغيَّر الوضع كثيراً ولم يعد أحد من أهل العلم يتفضَّل بدرس أو دروس تطوعيَّة إلا نادراً كما أنَّ المساجد حُوصرت ووقعت عليها الرقابة من طرف السلطة، فلا تفتح إلا في أوقات الصلاة، ولا يلقى فيها درس أو كلمة إلا بإذن خاص من طرف الأوقاف.

لكن رغم كل هذا، فهنالك مساجد وزوايا ومدارس حرة تدرس فيها كل العلوم الإسلامية من عربية وبلاغة وتوحيد وسيرة وفقه وأصول وتفسير وحديث... وفي بعضها تجديد الدعوة إلى العمل بالدليل وطرح التعصب المذهبي، على أن ذلك لم يكن جديداً، بل هو امتداد من عصر ما قبل الاحتلال، فقد نادى بذلك جماعة من كبار علماء الأسرة الكتانية، كالإمام القدوة العلامة الصالح سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني، الذي كان يحض على قراءة «نيل الأوطار» واقتنائه والعمل على مقْتضاه، وكالإمام المحدث سيدي محمد بن جعفر صاحب «الرسالة المستطرفة»، وتلاهما العلامة عبد الله السنوسي، والعلامة أبو شعيب الدكالي... ثم جاء دور المدرسة الصدِّيقية بطنجة بمؤسِّسها الأول الإمام العارف سيدي محمد بن الصديق وأنجاله العظام، وخاصَّة الحافظ السيد أحمد، والسيد عبد الله، والسيد عبد العزيز، والسيد عبد الحي، والسيد الزمزمي... فلهم أياد في هذه النهضة المباركة، وببركة دعوتهم انتشر الاهتمام بكتب السنة، وأصبحت تدرَّس كتبها وأمهاتها.

هذا ما يتعلق بالحركة العلمية من ناحية التعليم. أما الأعلام الذين عاشوا في هذه الأثناء وشاركوا في هذه الحركة، فلا يحصون كثرة، وكلهم قد قضوا نحبهم، ولم يبق منهم إلا النزر القليل. ولا نطيل بذكر المكتبات والمطابع وما إلى ذلك، فإن فيما ذكرناه كفاية للحياة العلمية.

❀ ❀ ❀

الحركة السياسية طوال حياته

ولد عبد ربه والاستعمار الإسباني على وشك السيطرة على جميع أنحاء المغرب، وما كاد يمر نصف سنة على ولادته، حتى سيطر الإسبان على الشمال واحتلوه بسواحله وجباله ومدنه وبواديه. بينما الفرنسيون تأخّروا عن احتلال الجنوب، ثم سيطروا عليه فيما بعد، فأصبح المغرب مقسوماً إلى إيالة فرنسية في الجنوب، وهي أكثر مدناً وبوادي ومساحة، وعاصمتها الرباط، وإيالة إسبانية في الشمال، وعاصمتها تطوان، ومعها جبال الريف والحسيمة والناظور، فأصبح المغرب محتلاً مستعمراً من أقصاه إلى أدناه، ثم طبقوا على شعبه المسلم نظامهم العلماني في كل شيء إلا في الأحوال الشخصية.

فالقضايا المدنية والجنائية لها محاكم فرنسية وإسبانية وقضاة أجنبيون كفار، ويشرف على الجميع مجلس أعلى لكل منهما، وتأتي الأوامر والنواهي من باريس ومدريد.

وأسَّسوا للمسلمين في كلِّ مدينة داراً للقضاء الشرعي، يتحاكمون إليه في الأحوال الشخصية في الأنكحة والطلاق والنفقة والمواريث، وخلعوا السلطان عبد الحفيظ بن الحسن الأول العَلَوي، وجعلوا بدله أخاه يوسف بن الحسن الأول صورياً، وقسموا المغرب إلى عمالات في كلِّ عمالة مندوب ينوب عن السلطان صورة، ولكل مندوب خلفاء أربعة، يفصلون بين الأهالي في محاكم ابتدائية، وجعلوا فوق المندوب مراقباً أجنبياً. . .

هذا بالنسبة للمدن، ولم يكن أمر البادية يختلف عنها، فكان لكل قبيلة قائد وبجانبه فرنسي أو إسباني، ولكل ربع من القبيلة شيخ، ولكل قرية أو قرى صغيرة مقدم عريف.

غير أن طنجة بقيت من بين سائر مدن المغرب تحت الرقابة الدولية،

يحكمها حاكم فرنسي مع مساعدين له إنكليزي وإسباني، ومجلس تشريعي مختلط.

وفرضوا الضرائب على السكان، وأذاقوا الناس العذاب، وساموهم أسوأ الآلام، وأسرفوا في الظلم والاعتداء، وطغوا في الأرض فساداً، فتوفي السلطان يوسف، ووضعوا محله ابنه محمداً الخامس.

ثم ظهرت الحركة الوطنية، تطالب بالاستقلال، وشارك أهالي المدن في الإضرابات والمظاهرات، وكانت الحرب العالمية الثانية، فانهزمت فرنسة وحلفاؤها، فاحتلت إسبانية التي كانت موالية لألمانية مدينة طنجة.

ثم لم يلبث أن انهزم هتلر وجيوشه شرَّ هزيمة، فرجعت فرنسة لطنجة، وخرجت منها إسبانية.

وبعد هذا نشط الوطنيون، وتأسَّست الأحزاب السياسية كحزب الإصلاح الذي كان يتزعمه الطريس، وحزب الوحدة المغربية الذي يترأسه المكي الناصري، ثم حزب الاستقلال الذي كان يترأسه علال الفاسي، وحزب الشورى الذي كان زعيمه محمد بن الحسن الوزاني، وتواطؤوا مع الملك محمد الخامس على المطالبة بالاستقلال، فلقي الزعماء والوطنيون الطرد والسجن، وجاءت مجزرة الدار البيضاء، ثم مجزرة طنجة، وخُلع السلطان محمد الخامس عام ١٣٧٢ هجرية ١٩٥٣ميلادية، ونصب محمد بن عرفة بديلاً عنه، ونفي هو وعائلته إلى جزيرة مدغشقر.

وبعد مقاومات دامية، وسلسلة من الفداء، تفاوضت فرنسة مع محمد الخامس للرجوع إلى ملكه مع شروط شرطوها عليه: منها: بقاء ارتباط فرنسة بالمغرب بعد استقلاله، ليبقى المغرب مستعمراً نظامياً واقتصادياً وفكرياً كما وقع بالفعل. فأعادوا السلطان إلى عرشه عام ١٣٧٤ هجرية ١٩٥٥ ميلادية.

وفي ٢١ من ربيع الثاني عام ١٣٧٥ هجرية ٦ يناير سنة ١٩٥٦ ميلادية تمَّ إلغاء نظام الحماية، واستقلَّ المغرب عسكرياً من طرف كلٍّ من فرنسة وإسبانية إلا بعض المناطق ظلت خاضعة لإسبانية.

لكن الوضع في المغرب بعد الاستقلال كان بفعل تأثير الاستعمار قد تغيَّر كثيراً عما كان عليه من قبل، فالنظام القضائي أصبح مستمداً من القوانين الوضعية الأوروبية كما كان أيام الاستعمار، والنظام التعليمي أصبح مرتبطاً بالثقافة الفرنسية وإشرافها، وجامعة القرويين - وهي أقدم جامعة حيَّة في العالم الإسلامي - شهدت تطويراً، وخرِّبت تخريباً، وغُيِّرت مناهجها بحيث فقدت قدرتها على إخراج علماء أكْفاء.

وفي عام ١٣٨٠ هجرية سنة ١٩٦٠ ميلادية توفي محمد الخامس، وخلفه ولي عهده الحسن الثاني، واقتفى أثر والده، وحدثت في عهده أمور لم يكن يتصور أن تقع، فانقلبت الأوضاع في كل شيء، رغم أنه وقعت في أيامه مشروعات حسَّاسة مفيدة نافعة، لكنها ليست بشيء بالنسبة لما حَصَل من المفاسد والانقلابات في الأفكار والأخلاق، والغزو الغربي الإفرنجي.

ونجا السلطان الحسن الثاني من فتنة الأحزاب السياسية التي حاول بعضها الانقلاب عليه، وتحويل المغرب من ملكية دستورية إلى جمهورية يحكم فيها الحزب الوحيد، وكان قادة هذه المحاولات الانقلابية مغاربة تغرَّبوا عن مبادئ دينهم، وتأثَّروا بأفكار ماركس ولينين وغيرهم من الاشتراكيين العلمانيين.

وتوفي الحسن الثاني عام ١٤٢٠ هجرية ١٩٩٩ ميلادية، وجاء دور ولده وولي عهده محمد السادس، وهو الآن أمير البلاد وملكها نرجو الله ﷻ أن يوفقه ويصلح به وينصره على الأعداء الماكرين.

❀ ❀ ❀

الحالة الاجتماعية في حياته

يتكوَّن المغرب اجتماعياً من العرب الفاتحين والمهاجرين إليه من الجزيرة العربية والبربر الأصليين، وكان معهم قلة من اليهود الذين هاجروا إليه أيام اضطهاداتهم عبر العصور، ثم خالطهم مزيج من الأجانب كالفرنسيين والإسبانيين والإنكليز وغيرهم في عهد الاستعمار...

وجاء الاستعمار والمغرب على حالة يرثى لها: فتنٌ، وحروب، وعصابات، ولصوص، وضعف في السلطة، وعصبيات، وفرق مختلفة مع مجاعات، وسنين مُجْدية متوالية، وأميَّة وجهل...

وبما أن الطرق الصوفية كانت منتشرة بالمغرب منذ عهد قديم، كانت لشيوخها مكانة عند العامة والخاصَّة، وكان الناس يحترمونهم ويجلُّونهم، ويرجعون إليهم في نوائبهم، حتى إنهم قادوهم في الحرب ضد الاستعمار التي أَوْدَت بسقوط المغرب، وكان الناس قلَّما يوجد منهم من لا ينتمي إلى طريق، حتى العلماء والفقهاء كانوا متصوفة.

وكان في الشيوخ علماء كبار لهم الأثر العظيم في التربية والإرشاد والمحافظة على دين الإسلام...

ومن دهاء رجال الاستعمار أن عمدوا إلى هذه الفئة من شيوخ الطرق، فاستمالوهم إليهم رغبةً ورهبةً؛ لأنهم أدركوا أن الحرب التي خاضوها مع المغاربة كانت بقيادة الأشراف ورجال التصوف، وعرفوا بسياستهم وتجاربهم أنهم لا يحصل لهم الاطمئنان والاستقرار بالمغرب إلا باستمالة هؤلاء المشايخ وإغرائهم بما يريدون، فأصبح جُلُّ مشايخ الطرق الصوفية ـ إلا النادر القليل ـ مُساندين للاستعمار عملياً أو سكوتاً وإغضاءً عما يصدر عنهم.

ولذلك لما ظهرت فئة أخرى من العلماء والزعماء الذين قاموا بطلب الاستقلال حاربوا الطرق الصوفية ورجالها محاربةً لا هَوَادةَ فيها، وحذَّروا منهم العامَّة، وبغَّضُوهم فيهم، ولمزوهم بالخيانة ومساعدة الاستعمار، فنشبت حرب سافرة بين الأحزاب السياسية التي كان روَّادها يدعون إلى تحرير المرأة وبروزها، وتقليد الغربيين، وبين علماء الصوفية والمشايخ، الذين كانوا لا يرون طريقة الحزبيين، لا لكونهم يحبُّون الاستعمار وعدم الاستقلال، ولكنهم ناصبوهم العداء، وجعلوا يحذِّرون منهم أصحابهم وأتباعهم، لما شاهدوه منهم من الانقلاب في الأوضاع الاجتماعية، ولا سيما ما يتعلَّق بالمرأة ومشاركتها الرجل جنباً إلى جنب في كلِّ ميادين الحياة، ومنها تعليمها مع الرجل على طريقة الغربيين أعداء الإسلام والمسلمين، ودمجها في المجتمع متبرِّجة كاشفة لمفاتنها.

وقد ظهرت النتيجة فيما بعد كما سيشار إليه مما يدلُّ على أن أولئك الدعاة كانوا مدفوعين من جهات أخرى أجنبية.

وكان لهذا الأسلوب الدعوي خطر عظيم على مجتمعنا المسلم الذي أصبح مائعاً متفككاً غربي السلوك والأفكار والنظم.

نعم، كان إلى جانب ذلك في المجتمع المغربي كباقي الأقطار الإسلامية خطر آخر عمَّ جمهور العامة وبالأخص النساء، وهوالغلوُّ في التعلُّق بغير الله، وقَصْد أضرحة الأولياء، وسؤالهم مباشرة الشفاء والأولاد، وقضاء الحاجات، والزيارة غير المشروعة، واعتقاد بعضهم في الأولياء أنهم يعطون ويمنعون، ويؤثرون بأنفسهم في هذا الكون، وهذا شرك بالله بدون نزاع إن كان عن اعتقاد. ولذلك قام كثير من العلماء بإنكار ذلك والتحذير منه، لكنهم لم يوفقوا في الإنكار، فعمّموا وحكموا على كلِّ مَنْ يزور أضرحة الأنبياء والأولياء حتى مَنْ هو سليم العقيدة بالشِّرك الأكبر، وهذا غلوٌّ وتطرُّف مقيت.

ولذلك ازدادت الحرب إيقاداً بين الصوفية وخصومهم، وتقاطعوا وتدابروا، ولم يتفاهموا، فكانوا كلُّ حزب بما لديهم فرحون، وذلك ما يتمناه أعداء الإسلام.

ثم كان هناك خطر آخر اجتماعي، عمَّ كلَّ مدن المغرب، كبيرها وصغيرها، وهو أن الاستعمار لما حكم البلاد، وجاءت جيوشه، أسَّسوا في كل مدينة دوراً للبغاء والفساد قد يكون حي أو أحياء خاصة فيها عدَّة بيوت تسكنها البغايا والزواني بترخيص من السلطة يقصدها روَّادها من كلِّ جهة، يتعاطون فيها جريمة الزنى بكل حرية.

وكانت تلك الزواني العواهر مقْصودات يُجلبن لأعراس الشخصيات للرقص والغناء...

ويتذكر عبد ربه أنه لما كان يقرأ القرآن ببني كرفط في بداية الحرب العالمية الثانية ما بين عام ١٣٦٠ الموافق لسنة ١٩٤٠وعام ١٣٦١ هجرية ١٩٤١ ميلادية حضر زفافاً لبعض كبار مُجرمي أهل القرية التابعين للسلطة الإسبانية، فجلبوا نحو عشر زواني من مدينة أصيلة، ومعهنَّ فريق من الرجال الفنانين، فكونت سهرات عامة بالقرية للغناء، ورقصت العواهر بين صفوف الرجال، وكل رجال القرية ونسائها وأطفالها حاضرون فَرِحُون مُبْتهجون يتفرَّجون. ولم يتخلَّف عن ذلك إلا القليل من المُسنِّين أو بعض العقلاء. ثمَّ لما انقضت حفلات الزفاف بقي ذلك الفريق بزوانيهم، ينتقلون في القرية من بيت لآخر نحو شهر كان كله اختلاطاً وأغاني ورقصاً وزنى.

فهذا شيءٌ شاهده عبد ربه بنفسه، وحضره قبل أن يبلغ الحلم بعام أو عامين.

وهكذا كان الحال في كل أنحاء المغرب، إلا في بعض القبائل السوسية والريفية الذين كانت فيهم غيرة وأنفة.

غير أنه رغم وجود هذه المخازي في المدن، وفي بعض البوادي فقد كان ظاهر المجتمع سليماً من الفواحش الفاضحة التي ظهرت في عهد الاستقلال، وكان أكثر الناس يغلب عليهم الحياء والمروءة نتيجةً للتربية الإسلامية التي كانوا يتلقونها عن علمائهم وشيوخهم الصَّادقين المصلحين المخلصين.

وكانت النساء كلهنَّ متحجِّبات مُتنقِّبات لا ترى امرأة عارية أو شبه عارية

أبداً، إلا نساء الكفار، بل حتى الزواني الرسميات المتاجرات بأبضاعهن كُنَّ يخرجن في حشمة متحجِّبات لا يُرى منهن إلا العينان.

أما شواطئ البحار أو دور السينما فمن المستحيل أن ترى فيها امرأة مسلمة، بل كان الأمر أعظم من هذا، وهو أنك لا تكاد ترى امرأة مع رجل في الشارع جنباً إلى جنْب، وكان هناك وخاصّةً عندنا بطنجة رجال خاصون من طرف مندوب السلطان يلقون القبض على كل رجل وجدوه يماشي امرأة بالليل حتى يدلي بكتاب عقد زواجه وإلا باتا معاً في السجن، ثم يقدَّمان للمحكمة.

هذا ما كان أيام الاستعمار، وقد عاشه عبد ربه من الاحتلال إلى الاستقلال.

لكن الوضع بدأ يتغيَّر أواخر الاستعمار شيئاً فشيئاً، بدعاة أبواب النار، وكان مصدر ذلك ومنشؤه الرئيسي: المدارس العصرية الاستعمارية والحرة، حيث عُني بتعليم المرأة وتحريرها، وجاء الاستقلال فوجد المناخ صالحاً، فاستفحل الأمر وظهر التفرنج، واقتفى المسلمون أثر الكفار في كلِّ شيء، وتشبَّعوا بأفكارهم وحضارتهم، وفَسَدت الأخلاق، وذهب الحياء، وماتت المروءة، ومَزَّقت المرأة الحجاب، وخرجت عاريةً كاشفةً عن محاسنها، وتفنَّنت في وسائل الإغراء، وكل ما يثير الرجل، ويحرِّك مشاعره نحوها، وظهرت الأحزاب السياسية والهيئات المختلفة، وتخرَّج رجال ونساء من المدارس الجديدة بثقافة أجنبية، وظهر دعاة جهنم يدعون إلى مذاهب وأفكار متطرِّفة خارجة عن الإسلام: شيوعية ملحدة لا دينية، اشتراكية علمانية، ديمقراطية كاذبة لا دينية، فأصبح المغرب كباقي الشعوب الإسلامية كما نرى.

وزاد الأمر فساداً في الأخلاق والميوعة شيوع التلفزيون بقنواته الفاضحة المقيتة الخبيثة، فقضى على ما كان قد تبقَّى من الحياء والحشمة والتعفُّف والأخلاق الفاضلة، فَفَسدت الأسر وتفكّكت العائلات، ودخلها الانحلال والميوعة والتفسُّخ.

وفتحت الدولة والسلطات المجال على مصراعيه للفساد: خمور مرخَّص

في بيعها، وتُشرب جهاراً، وحانات منتشرة في كل مدينة، وفنادق وشقق مفروشة مهيَّأة للشرب والزنى، وكبريهات ومراقص هنا وهناك، وأندية ومجتمعات للعراة والعرايا، وشواطئ مختلطة للسباحة والاستجمام يندى لها الجبين، والناس فرحون مرحون.

هذا هو مجتمعنا الحالي المغربي، ومرضنا هو مرض كلِّ الشعوب الإسلامية. بَيْد أنه يوجد بين هؤلاء المفسدين الإباحيين أقوام، أفراداً وجماعات، يدعون إلى الخير وينهون عن الشر، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات، لهم مواقف في معارضة الفساد، والأخذ على أيدي المفسدين بألسنتهم وأقلامهم. وفي هؤلاء المصلحين المعارضين للحالة الراهنة أحزاب دينية سياسية، وجماعات وأفراد.

❀ ❀ ❀

أهم الأحداث التي وقعت في حياته

لعله من تمام الفائدة أن تُختم هذه الذكريات بأهم ما وقع في حياته من الأحداث البارزة.

فمن أول ذلك الحرب الضروس التي ولد في آخرها، وكانت امتداداً للحرب العالمية الأولى، التي أودت بسقوط العالم الإسلامي في أيدي الكفار الغربيين، والقضاء على الخلافة الإسلامية، التي كانت تمثلها الدولة العثمانية، وما كادت إسبانية تفرغ من غزو شمال المغرب والاستيلاء عليه حتى نشبت بينها حرب أهلية عظيمة بين اليمينيين. وكانت تدعمهم ألمانية، وبين اليساريين وكانت وراءهم روسية، فانتصر الجنرال فرنكو على اليساريين، وحصلت في بداية هذه الحرب مجاعة شديدة بالمغرب، وهي التي تسبّبت في هجرتنا إلى طنجة، ثم ما كادت تخمد الحرب الإسبانية، حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية، التي كانت بدايتها سنة ١٩٣٩ وانتهت سنة ١٩٤٥ التي يقال عنها: إنها خلّفت من القتلى ثمانين مليون نسمة، ووقعت خلال هذه الحرب أيضاً مجاعة ثانية بالمغرب، دامت أكثر من خمس سنوات، لم تبق ولم تذر، ولا سيما بالمناطق الريفية شرق المغرب، التي هاجر أهاليها إلى طنجة وتطوان والمدن الساحلية، ومات فيها بالجوع أقوام لا يحصون كثرة، وكَثُرَ فيها قطع الطريق والسرقة والنصب. وإثر هذه الحرب احتل اليهود فلسطين، وكوّنوا دولتهم بمساعدة ودعم من كبار الدول الغربية، ومن ذلك الحين والحرب والمقاومة قائمة بين العرب واليهود حتى يومنا هذا، وذلك أكثر من نصف قرن.

ثم جاءت حرب أمريكة لليابان واستعمالها ضدها القنبلة النووية، التي قتلت بضربة واحدة ربع مليون نسمة، وبذلك استسلموا لأمريكة.

وكانت بعد ذلك حرب أمريكة أيضاً للڤيتنام، التي خلّفت في الجانبين خسائر فادحة.

وكانت المحاولة الفاشلة التي صدرت من الشيوعيين عندنا بالمغرب ضد الحسن الثاني بالصخيرات، بعد أن تمكنوا من السيطرة على الإذاعة وعدة مراكز، وذهبت في ذلك عدة ضحايا، ثم دارت الدائرة، فأُلقي القبض على محاولي الانقلاب وأعدموا...

ثم جاء هجوم اليهود على الأردن وسورية ومصر، واحتلالهم شرق القدس، وعدة مناطق مع الجولان السوري وصحراء سيناء مع حربهم للبنان واحتلالهم جنوبه.

ثم كانت الحرب الأهلية بلبنان بين المسلمين والمسيحيين، وجاءت حرب العراق وإيران التي دامت ثماني سنوات، أنهكت الدولتين وشرحت صدور الأعداء، ثم حرب السودان مع المسيحيين بالجنوب...

وجاءت ثورة جهيمان وأصحابه الخوارج بالحرم المكي الشريف، وإلحادهم فيه، واستيلاؤهم على المسجد الحرام، وقيامهم بالقتال داخل المسجد حتى هوجموا وأُلقي القبض على من كان قد تبقّى منهم ثم أُعدموا جميعهم.

ثم كانت الحرب بين أثيوبية وأريترية من الحبشة التي لا زالت لم تخمد بعد، وكانت حرب الصومال الأهلية مع تدخُّل أمريكة.

ثم جاءت مهاجمة العراق الكويت، والاستيلاء عليها، وكانت عقب ذلك الحرب الضروس من أمريكة وحلفائها من الغربيين والعرب ضد العراق وإخراجها من الكويت ثم محاصرتها.

وجاءت حرب الصرب مع الهرسك والبوسنة بيوغوسلافية. ثم حرب كوسوفو بألبانية، ثم هجوم أمريكة على الصربيين.

وخلال هذه السنين كانت الحرب الطويلة بين الأفغان والروس، التي

أودت في النهاية بانهزام الروس، وسقوط النظام الشيوعي، ثم كانت حرب الشيشان مع الروس أيضاً. وفي هذه الأثناء قُنبلت السفارتان الأمريكيتان بنيروبي ودار السلام بجنوب أفريقية، وضربت السفينة المدمرة الأمريكية ببحر اليمن، ثم جاء تفجير البرجين التجاريين العظيمين والقاعدة العسكرية في نيويورك وواشنطن، الذي أوقع من الخسائر في الأرواح والأموال ما لا يمكن إحصاؤه وجاء عقب ذلك الهجوم على حكومة طالبان في أفغانستان، فهدمت المدن والقرى، وقتل مئات الآلاف من الأبرياء، وشرد الشيوخ والأطفال والنساء، ثم أخيراً جاءت الحرب الثانية للعراق، التي أودت بسقوط حكومة صدام، ثم إلقاء القبض عليه...

إلى غير ذلك من الأحداث الكثيرة المتكررة من وقت لآخر، والمقاومات التي صدرت من الشعوب، التي كانت مستعمرة كمصر مثلاً وتونس والجزائر والمغرب وغيرها. وكذا ما نزل من الكوارث الإلٰهية من الزلازل والعواصف والسيول التي وقعت بالمغرب والجزائر وإيران وأفغانستان فضلاً عما وقع ويقع في كثير من أقطار آسية وأوربة وأمريكة وأسترالية حتى وقتنا هذا الذي نعيشه.

وبهذا تمَّ ما أردناه، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات، وله الحمد بدءاً وعَوْداً. وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيِّدنا محمد وعلى آله وذريته وزوجه وصحبه وحزبه، عددَ خلقه، ورضاء نفسه، وزِنَةِ عرشه، ومداد كلماته، كلَّما ذكره الذاكرون، وكلَّما غفل عن ذكره الغافلون.

وسبحان الله وبحمده، سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وكان الفراغ منه ضَحْوة يوم الأحد فاتح
شهر صفر عام ١٤٢٥ هجرية بطنجة المغرب

✍ بقلم أبي الفتوح عبد الله بن
عبد القادر التليدي الحسني

❀ ❀ ❀

الفهرست

الموضوع	الصفحة
ـ مقدمة	٥
ـ المبحث الأول: مدح الإنسان نفسه أو غيره	٧
ـ المبحث الثاني: كلمة عن التاريخ وفوائده	١٥
– اسمه ونسبه	١٩
– أصل عائلته	١٩
– والده رَحِمَهُ اللَّهُ	٢٠
– والدته رحمها الله	٢٢
– ولادته ومسقط رأسه	٢٣
– التعريف بالقبيلة والقرية	٢٣
– ما بعد ولادته من الفترات العصيبة	٢٥
– في رضاعه	٢٦
– في الكتّاب	٢٧
– الهجرة الأولى إلى طنجة	٢٩
– دخول طنجة لأول مرة	٣٠
– الرجوع إلى البادية	٣٠
– الرجوع إلى طنجة المرة الثانية	٣١
– إرجاعه إلى البادية	٣١
– تصحيحه القرآن بعد استظهاره إياه	٣٢
– ما تعلمه من حفظة القرآن الكريم	٣٤
– بدايته طلب العلم	٣٧
– خروجه من امجازلين وحصول حادثة ظالمة له	٣٧
– التحاقه بالمعهد الديني بطنجة	٤٠
– مع كتاب تنبيه الغافلين	٤٣

الموضوع	الصفحة
- رؤياه رسول الله ﷺ في بداية الطلب	٤٣
- عزمه على الجهاد بمفرده	٤٣
- اندلاع النار بمنزله ذات ليلة	٤٣
- طريفة	٤٤
- محاولاته تبريد شهوته الجنسية	٤٤
- تعصبه للمذهب المالكي	٤٤
- نموذج من تعصب فقهاء عصره	٤٥
- دخوله في جمعية لحفظة القرآن الكريم	٤٦
- انخراطه في حزب سياسي	٤٦
- مجزرة ثلاثين مارس	٤٧
- حضوره مع الزعماء بالوحدة المغربية	٤٧
- رحلته لفاس	٤٩
- ما بعد رجوعه من فاس	٥١
- في المدرسة الصديقية	٥٢
- مقاطعته للمتعصبين من الطاعنين في أهل الحديث	٥٣
- خطابته بقرية الشجيرات	٥٤
- شده الرحلة إلى الحافظ السيد أحمد بن الصديق في منفاه بسلا	٥٤
- رجوعه من سلا إلى طنجة	٦٠
- ما بعد هجرة شيخه الحافظ إلى مصر	٦١
- خطابته بجامع الحاج مسعود بحي المصلى	٦٢
- بداية قراءته مع الطلبة وتزوجه	٦٣
- طبع مطابقة الاختراعات العصرية ورؤيا كليم الله موسى عليه السلام	٦٤
- التفاف جماعة من الشباب حوله	٦٥
- حدوث زلزال هائل بمدينة أكادير	٦٥
- ختم تفسير الجلالين مع الطلبة	٦٦
- محاولة اغتياله	٦٦
- الإشاعة عليه بأنه مسيحي	٦٧
- وصول نعي الحافظ أبي الفيض إلى طنجة	٦٧

الموضوع	الصفحة
- تأسيس معهد لتحفيظ القرآن وتدريس العلوم	٦٧
- ما ولد له من الأولاد في هذه المدة	٦٨
- خروجه للبادية للدعوة ومضايقاته من طرف السلطة	٦٩
- استدعاؤه لمخفر الشرطة بتطوان	٦٩
- إلقاؤه درساً بالجامع الكبير بتطوان وما نشأ عنه	٧٠
- وشاية بعضهم به لمخفر الشرطة بطنجة	٧١
- عقد اجتماع ضده في التحذير منه	٧١
- وفاة والده وحجته الأولى	٧٢
- حجته الثانية	٧٣
- وفاة والدته وولادة ولده محمد	٧٥
- بدايته في تهذيب جامع الترمذي	٧٥
- حجته الثالثة وزيارته القاهرة للمرة الأولى	٧٦
- رحلته للكويت وزيارته القدس للمرة الثانية	٧٦
- بناؤه الدار بآخر شارع الحسن الثاني بمرشان	٧٧
- إرادته الهجرة وحجته الرابعة	٧٨
- حجته الخامسة وبدايته في التجارة في الأرض والبناء	٨٠
- حجته السادسة واجتماعه بالألباني للمرة الثانية	٨١
- حجته السابعة والثامنة وزيارته القاهرة للمرة الثالثة	٨٤
- حجته العاشرة وزيارة القاهرة للمرة الرابعة	٨٥
- حجته الحادية عشرة	٨٦
- حجته الثانية عشرة مع زيارة القاهرة	٨٦
- حجته الثالثة عشرة وحدوث فتنة بالمسجد الحرام	٨٧
- دخوله السجن مع جماعة من العلماء	٨٧
- حجته الرابعة عشرة	٨٩
- حجته الخامسة عشرة مع زيارة القاهرة	٨٩
- باقي حجاته المباركة	٩٠
- تابع عُمَره كل سنة	٩٠
- حجته الثالثة والعشرين وحصول ذلك الحريق الهائل	٩١

الموضوع	الصفحة
- تابع عمره خمس سنوات أخرى	٩٢
- حالته الشخصية وأعماله	٩٤
- عقيدته	٩٦
- مذهبه الفقهي	٩٦
- رأيه في الفرق الإسلامية	٩٨
- الجماعات الإسلامية	٩٩
- رأيه في الفرق الصوفية	١٠٠
- نظره في الشعوب الإسلامية ودولها الحالية	١٠٢
- منن الله ونعمه عليه	١٠٤
- مبشراته المنامية	١١٦
- رحلاته	١٢٤
- مؤلفاته	١٢٥
- نموذج من رسائله وأجوبته العلمية في الفقه والحديث وغير ذلك	١٣٠
- بعض ما كتبه في مؤلفاته من كلام هام	١٣٧
- شيوخه في القراءة والسماع والإجازة	١٤٤
- حرف الهمزة	١٤٤
- حرف الحاء	١٤٧
- حرف العين	١٤٧
- حرف الميم	١٥٨
- تلامذته	١٦٩
- العلماء والمحدثون ورجال الفكر والدعوة الذين عاصرهم أو لقيهم أو صحبهم	١٧٠
- من لقيهم وتبرك بهم من الصالحين	١٧٢
- الحركة العلمية بالمغرب أيام حياته	١٧٣
- الحركة السياسية طوال حياته	١٧٨
- الحالة الاجتماعية في حياته	١٨١
- أهم الأحداث التي وقعت في حياته	١٨٦
- الفهرست	١٨٩

مُلحق الصُّوَر

الشيخ المحدِّث الشريف أبو الفتوح عبد الله بن عبد القادر التَّليدي حفظه الله

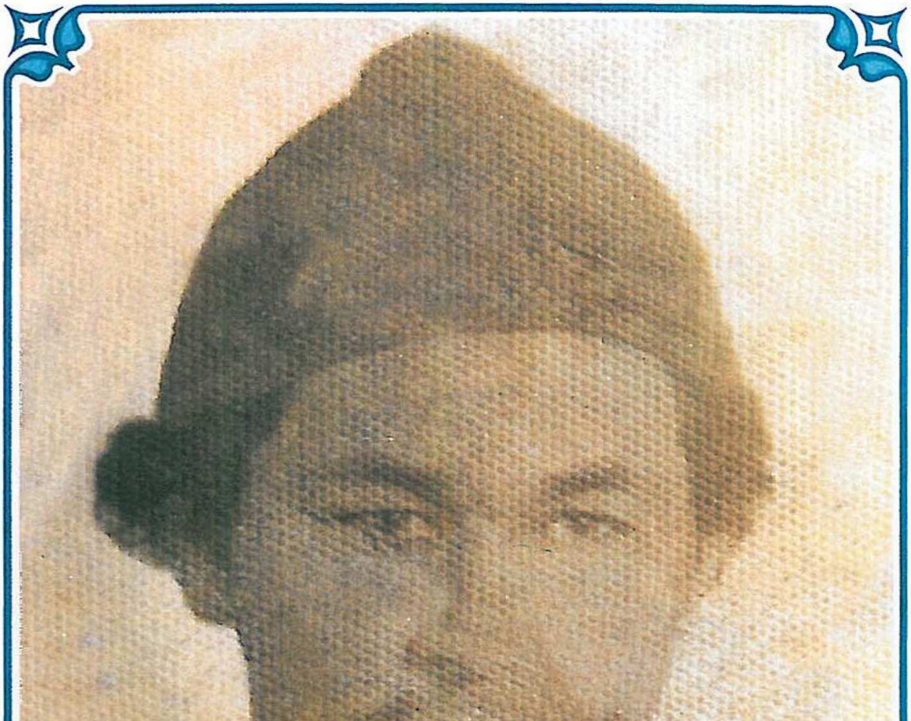

المؤلف في بداية شبابه

المؤلف في عنفوان شبابه

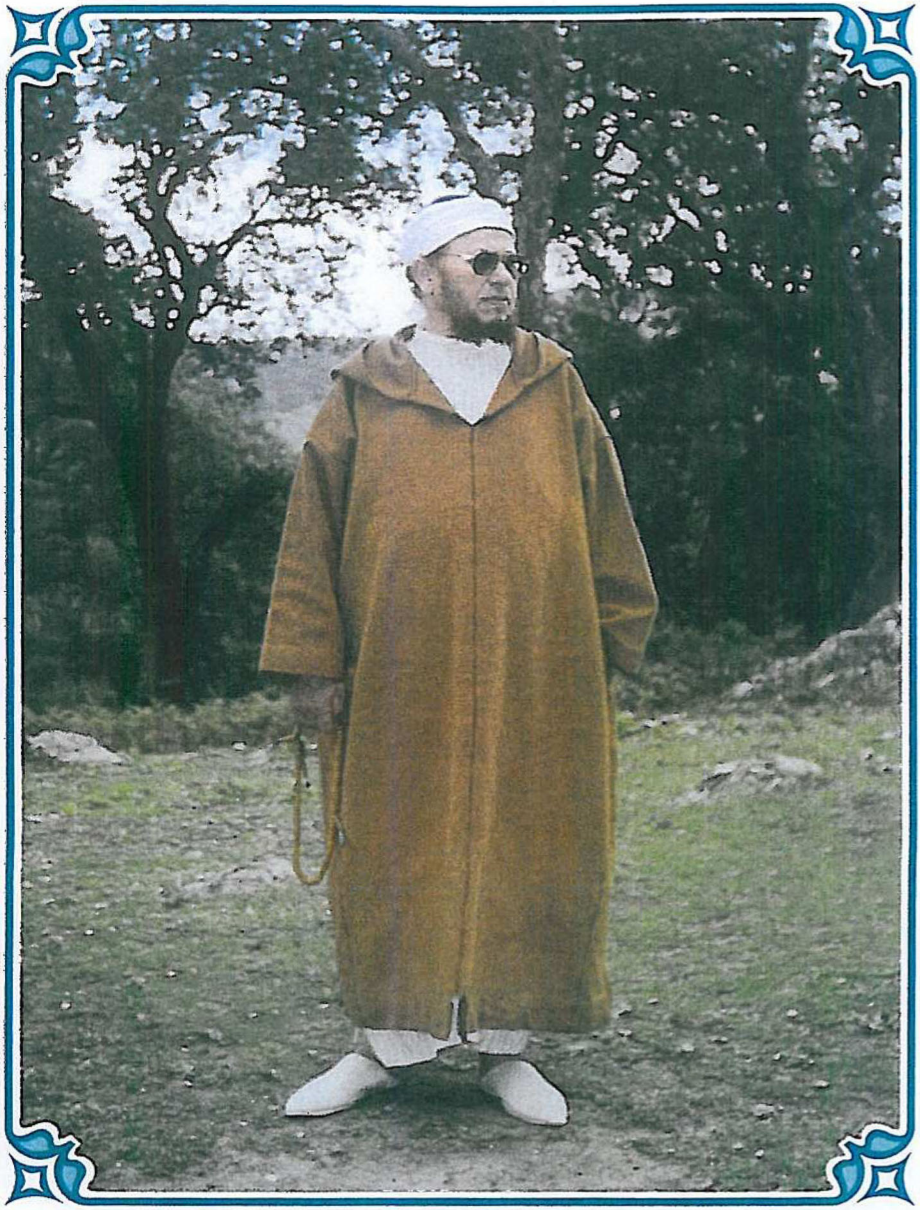

المؤلف في جبل العلم عام ١٤٢٠ هـ

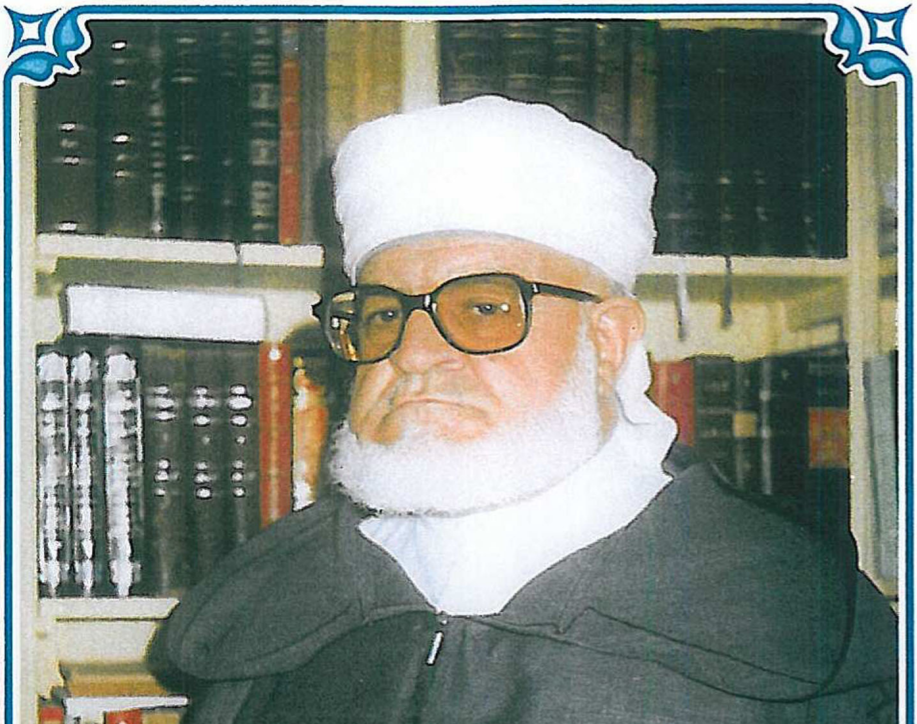

من شيوخ المؤلف سيدي عبد العزيز بن الصديق رحمه الله تعالى

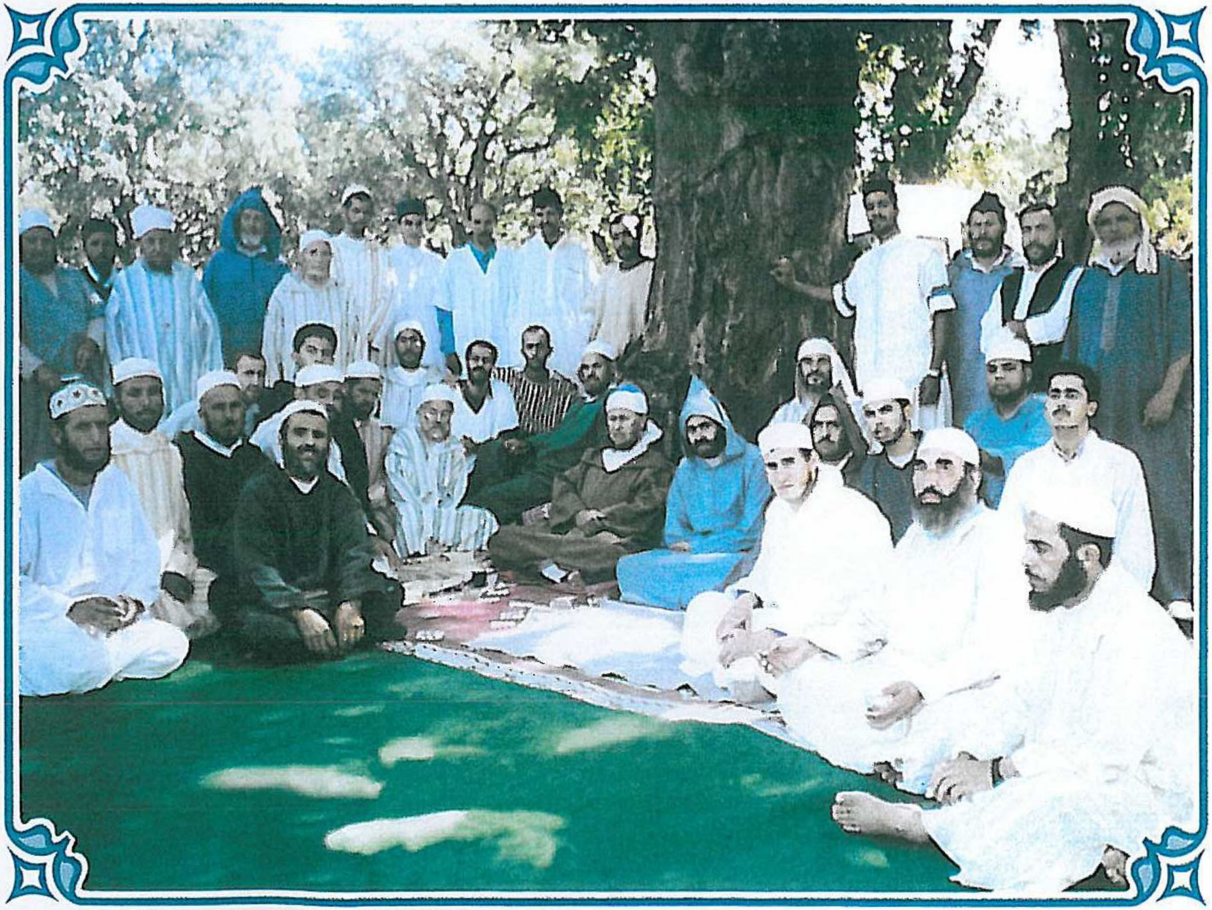

المؤلف مع أصحابه في نزهة وَزيارة عام ١٤٢٠ هـ

من اليمين مجد مكي، المؤلف سيدي عبدالله التليدي، عبد الوهاب اليمني، ابن المؤلف محمد عبد الله التليدي

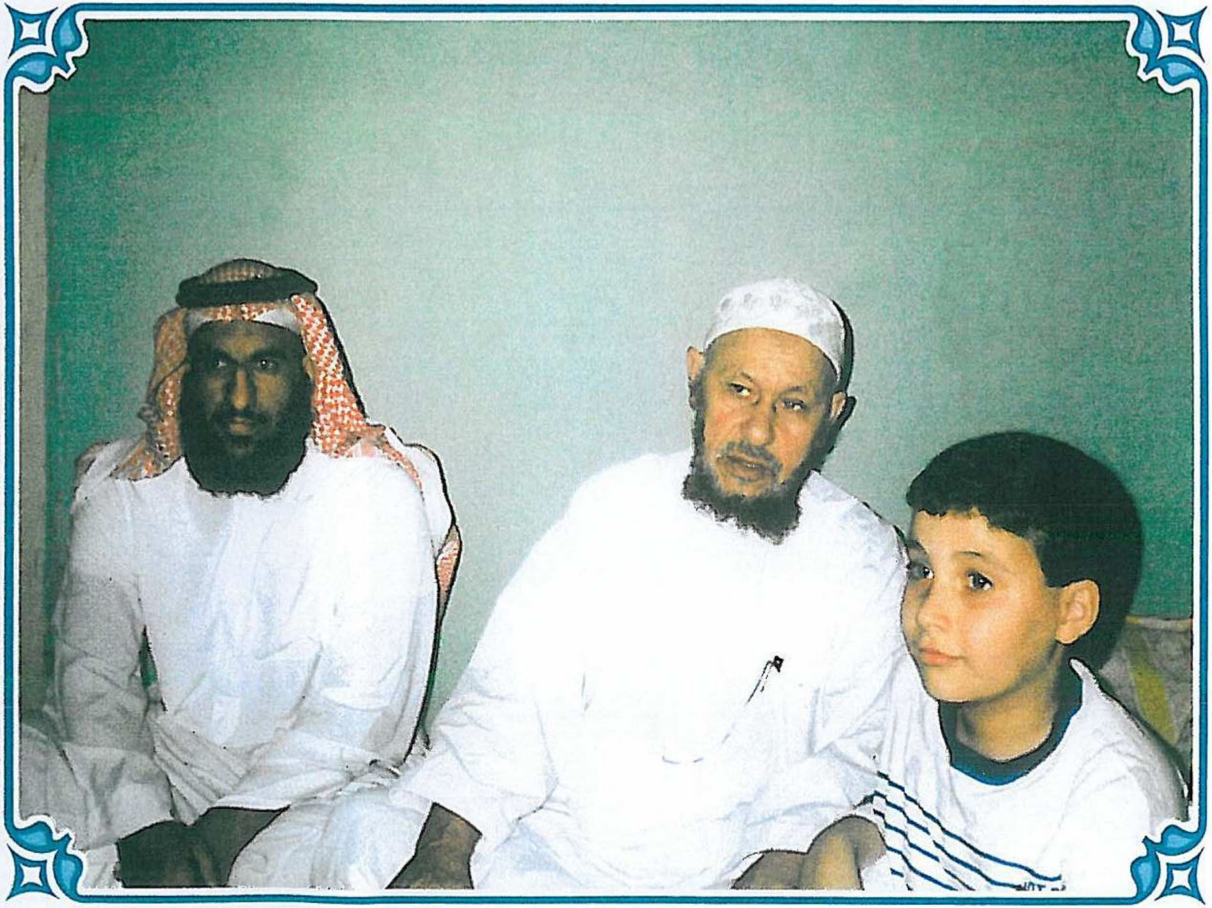

فضيلة الشيخ عبد الله التليدي وعن يمينه الشريف عصام وعن يساره أحمد بن مجد مكي